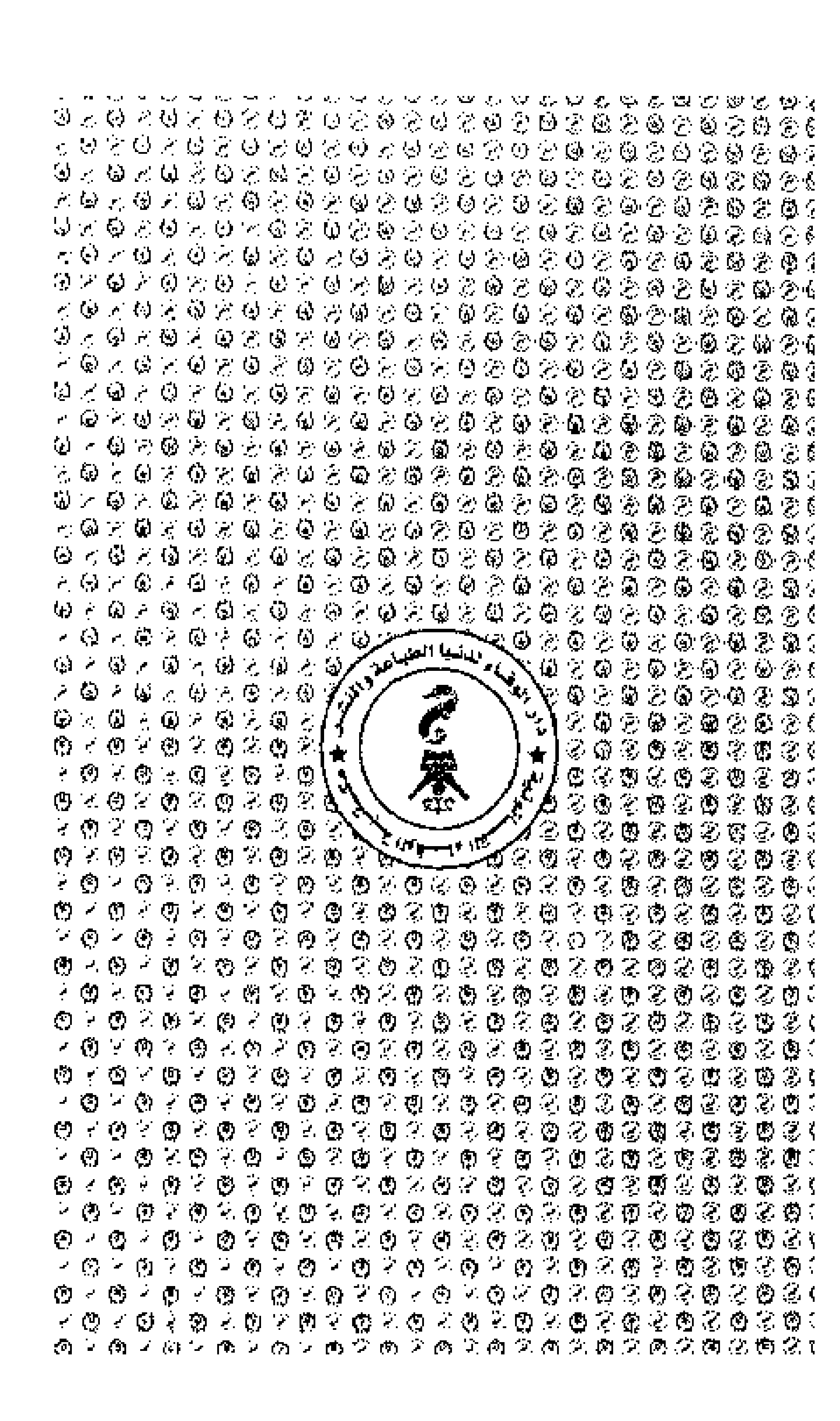
قضايا من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

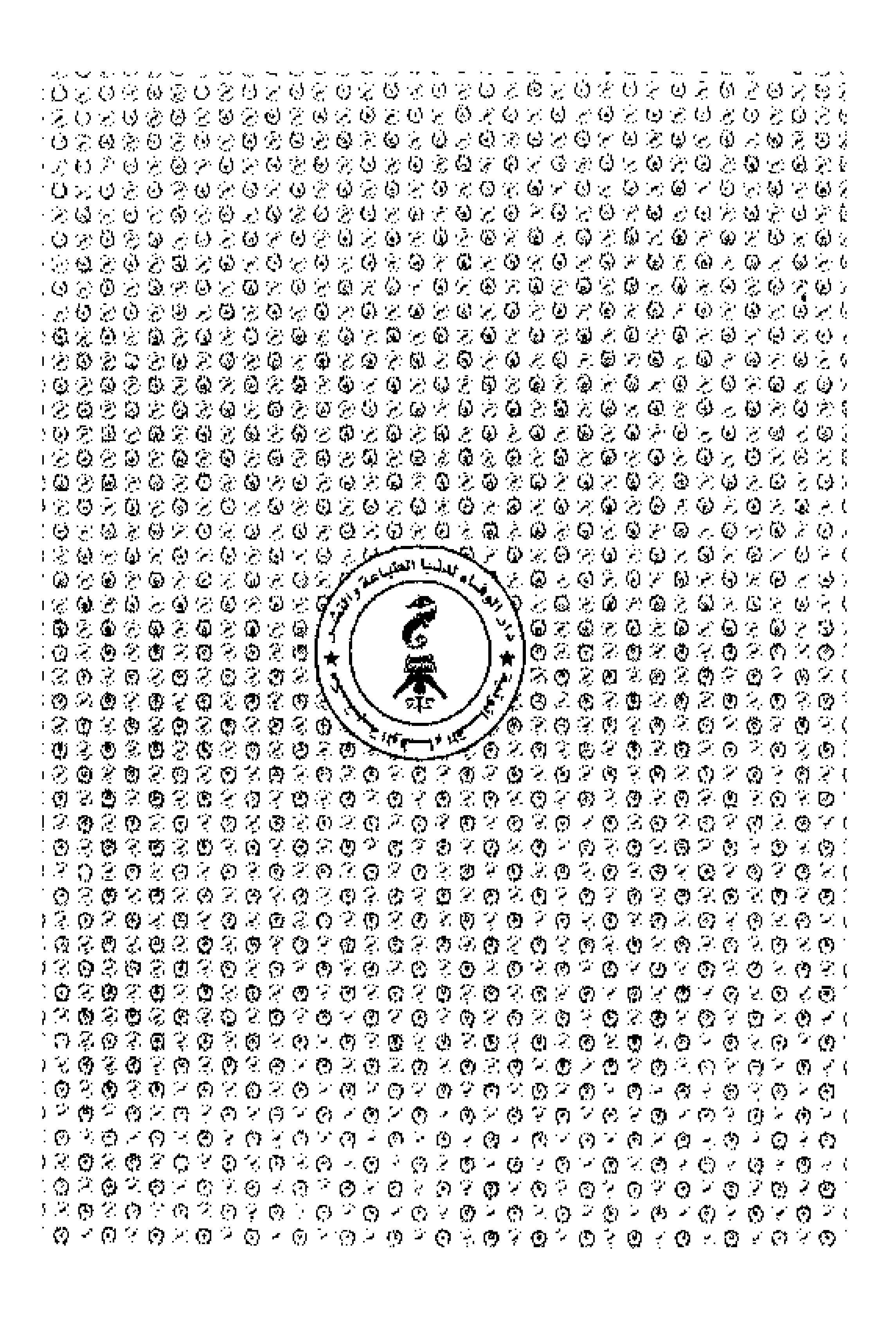






دكتور
محمد محمد عبد الحميد فرحات
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
وكيل شئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة قناة السويس





قضايا من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب

في العصور الوسطى

دكتـــــور

محمد محمد عبد الحميد فرحات

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

وكيل شئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة

كلية الآداب و العلوم الإنسانية

جامعة قناة السويس

الطبعة الأولى

2014م

الناشـر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس : 5404480 - الإسكندرية

المقدمة

تمثل الحركة الصليبية مرحلة جديدة ومنعطفاً خطيراً في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، كما إنها تشكل جانباً هاماً ونقطة فارقة في تاريخ أمتنا العربية والإسلامية لما لهذه الحركة من أهمية وما ترتب عليها من نتائج لا تزال آثارها تنعكس علينا ونعاني منها حتى وقتنا الحاضر بطريقة أو بأخرى .

وقد نالت تلك الحركة اهتمام الكثير من العلماء والباحثين في الشرق والغرب على حد سواء الذين تناولوا جوانبها المختلفة سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو غيرها بالبحث والتحليل بغية استنباط الدروس والعبر التي يمكن استخلاصها من خلال دراستها . وقد خرجت مائات الكتب والمؤلفات التي تناولت جانباً أو عدة جوانب من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ومع ذلك تظل الحركة الصليبية معيناً لا ينضب وبحر في أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاته؟.

ولقد اتسمت العلاقات بين الشرق والغرب إبان الحروب الصليبية في جملتها بالسلم حيناً والعداء أحياناً فنرى الحروب تنشب من وقت إلى آخر وتستعر المعارك بين الجانبين بما يترتب عليها من قتل وأسر وتخريب وتدمير، وفي المقابل نرى المعاهدات والهدن تبرم بين الطرفين بما ينجم عنها من أمن وسلام ورخاء ونماء فنرى السفارات والبعثات الدبلوماسية تتردد بين الجانبين، وتنتقل التجارة بما تحمله من بضائع وسلع وأفراد من هذا الجانب إلى الجانب الآخر، بل نرى أحياناً تبادل الزيارات غير الرسمية تنشط بين أفراد المجتمعين الصليبي والإسلامي للمشاركة في

المناسبات الاجتماعية من أفراح وأطراح، أو دينية من مواسم وأعياد وغير ذلك من مشاركات تشعرك كأن هذين المجتمعين يتعايشان معاً ويحيون حياة ملؤها السلام والوئام وليس هناك ما يكدر صفو العلاقات بينهما، وفجأة ودون مقدمات تتلبد السماء بالغمام وتنقلب الأمور رأساً على عقب، فتلوح في الأفق الصواعق من رعد وبرق وتنذر بشر مستطر: فتسمع صهيل الخيل وصليل السيوف وصيحات الرجال وصرخات الفرسان. وتشاهد غبار المعارك متصاعداً إلى عنان السماء وترى النشاب والرماح والنبال مارقة في السماء كالسهام وكأن شيئاً من سلام أو وئام لم يكن من قبل سائداً بين هؤلاء الأنام. وهكذا يتكرر المشهد باستمرار على مدار قرنين تقريباً من الزمان.

وتسلط هذه الدراسة الأضواء على عدة قضايا متنوعة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، وهي وإن دارت أحداثها إبان فترة الحروب الصليبية، إلا أن تلك القضايا لا تزال جديدة ومتجددة، بل إن بعضها لا يزال موضع اهتمام الرأي العام العالمي. وهي وإن تبدو للوهلة الأولى روافد متفرقات عند البدء، إلا أن مجرى واحد يضمها عند المنتهى. وجاءت أولى تلك القضايا تحت عنوان " الخلافات بين الصليبيين وأثرها على وجودهم في الشرق فيما بين الحملتين الأولى والثانية " وهي تؤكد على أن الخلافات التي نشبت بين الصليبيين بعضهم البعض لم تكن وليدة استقرارهم في الشرق، بل اصطحبوها معهم حين خرجوا من الغرب ونقلوها معهم حيث أقاموا في الشرق. وأن تلك الخلافات لم تكن عابرة بل كانت متأصلة متجذرة، لم تقتصر على فئة بعينها من الصليبيين بل انغمس فيها كافة فئات المجتمع الصليبي وطوائفه من رجال ونساء وعلمانيين ورجال دين أيضاً. وكان

لتلك الخلافات بلا شك آثارها الوخيمة التي انعكست على الوجود الصليبي ؛ فأضاعت عليهم فرصاً ثمينة لو استغلت بحق لربما تمكنوا من التهام بلاد الشام جميعها في سهولة ويسر هذا من جهة ، ولو فطن إليها المسلمون واستغلوها لصالحهم لربما تغير مجرى الأحداث بالمنطقة تغيراً كبيراً من جهة أخرى ، ولكن من حسن حظ الصليبيين أن عان المسلمون من نفس الداء الذي كانوا هم يعانون منه ، إن لم يكن أشد وأنكى.

وتأتي القضية الثانية بعنوان " الدور السياسي لبنات الملك بلدوين الثاني في الشرق اللاتيني " وهي تؤكد على أن النساء اللائي يساعدهن القدر في الوصول إلى سدة الحكم أو يتقلدن مناصب رفيعة ، لا يقنعن بالتقوقع داخل ذلك النطاق الضيق من النشاط الديني والاجتماعي الذي دأبت المرأة على ممارسته ، بل يتطلعن بشغف إلى الاضطلاع بدور سياسي يرضين به غرورهم وشهوتهن للسلطة والحكم ، بغض النظر عن ما يترتب على القيام بذلك الدور من عواقب سواء كانت إيجابية أو سلبية . وهذا الأمر لم يقتصر على بنات الملك بلدوين والمرأة الفرنجية في الشرق اللاتيني فحسب ، بل على كافة النساء في كل زمان ومكان حتى في وقتنا الحاضر .

وتعالج الدراسة بعد ذلك قضية أخرى على جانب كبير من الأهمية تتعلق " بتمرد الأميرة أليس في أنطاكية " وهي توضح أن الرجال لم ينفردوا وحدهم بتدبير الانقلابات والتمردات العسكرية ، بل شاركتهم النساء كذلك . كما تؤكد أيضاً على أن طموح الأميرة أليس وحبها للحكم هو الذي دفعها لإعلان تمردها على السلطات الحاكمة ولجوئها إلى استخدام القوة المسلحة من أجل المحافظة على

الانفراد بالسلطة وإن كان ذلك بدون وجه حق، وكيف استعانت في سبيل ذلك بالقوى المختلفة سواء كانت إسلامية أو صليبية أو بيزنطية لضمان نجاح مخططها دون أدنى اعتبار للصالح الصليبي العام كما تشير الدراسة إلى ما ترتب على ذلك التمرد من نتائج خطيرة على كل من الصليبيين والبيزنطيين على حد سواء .

أما القضية التي تلي ذلك فتتعلق بمسألة " اللجوء السياسي في الشرق اللاتيني " وهذه القضية وإن كانت أحداثها قد وقعت إبان فترة الحروب الصليبية، بيد أنها لا تزال تشغل بال الرأي العام العالمي، فهي تسلط الضوء على معاناة بعض الأفراد والجماعات وما يكابدونه من اضطهاد وعنت مما يجعلهم لا يأمنون على حياتهم ومستقبلهم، ويضطرون إلى هجر أوطانهم والتماس الأمن والسلام في بلد آخر . ورغم ما يبديه البلد المضيف من شفقة ورحمة تجاه هؤلاء اللاجئين، إلا أن هذه الرحمة وتلك الشفقة لا تخلو من النفعية والمصلحة الذاتية : فكثيراً ما تستخدم الدولة المضيفة هؤلاء اللاجئين كورقة ضغط ضد خصومها في الوقت المناسب .

وتناقش الدراسة كذلك قضية لا تزال حتى أيامنا هذه مثار نقاش وجدل كبير وأعني بها العلاقة بين الدين والسياسة من خلال موضوع " الدور السياسي للكردينال بلاجيوس في الحملة الصليبية الخامسة على مصر " وهي تبرهن على وجود علاقة وثيقة بين الدين والسياسة في العصور الوسطى، تظهر واضحة جلية إبان الحروب الصليبية، وآية ذلك الدور السياسي الذي أنيط بالبابوية ورجال الدين سواء في الغرب الأوربي أو في الشرق الإسلامي . وكيف تمكن رجال الدين من التأثير على المجتمع الغربي فحشدوا الحشود وجيشوا الجيوش

وانطلقوا صوب الشرق الإسلامي لانتزاع أراضيه من أيدي أصحابها بحجة أنها أماكن مسيحية مقدسة . ولم يكتف رجال الدين بذلك فحسب، بل نراهم رهباناً بالليل فرساناً بالنهار، يمتطون صهوة الخيل ويخوضون غمار المعارك، فيقتلون ويتقتلون ويأسرون ويؤسرون، بل وصل الأمر ببعضهم أن نازعوا القادة العسكريين والزعماء السياسيين سلطانهم واضطلعوا بمهمة قيادة واحدة من أهم الحملات الصليبية، وهي الحملة الخامسة على مصر، وهذا هو الدور الذي قام به الكردينال بلاجيوس .

وبعيداً عن ساحات القتال وغمار المعارك والحروب والتمردات والثورات، تعرض هذه الدراسة لقضية أخرى على جانب كبير من الأهمية وهي تتعلق بالدور الدبلوماسي الذي يمكن أن تقوم به البعثات والوفود الدبلوماسية من أجل تجنيب الشعوب والأمم ويلات الحروب، وذلك من خلال موضوع " وفود آل إبلين ببيروت إلى سلاطين المماليك " وكيف تمكن هؤلاء الوفود من التوصل إلى عقد الهدن ومعاهدات الصلح بين الصليبيين ببيروت وبين سلاطين المماليك بمصر وبلاد الشام، وكيف نجحوا في أن يطيلوا من أمد الوجود الصليبي في الشرق رغم ما اعتراه من ضعف ووهن نتيجة ما قاموا به من جهود دبلوماسية وفرت للمنطقة قسطاً كبيراً من السلام؛ عاش فيه الجانبان الصليبي والإسلامي يرفلون في أمن واستقرار .

وأخيراً تعرض الدراسة لقضية أخرى غاية في الأهمية، تتمثل في ازدواجية الدور الذي يمكن أن تلعبه دولة ما في علاقتها مع القوى المختلفة أو بمعنى آخر إمساك العصا من الوسط، وذلك من خلال استعراض قضية " العلاقات السياسية بين البحتريين والصليبيين إبان

الحروب الصليبية " وتوضح هذه الدراسة كيف قام أفراد هذا البيت من البحتريين بلعب دور مزدوج في علاقتهم بالصليبيين والمسلمين، وأنهم اتقنوا أداء ذلك الدور وتمكنوا رغم صغر حجمهم وقلة قوتهم من المحافظة على وجودهم واستمرار بقائهم وسط قوتين كبيرتين هما المسلمين والصليبيين . فكانوا تارة يعمدون إلى الإرتماء في أحضان الصليبيين والاستنجاد بهم إذا ما استشعروا الخطر من جانب المسلمين، ويستصرخون المسلمين إذا ما أحسوا بالغدر من قبل الصليبيين . وتارة أخرى يقومون بتوزيع الأدوار فينضم فريق منهم إلى جانب المسلمين، بينما ينضم الفريق الآخر إلى جانب الصليبيين، فإذا مالت الكفة إلى إحدى القوتين، قام هؤلاء البحتريون في هذا الجانب بالشفاعة لدى حلفائهم لإخوانهم البحتريين في الجانب الآخر للصفح عنهم والتماس العذر لهم . وبهذه الطريقة حافظ أفراد ذلك البيت على بقائهم ووجودهم في المنطقة، وضمنوا استقلالهم بعيداً عن أن تهشهم مخالب القوتين الكبيرتين ومثل هذا الدور — وللأسف الشديد — تقوم به بعض الدول في منطقتنا العربية حتى وقتنا الراهن .

وبعد، وإنني إذ أقدم هذا الكتاب إلى القارئ الكريم، فإنني أرجو الله أن أكون قد وفقت في عرضه عرضاً علمياً سليماً بعيداً عن أية ميول وهوى متحرياً الدقة والأمانة العلمية في الوصول إلى الحقيقة المجردة، مبتغياً في ذلك وجه الله وخدمة العلم والعلماء . والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أ.د/ محمد محمد فرحات

الفصل الأول

الخلافات بين الصليبيين وأثرها على الوجود الصليبي في الشرق فيما بين الحملتين الأولى والثانية

لم تكن خلافات الصليبيين وليدة وجودهم في الشرق، بل نشأت مواكبة للدعوة للحروب الصليبية، ولم تقتصر تلك الخلافات على فئة دون الأخرى، بل امتدت لتشمل كل الفئات من أمراء، ونبلاء، وملوك، وحتى العامة . كما لم تقتصر على العلمانيين وحدهم، بل طالت رجال الدين أيضاً . كما أنها لم تكن وقفاً على الرجال وحدهم بل شاركتهم النساء كذلك . ولم تكن تلك الخلافات متصورة على الصليبيين بعضهم البعض، بل نشبت بين الصليبيين وبين القوى المختلفة في الغرب والشرق على حد سواء .

ولما كانت خلافات الصليبيين كثيرة ومتشعبة يصعب معها حصرها وتناولها بالدراسة والتحليل، لذا اقتصرت هذه الدراسة على تناول الخلافات التي حدثت بين كبار الأمراء الصليبيين بعضهم البعض أو بينهم وبين ملوك بيت المقدس في الفترة ما بين الحملتين الأولى والثانية لما لهذه الفترة من أهمية حيث شهدت بدايات الاستيطان الصليبي في الشرق، وتبلورت خلالها أهدافها . كما ركزت الدراسة على إبراز الخلافات التي ترتبت عليها آثار كبيرة وغضت الطرف عن غيرها من الخلافات .

فما أن بدأت الحروب الصليبية، ونجح الصليبيون في عبور آسيا الصغرى حتى انفصل كل من الأمير بلدوين اوف بوايون Baldwin of Bouillon وتنكريد Tancred عن الجيش الرئيسي وتوجها إلى إقليم قليقية . وقد تمكن الأخير من دخول مدينة طرسوس وكان معه جماعة صغيرة تتألف من مائة فارس ومائتين من المشاة وضع رايته عليها بعد هروب الحامية التركية منها، إلا أن بلدوين عندما وصل بعد ذلك إلى المدينة ومعه خمسمائة فارس وألفين من المشاة ساءه ما حدث وأرغم

تنكريد على التخلي عن المدينة والذهاب إلى أذنة وانفرد هو بطرسوس . وعندما وصلت النجدة التي كان قد طلبها تنكريد من الجيش الرئيسي وقوامها ثلاثمائة من النورمنديين رفض بلدوين السماح لهم بدخول المدينة – برغم توسلاتهم – فعسكروا خارجها ، وبينما هم كذلك باغتتهم الحامية التركية التي كانت تجوب المنطقة ليلاً فقتلتهم عن آخرهم [1].

وقد تجدد الخلاف بين الأميرين مرة أخرى عندما تمكن تنكريد من دخول المصيصة في أكتوبر 1097م – ذي القعدة 490هـ وأثناء وجوده بالمدينة وصل بلدوين وجيشه ، فرفض تنكريد السماح لهم بدخول المدينة وأجبرهم على أن يضربوا معسكرهم خارجها ؛ ولكن الكثيرين من النورمنديين لم يحتملوا أن يفلت بلدوين دون عقاب على جريمته في طرسوس ، فحرضوا تنكريد على الاشتراك معهم في هجوم مفاجئ على معسكره ، ولكن سرعان ما ردهم بلدوين على أعقابهم مهزومين ، ولما لم يجد الخلاف بين الجانبين نفعاً أفسحا للصلح مجالاً بينهما ، ولكن بعد أن أدرك المسيحيون الوطنيون أن مخلصيهم الصليبيين ليسوا على استعداد للتعاون من أجل خير المسيحيين عامة حتى تلوح فرصة للفوز بممتلكات خاصة ، وأيقنوا أن تحرك الفرنج من منطلق مشاعر الإيثار ليس إلا تحركاً مصطنعاً ، وتعلموا إن خير وسيلة للاستفادة من الفرنج هي الإيقاع بينهم [1] .

---

(1) Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, ed. R.H.C., H.Occ., T. IV,Paris, 1879, pp. 342 – 43; Raoul de Caen, Gesta Tancridi in Expedition Hierosolymetana , ed. R.H.C., H.Occ., T. III, Paris, 1866, pp.629 – 31.

(2) ترد قصة الحملة على قليقية مفصلة عند :

Albert d'Aix, op. cit., t. IV, pp. 342 – 50; Raoul de Caen, op. cit., pp. 626 – 41. cf. also, Mayer, The Crusades , tr. Jilleng Ham, Oxford University Press, 1972, p. 268.

ولعل من أهم النتائج التي ترتبت على نشوب الخلاف بين تنكريد وبلدوين أن قل عدد جنودهما، كما أضاع بلدوين على تنكريد فرصة تأسيس إمارة له في قليقية، وفي نفس الوقت فقد صرف بلدوين النظر عن التمسك بإقامة إمارة له هناك إما بسبب قربها من الدولة البيزنطية أو لحث الأرمن له بالإسراع شرقاً إلى أعالي الفرات[1].

وما كاد الصليبيون يستولون على أنطاكية حتى دب الخلاف بينهم، فعندما عقد القادة الفرنج اجتماعاً في كاتدرائية القديس بطرس بالمدينة في نوفمبر 1098م / ذي الحجة 491هـ لتحديد خط سير الحملة وتقرير مصير أنطاكية ظهر الخلاف واضحاً بين بوهيموند النورماندي Bohemond of Normandy وريموند الصنجيلي Raymond of Saint- Jilles حول أحقية كل منهما في ملكية المدينة، مما أثار السخط والتذمر بين الجند وبقية الفرسان الفرنج، واتهموا قادتهم بخيانة القضية الصليبية، وهددوهم بالتخلي عنهم وتدمير أنطاكية وأسوارها[2].

---

(1) Fulcher of Charteres, A Hostory of the Expedition to Jeruselem, tr. Frances Ryan, U. S.A., 1969, p. 89; Matthieu d'Edesse, Extrait, de la Chronique, ed. R.H.C., Doc. Arm., T. I, Paris, 1869, p. 35.

انظر أيضاً : محمد الشيخ : عصر الحروب الصليبية في الشرق ، الشهابي للطباعة والنشر ، 1997، ص 130 – 131؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، 2جـ ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1982، جـ 1، ص 176 – 77.

(2) William of Tyre,A History of Deeds done Beyoned the Sea, tr. Babcock and kary, 2 vols.,N.Y., 1943, Vol, I, P. 249; Fulcher of Charteres, op. cit., p. 112.

انظر أيضاً : ريموند اجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، نقله إلى العربية وعلق عليه ، حسين محمد عطية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1990م، ص164 – 95.انظر أيضاً : يوشع براور : عالم الصليبيين ، ترجمة وتعليق ،

وفي مواجهة هذا الموقف خشي القادة الأكثر اعتدالاً أن يلجأ ريموند وبوهيموند إلى السلاح فاقترحوا إجراء مناقشة يسودها الود يشترك فيها الأمراء الرئيسيون فقط دون غيرهم . وبعد أن شهد الاجتماع المزيد من المشادة الغاضبة، أعلن ريموند أنه يوافق على القرارات التي يتوصل إليها المجلس في نهاية الأمر بشأن انطاكية شريطة أن يقسم بوهيموند على مصاحبة الحملة الصليبية إلى بيت المقدس، بينما أقسم بوهيموند أمام الأساقفة على عدم تأخير الحملة الصليبية أو الإضرار بها من أجل طموحاته الشخصية [1]. وقد فشل المجلس في حسم مسألة انطاكية، وظل كلا الأميرين يستأثر بجانب من المدينة، كما لم يحدد المجلس تاريخاً للانطلاق إلى بيت المقدس، ونتيجة لكل ذلك أضاع الصليبيون وقتاً ثميناً ببقائهم في انطاكية مما أتاح الفرصة للفاطميين لحصار بيت المقدس والاستيلاء عليه من الأراتقة في حرية تامة، كما أشاع روح التذمر والضجر بين الجند [2].

قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، 1999، ص 45.

(1) Historia Belli Sacri, (Tudebodus Continuatus) , in R.H.C., H. Occ., T. III, p. 208.

انظر أيضاً : ريموند داجيل : المصدر السابق ، ص 165؛ المؤلف المجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمه وقدم له : حسن حبشي ، دار الفكر العربي ، 1958، ص 68. راجع أيضاً الرواية البيزنطية عن هذا الصراع في :

Anna Comnena, The Alexiad, tr. E.R. A. Sewter, JreatEritain, 1969, p. 258.

(1) والجدير بالذكر أن الفاطميين نجحوا في انتزاع بيت المقدس من إيلغازي وسقمان ولدي أرتق في شعبان 489هـ بعد حصار دام نيفاً وأربعين يوماً . وللمزيد من التفاصيل انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، 9جـ ، دار الفكر ، بيروت ، 1978، جـ 8، ص 189؛ ابن القلانسي : الذيل ، بيروت ، 1908، ص 135.

وإزاء ذلك رأى الصليبيون إنه من الحكمة شغل الجند بعمل مفيد يشد انتباههم ويلهيهم عما يجري من خلاف بين قادتهم، وعليه قرروا مهاجمة مدينة معرة النعمان [1] والاستيلاء عليها لتأمين مسيرة الجيش عندما يتقدم جنوباً باتجاه بيت المقدس، ولكن سرعان ما تجدد الخلاف بين الأميرين مرة أخرى . فعلى الرغم من إن جنود ريموند هم الذين استولوا على المدينة، إلا إن بوهيموند استأثر بالجزء الأكبر من الغنيمة، مما أثار حفيظة ريموند ودفعه إلى مطالبة بوهيموند بالتخلي من المدينة وقد رفض الأخير طلبه إلا إذا تخلى ريموند له عن المنطقة التي يحتلها في أنطاكية [2] .

ضجر الصليبيون من تجدد الخلاف بين الأميرين وألحوا على ريموند بضرورة استكمال المسيرة إلى بيت المقدس فاضطر إلى الإعلان عن قرب استئناف الحملة أملاً أن يكون هو القائد الأوحد لها، وبسبب تلكئه قام الصليبيون بإحراق وتدمير أسوار معرة النعمان حتى لا يبقى

---

(1) Fulcher of Charteres, op. cit., p. 112; Wiliam of Tyre, op.cit., p.310.
سميت بذلك نسبة للنعمان بن بشير أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي مات ودفن هناك جنوب أسوار المدينة . راجع : ياقوت الحموي : معجم البلدان، 5جـ، بيروت، 1979، جـ 4، ص 574.

(2) لمزيد من التفاصيل عن استيلاء الصليبيين على معرة النعمان وما جرى بها من أحداث راجع :
Fulcher of Charteres, op. cit., pp. 112 – 13 ; Albert d'Aix, op. cit., p.268.
انظر أيضاً : ابن القلانسي : المصدر السابق، ص 126 – 37؛ ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب، 3جـ، تحقيق، سامي الدهان، دمشق ـــ 1968، جـ2، ص 141 – 42.

لريموند عذر في البقاء بالمدينة، في حين عاد بوهيموند إلى انطاكية وتمكن من طرد الحامية التي تركها ريموند بالمدينة واستأثر بحكمها 1098– 1104م / 491 – 498هـ [1].

كان للخلاف السابق أثره السلبي على الصليبيين فضلاً عن أنه أوغر صدور معظم القادة الصليبيين وبث الحقد والكراهية بينهم، فإنه أدى إلى تدمير مدينة معرة النعمان، رغم ما بذلوه من جهد كبير في الاستيلاء عليها. والحقيقة إن إذعان ريموند لطلب جنده لم يكن مبرأ من الهوى، فهو لم يتحرك إلى بيت المقدس إلا عندما تيقن من إنه سيكون القائد الأوحد للحملة. وبذا يتضح لنا إن هدفه لم يكن أبداً الصالح العام بقدر ما كان تحقيقاً لمآربه الشخصية، أما بوهيموند فقد قنع بانطاكية واخلد إلى الأرض وفضل البقاء بها على اللحاق بجنود الحملة الأمر الذي حرم الصليبيين من عون جنوده الذين بقوا معه مما أدى إلى تناقص أعداد الصليبيين وتعرضهم إلى مواقف لا يحسدون عليها أثناء رحلتهم إلى بيت المقدس.

تفجر الخلاف مرة أخرى بين الصليبيين عقب استيلائهم على بيت المقدس يوليو 1097/ شعبان 492هـ حيث نشب هذه المرة بين جودفري اوف بوايون Godfrey of Bouillon وريموند كونت تولوز الذي أعتقد أن الأول قد خدعه وسلب منه حكم بيت المقدس [2]، لذلك

---

(1) Fulcher of Charteres, op. cit., p. 113; Albert d'Aix, op. cit., p.268; William of Tyre, op. cit., p. 313. cf. also, Michaud, History of Crusades, tr. Ropson, 3vols, London, 1952, vol.I, p.186.

(2) لمزيد من التفاصيل عن الخلاف بين جودفري وريموند على حكم بيت المقدس راجع: William of Tyre, op. cit., p. 382

رفض ريموند تسليمه برج داوود الذي تسلمه من الحامية الفاطمية، متعللاً بأنه ينوي البقاء في بيت المقدس للاحتفال بعيد الفصح التالي وسيكون البرج محل إقامته، وتحت ضغط من بقية القادة الصليبيين وافق ريموند على أن يتركه في رعاية أسقف البارة إلى أن يعقد مجلس عام للحملة الصليبية لحسم الأمر. على إنه ما أن انتقل ريموند من البرج حتى سلمه الأسقف إلى جودفري دون انتظار لقرار تحكيمي متعذراً بعدم توفر أسباب الدفاع عن البرج لديه، وإن قيل إن جنود ريموند هم الذين دفعوا الأسقف إلى ذلك حتى يجبروا قائدهم على الإسراع والعودة إلى الغرب، لذلك ثارت ثائرة ريموند وغادر بيت المقدس ونصب معسكره خارج المدينة بعد عودته من رحلة قصيرة إلى نهر الأردن[1].

لم يقف الخلاف بين الرجلين عند هذا الحد بل بلغ مداه عند عسقلان، فبعد أن نجح الصليبيون في هزيمة الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه أغسطس 1099م/ رمضان 492هـ وفراره من المعركة تاركاً في ساحتها أعداداً هائلة من جنوده قتلى وأسرى[2]، أراد جودفري أن يستولي على المدينة خاصة أن الحامية الإسلامية الموجودة بها كانت تدرك جيداً عدم قدرتها على الصمود أمام هجمات الصليبيين، كما إن المذبحة التي اقترفها الصليبيون في بيت المقدس لم تذهب سدى، فلا

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث راجع:

Fulcher of Charteres, op. cit.k, p. 124; William of Tyre, op. cit., pp.367 – 68. cf. also, Duggan, The Story of the Crusades, London, 1963, p. 78; Mayer, op. cit., p. 61.

(2) لمزيد من التفاصيل عن معركة عسقلان راجع:

Fulcher of Charteres, op. cit.pp. 125 – 27 ; Albert d'Aix, op. cit., pp.493 – 97; CaffaroCashifelone,De Liberation Civetaum Orientis Liber , ed. R.H.C., H. Occ., T. V,Paris, p. 57.

وعن تنظيم الجيش الصليبي في معركة عسقلان راجع الخريطة في آخر الكتاب.

يزال صداها عالقاً في أذهانهم، ولما كان أهل عسقلان لا يرغبون في أن يلقوا نفس مصير إخوانهم في بيت المقدس، فقد سعوا إلى مراسلة الكونت ريموند للتفاوض معه في شروط تسليم المدينة، حيث إنه الوحيد من بين القادة الصليبيين الذي حافظ على وعده للمسلمين وسمح للأمير افتخار الدولة وحاميتها بالخروج من بيت المقدس آمنين[1]، فأرسلوا إلى المعسكر الصليبي أنهم على استعداد لتسليم المدينة له في مقابل وعد بالأمان، إلا أن جودفري رفض الاعتراف بأية شروط لا تفضي إلى تسليمه المدينة نظراً لارتيابه الشديد في ريموند منذ حادثة برج داوود، فتميز ريموند من الغيظ وذهب مغاضباً وترك حصار عسقلان، وحذا حذوه كل من روبرت النورماندي Robert of Normand و روبرت اوف فلاندرز Robert of Flanders بعد أن أصيبا بخيبة أمل من تفاهة جودفري . وعندما وجد الأخير نفسه وحيداً أمام عسقلان، ولما كانت قواته لا تقوا بمفردها على حصار المدينة، فقد تركها وعاد أدراجه ثانية إلى بيت المقدس[2] .

أضاع الصليبيون — نتيجة خلافاتهم — فرصة ذهبية للاستيلاء على عسقلان التي كانت لقمة سائغة سهلة المنال، ولكنها صارت

---

(1) للمزيد من التفاصيل عن الاتفاق بين الأمير افتخار الدولة الفاطمي وريموند انظر:

Fulcher of Charteres, op. cit., p. 124 ; Albert d'Aix, op. cit.,p.- 483 .

انظر أيضاً : ابن الأثير : الكامل ، جـ 8، ص 189 ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، 2جـ ، نشر ، هنري ماسيه ، القاهرة ، 1919، جـ2، ص 39 ؛ أعمال الفرنجة ، ص 118 – 20.

(1) Fulcher of Charteres, op. cit., p.126.

انظر أيضاً : ابن القلانسي : الذيل ، ص 137 ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ8، ص 190.

شوكة في حلقهم قرابة نصف قرن من الزمان، فقد أدى التشكك وارتياب جودفري في نوايا ريموند وخوفه من إقامة إمارة له في عسقلان على ساحل البحر قبالة مدينة بيت المقدس – الأمر الذي يحرم المملكة من منفذ بحري – إلى أن يقف حجر عثر أمام ريموند وطموحاته، خاصة وقد رأى ميل أهلها له، وبذا غلب أهواءه الشخصية على الصالح الصليبي العام . ولم يكن ريموند أحسن حالاً منه، إذ إنه لم يكتف بالانسحاب بقواته من أمام عسقلان، بل راح يحرض أهل المدينة المسلمين على ضرورة الصمود والتصدي لقوات جودفري، وبذلك فوت على الصليبيين الفرصة للاستيلاء على عسقلان، خاصة إن أهل المدينة، عندما رأوا ما عليه الصليبيون من فرقة استبسلوا في الدفاع عن مدينتهم والتصدي للصليبيين، وهكذا ضاعت مدينة عسقلان من بين أيديهم بعد أن كانت قاب قوسين أو أدنى من السقوط. وبذا ارتكب الصليبيون خطأً كبيراً في تفريطهم في المدينة، إذ أصبحت القاعدة الرئيسية للقوات الفاطمية البرية والبحرية التي تخرج منها الحملات لحرب الصليبيين، كما كانت القاعدة الأمامية التي تمد الموانئ الفاطمية الشامية بما تحتاج إليه من مؤن وإمدادات عسكرية عند تعرضها للحصار الصليبي، هذا فضلاً عن أهمية موقعها بالنسبة لبيت المقدس .

وقد تجدد الخلاف بين الرجلين مرة أخرى عند أرسوف التي عرج عليها ريموند بعد انصرافه من عسقلان، وقد عرضت المدينة عليه التسليم في مقابل وعد بالأمان، ولكن سرعان ما لحق به جودفري ورفض للمرة الثانية أن تستسلم المدينة لريموند على اعتبار أن أرسوف تعتبر تابعة لمملكة بيت المقدس، لذلك غضب ريموند من مسلك جودفري

وترك حصار المدينة بعد أن أوعد إلى أهلها بعدم الاستسلام والتصدي لقوات جودفري الضعيفة[1] .

وهكذا ضاعت أرسوف كما ضاعت عسقلان من قبل نتيجة الخلاف بين الصليبيين . وبدلاً من أن يستغل الصليبيون نتيجة انتصارهم الكبير على الفاطميين عند عسقلان، ويعملوا جاهدين على توسيع رقعة مملكتهم الوليدة مستغلين حالة الرعب والهلع التي إرتابت المسلمين، نجدهم يتركون كل ذلك ويعملون على تحقيق أهدافهم الشخصية دون النظر إلى الصالح العام، فتفجرت الخلافات فيما بينهم وانعكست آثارها لوخيمة على وجودهم في الشرق . ومن مظاهرها رحيل أعداد كبيرة من الصليبيين من القادة والجنود إلى الغرب تاركين المملكة الناشئة عرضة لخطر المسلمين المتربصين بها[2] .

لعبت المطامع الشخصية دوراً كبيراً في تفجر الخلافات بين الصليبيين، فعندما أسر بوهيموند أمير أنطاكية على أيدي الأتراك

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن حصار الصليبيين لأرسوف والخلاف بين جودفري وريموند انظر :

Fulcher of Charteres, op. cit.,p152; Albert d'Aix, op. cit., pp. 497 – 98; Caffaro , op. cit., p. 57.

(2) لعل من أبرز القادة الصليبيين الذين رحلوا عن الشرق ريموند كونت تولوز وروبرت كونت الفلاندرز . ولمزيد من التفاصيل عن رحيل الصليبيين عن الشرق راجع :

Fulcher of Charteres, op. cit.,p128; Albert d'Aix, op. cit.,pp494 - 99; Caffaro , op. cit., p.57.

الدانشمند بالقرب من ملطية اغسطس 1100م / شوال 493هـ [1] أرسل إلى بلدوين أمير الرها رسالة يتوسل إليه فيها بالإسراع إلى تخليصه من الأسر قبل أن ينقله أعداؤه إلى أعماق الأناضول، ولكي يدلل على شدة ما يعانيه أرسل إلى بلدوين خصلة من شعره الأصفر ليكون مدعاة لخروجه ونجدته، إلا إن بلدوين تثاقل عن الخروج بحجة تأمين حدود إمارته ضد غارات المسلمين المجاورين له . وعندما استعد للخروج لإنقاذ بوهيموند اصطحب معه فرقة عسكرية صغيرة العدد قوامها 140 فارس فقط .

ومهما يكن من أمر، فإن بلدوين لم يكن جاداً في نجدة بوهيموند وتخليصه من الأسر – وإن تظاهر بعكس ذلك – وآية ذلك تثاقله عن الخروج على الفور هذا من جهة، كما أن العدد القليل الذي أخذه معه من الفرسان لتلك المهمة كان من القلة بحيث لا يمكنه من مواجهة الدانشمند أو مطاردتهم عبر منطقة جبلية وعرة من جهة ثانية، وربما وجد بلدوين في أسر بوهيموند فرصة سانحة للتخلص من غريم له تقع حدود إمارته ملاصقة لحدوده من جهة ثالثة، كما إنه عمل على فرض نفوذه على تلك المنطقة التي يحكمها الأرمن، فقد أعلنت مدينة ملطية بالفعل ولاءها له ودخلت في طاعته بعد أن كانت من قبل موالية لبوهيموند النورماندي[2] .

---

(1) والجدير بالذكر إن الأمير غازي بن كمشتكين تمكن من نصب كمين لبوهيموند بالقرب من ملطية ونجح في الإيقاع به وأسره مع عدد من فرسانه ثم زج به في غياهب سجن قلعة نكسار بإقليم بنطس . وللمزيد راجع :

Fulcher of Charteres, op. cit., p135; Albert d'Aix, op. cit.,pp.524-26; Raoul de Caen, op. cit., pp. 704 – 05.

(2) William of Tyre, op. cit., p. 421; Fulcher of Charteres, op. cit., p135.

هذا فيما يختص بأمير الرها، أما فيما يتعلق بالملك بلدوين الأول 1100– 1118م / 493 – 512هـ والأمير تنكريد فلم يأسفا كثيراً على أسر بوهيموند بل كانا حريصين على بقائه أطول مدة في الأسر [1]. وذلك حتى ينعم تنكريد بأنطاكية التي تولى حكمها بعد انتقاله إليها من الجليل، في حين تخلص الملك بلدوين من مجاورة تنكريد الذي كان يسبب له إزعاجاً كبيراً، وبذلك التقت مصالح الصليبيين الشخصية لتكون حجر عثر أمام محاولة إطلاق سراح الأمير بوهيموند النورماندي

ومرة تلو الأخرى تلعب المصالح الشخصية دوراً كبيراً في تفجر الخلافات بين الصليبيين، فعندما التقت وجهة نظر صليبيي الرها وأنطاكية على ضرورة فصل المدن الإسلامية في الشام عن بقية المدن الإسلامية في العراق والأناضول، اتفقوا على مهاجمة مدينة حران ذات الموقع الاستراتيجي والاستيلاء عليها لتحقيق هدفهم المنشود من جهة، وتأمين حدود إمارتي الرها وأنطاكية ضد هجمات مسلمي العراق والموصل من جهة أخرى، لذلك توجهت قوات بلدوين اوف بورج Baldwin of Bourg أمير الرها مع قوات بوهيموند أمير أنطاكية وسارت سوياً صوب حران [2] يدفعها في ذلك ما أصبح عليه المسلمون في

---

(1) والجدير بالذكر أن بوهيموند ظل في الأسر حتى عام 1103م حيث أطلق سراحه في مقابل ألف بيزنط . وللمزيد راجع :

Albert d'Aix, op. cit., pp. 610 – 12; Raoul de Caen, op. cit., p710.

(2) تشكلت القوات الصليبية من بلدوين اوف بورج أمير الرها وجوسلين اوف كورتناي أمير معاقل الفرات وبوهيموند أمير أنطاكية وابن أخته تنكريد هذا فضلاً عن أعداد كبيرة من الأرمن بالإضافة إلى ثلاثة من كبار رجال الدين هم : بندكت رئيس أساقفة الرها اللاتيني ودايمبرت رئيس أساقفة بيت المقدس السابق=

العراق بصفة عامة وحران بصفة خاصة من تدهور وتشرزم [1]، وما أن ضرب الصليبيون الحصار على المدينة حتى سقط في أيدي أهلها ورأوا أن لا طاقة لهم بدفع القوات الصليبية والتصدي لها، لذلك أرسلوا وفداً إلى الصليبيين يقدم لهم مفاتيح المدينة ويتفاوض معهم في شروط الصلح التي تضمن لهم تأمين حياتهم وأموالهم مقابل تسليم المدينة [2]. ولكن سرعان ما نشب الخلاف بين بلدوين أوف بورج وبوهيموند النورماندي حول أيهما يرفع رايته أولاً على المدينة، وبينما هما مستغرقان في خلافهما إذا بقوات سقمان بن أرتق وجكرمش التي توحدت معاً

=الذي كان مقيماً بأنطاكية وبرنارد أوف فالانس بطريرك أنطاكية اللاتيني . عن ذلك راجع :

William of Tyre, op. cit., p456; Albert d'Aix, op. cit.,p. 614.cf. also, Stevenson, The Crusaders in the East, Cambridge, 1907, p.77.

وعن موقع حران راجع للخريطة رقم (1).

(1) والجدير بالذكر أن رحى الحرب الأهلية دارت بين السلطان محمد وأخيه السلطان السلجوقي بركيارق التي امتدت منذ 1098 – 1104م / 492 – 497هـ ولمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث راجع :

ابن الأثير : الكامل ، جـ8، ص 193 . في حين غرقت حران في حرب أهلية إذ كانت المدينة لأحد مماليك السلطان ملك شاه ويدعى قراجا الذي أناب عنه بها محمد الأصفهاني الذي قام بمساندة الأهالي بالتخلص من قراجا الذي أساء السيرة مع أهالي المدينة . وبعد أن تخلص منه انقلب على أتباعه في حران فتخلص منهم جميعاً باستثناء غلام له يدعى جاولي الذي تآمر عليه وقتله وهو سكران . والمزيد من التفاصيل انظر : ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ8، ص 221 .

(2) William of Tyre, op. cit., P. 457; Michael le Syrien, la Chronique de Michael le Syrien, 3 vols, tr. Ed., J.B.Chabot, Paris, 1905, p. 195, 457.

فباغتهما عند حران وتقطع عليهما آمالهما في الاستيلاء على المدينة[1]، وتدور بين الفريقين رحى حرب ضارية، دارت دائرتها على قوات الرها الصليبية، بينما ولت القوات الأنطاكية الأدبار متهزمة صوب الرها لتحتمي بها من جهة، ولتنظم شئون الدفاع عنها ضد الهجوم الإسلامي المرتقب من جهة أخرى[2].

وكان من نتيجة تلك المعركة أن سقط عدد كبير من الصليبيين بين قتيل وأسير[3] وكان على رأس الأسرى الكونت بلدوين اوف بورج أمير الرها وتابعه جوسلين اوف كورتناي اللذين احتفظ بهما الأمير جكرمش[4] والذي قام بالتوجه صوب الرها في محاولة منه لاستعادتها من أيدي الصليبيين، منتهزاً تلك النكبة التي ألمت بهم والتي

(1) William of Tyre, op. cit., P458.

(2) William of Tyre, op. cit., p458; Albert d'Aix, op. cit.,p612.
انظر أيضا: سبط بن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، 8جـ ، حيدر آباد، الدكن، 1951 – 1952 ، جـ8، ق1، ص 9؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، 9جـ ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، 1929 – 1942، جـ 5، ص 188.

(3) William of Tyre, op. cit., p459; Albert d'Aix, op. cit., p615; Matthieu d'Edesse, op. cit., p. 72.
انظر أيضاً : ابن القلانسي : الذيل ، ص 143 ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ8، ص 221؛ ابن العديم : المصدر السابق ، جـ2، ص 148.

(4) الثابت ان قوات سقمان بن أرتق هي التي أسرت الرجلين إلا أن أتباع جكرمش هجموا على خيمة سقمان وأخذوا الأسيرين وكادت الحرب بين الأميرين المسلمين، إلا أن سقمان تحلى بقسط وافر من ضبط النفس وأمر قواته بعدم مهاجمة قوات جكرمش . وللمزيد من التفاصيل راجع : ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ8، ص 222 .

راح ضحيتها خيرة قوات الإمارة . وقد ألقت القوات الإسلامية الحصار على المدينة وشددت من هجماتها لتجبر أهلها على الاستسلام[1] .

وأثناء فترة حصار المدينة التي استغرقت قرابة أسبوعين، أرسل الأمير تنكريد– الذي تولى مسؤولية الدفاع عن الرها – إلى خاله بوهيموند في أنطاكية يطلب منه العون والنجدة ضد القوات الإسلامية المحاصرة[2]، ولما أبطأت عليه النجدة ولم يكن بوسعه دفع القوات الإسلامية عن الرها، لم يجد أمامه سوى القيام بهجوم يائس ضد القوات الإسلامية، وقبل انبلاج الفجر، وفي ظلمة الليل خرجت القوات الصليبية من الرها لتباغت القوات الإسلامية التي لم تتوقع مثل هذا الهجوم، فنشرت فيها الرعب والفزع وأجبرتها على الفرار دون نظام . وتصادف وصول النجدة الأنطاكية فاشتركت مع صليبيي الرها في الهجوم ونجحوا في قتل عدد كبير من المسلمين وأسر عدد آخر[3] . وكان من بين الأسرى أميرة رفيعة القدر كانت في معية الأمير جكرمش، وقد عرض الأخير على الصليبيين افتداءها بخمسة عشر ألف بيزنط أو مبادلتها بالكونت بلدوين نفسه . وقد حث ملك بيت المقدس الأميرين بوهيموند وتنكريد – عندما وصلته تلك الأنباء – على ضرورة اغتنام تلك الفرصة والعمل على إطلاق سراح الكونت بلدوين، إلا أنهما أجابا بأن التلهف على قبول العرض يخلو من الدبلوماسية،

---

(1) Albert d'Aix, op. cit.,p616

(2) اختار أهل الرها تنكريد حاكماً عليهم شريطة أن يتخلى عن الإمارة بمجرد إطلاق سراح الكونت بلدوين، في حين عاد بوهيموند إلى إمارته . ولمزيد من التفاصيل انظر : William of Tyre, op. cit., p459.

(3) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ8، ص222

وربما يؤدي التريث إلى أن يرفع جكرمش من قيمة الفدية، وفي الوقت ذاته كان يعدان الترتيبات لاستلام الفدية، وبقي بلدوين أسيراً[1].

ومهما يكن من أمر، وعلى الرغم من أن الصليبيين قد ثأروا من هزيمتهم عند حران، إلا أن خلافهم كان أعمق أثراً من مجرد انتصارهم عند الرها، إذ ضاعت مدينة حران التي كانت لقمة سائغة بين أيديهم، لا لقوة المدينة وبسالة أهلها، ولا لضعف الصليبيين وقلة أعدادهم، بل لخلافاتهم وأنانيتهم. وإن كان بلدوين أوف بورج وبوهيموند قد إلتقيا على وحدة الهدف، إلا أن ما انطوى عليه صدريهما كان أكبر من مجرد وحدة ظاهرية. وهكذا ضاعت حران من بين أيديهم بما تمثله من أهمية استراتيجية لهم، وبقيت شوكة في حلقهم، وقاعدة أمامية للمسلمين ينطلقون منها لشن هجماتهم على الإمارات الصليبية الشمالية. ولما كان بوهيموند قد اختلف مع بلدوين اوف بورج عند حران حول أيهما يرفع رايته أولاً على المدينة، فإنه من الطبيعي ألا يسعى الأول إلى إطلاق سراح الأخير بعد أسره وإن حثه ملك بيت المقدس على القيام بذلك، إذ كان من مصلحة الأمير بوهيموند أن يبقى الكونت بلدوين أسيراً وأن يحصل هو على الفدية القيمة لسد حاجته المالية، هذا من جهة، كما كان بقاء الكونت بلدوين أسيراً يضمن بقاء تنكريد بعيداً عنه حاكماً للرها من جهة ثانية، ومجاورة تنكريد لإمارة أنطاكية أحب إليه من مجاورة الكونت بلدوين له من جهة ثالثة. وبذا يكون بوهيموند قد أذاق بلدوين من نفس الكأس الذي شرب منه من قبل. كما كان من مصلحة تنكريد أيضاً أن يظل الكونت بلدوين في الأسر ليحتفظ بحكم الرها من جهة وحتى لا يعود إلى أنطاكية

---

(1) Albert d'Aix., op. cit.,p618

ليصبح مرة ثانية بين يدي خله من جهة أخرى، وخير دليل يثبت صدق ما ذهبنا إليه، ما أشارت إليه المصادر العربية من أن القوات الأنطاكية لم تشترك بدور فعال في الحرب عند حران، وكأنها تعمدت التغرير بقوات الرها وقائدها[1] .

هذا ولم تتوقف النتائج المترتبة على اختلاف الصليبيين وهزيمتهم عند حران على ما سبقت الإشارة إليه فحسب، بل نجد المسلمين يتشجعون بما أحرزوه من نصر على مهاجمة الممتلكات الصليبية في أنطاكية، فقام رضوان أمير حلب بمهاجمة حدود الإمارة واستعادة عدد من الحصون التابعة لها، وانتهز الأرمن المقيمين شمال الإمارة الفرصة كذلك للتآمر ضد الصليبيين، والعمل على الإطاحة بحكمهم[2] . كما لم يدع الإمبراطور البيزنطي الكسيوس الأول كومنين 1081 – 1118م / 474 – 512هـ Alexiux I Comnenus تلك الفرصة تفلت من بين يديه دون أن يستفيد منها، فنجده ينجح في استعادة مدن قليقية : أذنة وطرسوس والمصيصة، كما استطاع الأسطول البيزنطي الاستيلاء على مرفأ اللاذقية وأجزاء من المدينة، وإزاء تلك الخطوب التي كانت تحدق بالإمارة من كل مكان قرر

---

(1) ابن الأثير : المصدر السابق، جـ8، ص221 – 22 .

(2) تمكن المسلمون من استعادة عدد من الحصون منها : ارتاح ومعرة مصرين ومعرة سرمين مما عزل الحاميات الفرنجية الصغيرة الموجودة في معرة النعمان والبارة وكفر تطاب وانسحبت إلى أنطاكية، كما حاول الأرمن في شمال أنطاكية التمرد على الحكم الفرنجي والتحالف مع المسلمين، إلا أن بوهيموند نجح في القضاء على هذا التمرد في مهده، وذلك بإلقاء القبض على زعماء الأرمن وسجنهم . ولمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث راجع :
Ráoul de Caen, op. cit., p721.

بوهيموند الرحيل إلى الغرب وطلب العون والمساعدة . وتولى تنكريد الوصاية على الإمارة من 1104 – 1112م/ 498 – 505هـ لحين عودته بعد أن أناب عنه في الرها ابن عمه وصهره ريتشارد كونت ساليرنو. Richard of Salerno[1]

ولعله لا يجانبنا الصواب إذا قلنا أنه لو لم يكن ذلك الخلاف الذي دب بين بلدوين اوف بورج أمير الرها وبوهيموند أمير انطاكية عند حران ما وقعت معركة حران من الأصل، أو إن قدر لها أن تقع لكانت نتائجها بالتأكيد غير تلك النتائج السابقة ، إذ كان بوسع الصليبيين أن يتحصنوا بحران بعد دخولها ولكان لديهم الوقت الكافي لترتيب صفوفهم استعداداً للقاء المرتقب بدلاً من أن يفاجئهم المسلمون ويجبرونهم على خوض معركة قد أعدوا لها سلفاً ، وما تعرضت إمارتا الرها وانطاكية لتلك المخاطر التي واجهتهما وعرضتهما لخطوب جسيمة ، وما سقط ذلك العدد الكبير من القتلى والأسرى في صفوف الصليبيين ، الأمر الذي جعل المؤرخ متى الرهاوي يذكر أن جثث الأرمن ودماءهم غطت سطح الأرض ، في حين امتلأت أيدي التركمان بالغنائم[2] . أما المؤرخ اللاتيني وليم الصوري فذكر " لم نقرأ خلال حكم اللاتين في المشرق قبل أو بعد ذلك عن معركة فادحة الخسارة كهذه التي ترتب عليها مذبحة مروعة للشجعان وهروب مشين لأبناء جنسنا "[3] .

ولا شك في إن اتحاد سقمان بن أرتق وجكرمش وما أحرزاه من نصر على الفرنج لم يقض على أسطورة الجيش الصليبي الذي لا يقهر

---

(1) William of Tyre, op. cit., p460; Albert d'Aix, op. cit., p616; Mattheu d'Edesse, op. cit., p. 73.

(2) Mattheu d'Edesse, op. cit., p72.

(3) William of Tyre, op. cit., p459

والتي استحوذت على قلوب المسلمين منذ مجيء الصليبيين إلى الشرق فحسب، بل كان باكورة للوحدة الإسلامية في المشرق ضد الخطر الصليبي .

ومهما يكن من أمر، فقد ظل بلدوين قرابة أربع سنوات في غياهب السجن إلى أن أطلق الأمير جاولي سراحه عام 1108 م / 502هـ مقابل مبلغ كبير من المال[1] وعلى الفور توجه بلدوين صوب أنطاكية حيث يقيم تنكريد – الوصي الرسمي على إمارة الرها – وطلب منه سداد قيمة الفدية واستعادة إمارته فوافق تنكريد وقدم له مبلغ 30 ألف قطعة ذهبية وبعض الهدايا الأخرى، ولكنه رفض إعادة الرها إليه . فذهب بلدوين مغاضباً إلى تل باشر حيث يقيم تابعه جوسلين اوف كورتناي، وبدأ الاثنان يعدان العدة لحرب تنكريد، وأرسل بلدوين يستنجد بجاولي والأتراك من ناحية وكوغ باسيل والأرمن من ناحية أخرى[2]، وقد استجاب كوغ باسيل لبلدوين على الفور حيث أرسل إليه ألفين من المشاة وألفاً من الخيالة رداً على طلبه، أما تنكريد فقد

---

(1) من الثابت أن الأمير جوسلين اوف كورتناي أطلق سراحه أولاً في مقابل مبلغ 20 ألف دينار ، في حين أطلق سراح بلدوين اوف بورج بعد ذلك في مقابل مبلغ كبير من المال ، اختلفت المصادر في تحديده . ولمزيد من التفاصيل عن كيفية إطلاق سراحهما ومقدار الفدية انظر :

Albert d'Aix, op. cit.,p648; Mattheu d'Edesse, op. cit., p. 85; A.S.C., The First and the Second Crusades ; ed. And tr. E. S. Tritton,) the Journal of the Royal Asiatic Society (London, 1933, prt I, pp. 69 – 101, p. 81.

(1) A.S.C., P. 82.

وكوغ باسيل هو أمير مدينة كيسوم وشقيق الأمير بكراد ، وفي 1117 قام بلدوين الثاني بتجريده وأخيه من ممتلكاتهما بكيسوم ورعبان . انظر :

William of Tyre, op. cit., p188.

استدعى لمؤازرته رضوان ملك حلب، وزحف معه إلى تل باشر حيث دارت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة تنكريد وسقوط عدد من قواته صرعى وعاد أدراجه إلى أنطاكية بينما عاد رضوان إلى حلب(1).

وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد من العداء، وحرصاً على الكيان الصليبي في الشرق تدخل النبلاء وكبار قادة الصليبيين وأخذوا على عاتقهم مهمة التوفيق بين الطرفين ونجحوا في عقد صلح بينهم بواسطة بطريق أنطاكية، فتخلى تنكريد عن الرها لبلدوين الذي عاد لإمارته مرة ثانية في 18 سبتمبر 1108م / 9 صفر 502هـ (2).

كان هذا الصلح الذي تم بين تنكريد وبلدوين صلحاً ظاهرياً بينما ما انطوى عليه صدريهما كان أكبر، إذ أضمر كل واحد منهما البغض للآخر وإن تظاهرا بعكس ذلك، ولم يمض وقت طويل حتى بدا ما كانا يخفيان من قبل ؛ إذ سارع بلدوين وجوسلين لنجدة الأمير جاولي ضد رضوان أمير حلب الذي سارع تنكريد لمساعدته (3). ودارت بين

---

(1) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ8، ص 254 ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، جـ2، ص 153

(2) A.S.C., P. 82; William of Tyre, op. cit., p474.

(3) ترجع أسباب الخلاف بين جاولي ورضوان إلى قيام رجال الأخير باعتراض قافلة كانت مرسلة من قبل بلدوين أوف بورج إلى جاولي ومعها الأموال التي كانت تتضمن جزء من فدية بلدوين ، كان قد أرسلها من تل باشر ، كما أن رضوان فرض الضرائب على الرقة التي كان جاولي يعتبرها ضمن ممتلكاته ، فاستشاط جاولي غيظاً لما حدث وقام بالزحف على بالس وأخذها من رضوان في سبتمبر 1108م / صفر 502هـ ، ولمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث راجع: ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ8، ص 255انظر أيضاً رانسيمان : تاريخ الحملات الصليبية ، ترجمة ، نور الدين خليل ، جـ2، مكتبة الشروق القاهرة ، 1994م ، ص 145 – 46.

الفريقين – الذي ضم كل منهما مزيج من الصليبيين والمسلمين – معركة دامية تمكنت قوات جاولي في بادئ الأمر من التصدي لتنكريد أنطاكية وكبدتهم خسائر فادحة. وعندما لاحظ البدو في جيش جاولي ما أعده فرسان بلدوين من الخيل على سبيل الاحتياط تناسوا – أمام هذا الإغراء – ما أتوا من أجله، وقاموا بأخذ الجياد وفروا بها. وعندما شاهدهم الترك ولوا أيضاً مدبرين وتركوا مواقعهم، ولم يبق في ساحة القتال سوى بلدوين وتابعه جوسلين الذين اضطرا أيضاً إلى الهرب بمن تبقى معهما من الجنود، وكاد أن يقعا في الأسر ولكنهما استطاعا الهرب بشق الأنفس. وانجلت المعركة عن هزيمة منكرة لجولي وحلفائه وقتل 2000 رجل من الجانبين[1].

ولنا أن نتساءل لصالح من مني الصليبيون بهذه الخسائر البشرية والمادية؟ هل لصالح القضية التي زعموا أنهم جاءوا من أجلها؟ أم بسبب خلافاتهم نتيجة لأطماعهم الشخصية؟ وإذا غضضنا الطرف عن قتال الصليبيين بعضهم لبعض رغم بشاعته، فهل نصرة المسلمين – أعدائهم في الدين – تخدم قضيتهم وتستحق منهم أن تزهق من أجلها الآف الأرواح من الصليبيين؟

مما لا شك فيه أن الخلافات بين الصليبيين لم تكن تخفى على المسلمين الذين استغلوها لصالحهم بل إن انعدام الثقة بين الصليبيين نتيجة خلافاتهم أدت إلى أن يرتابوا في بعضهم البعض، إذ اتهم بلدوين

---

(1) ابن الأثير، نفس المصدر والصفحة.

الأمير تانكريد بأنه هو الذي أوعز إلى الأمير مودود [1] – أمير الموصل- بمهاجمة إمارة الرها عام 1110م/503هـ ، ولما اشتد حصار المسلمين للرها أرسل أميرها تابعه جوسلين اوف كورتناي إلى ملك بيت المقدس – الذي كان يحاصر بيروت وقتئذ – يطلب منه العون والمساعدة وقد سارع الملك بعد استيلائه على بيروت – بالتوجه شمالاً لنجدة الرها متجنباً المرور بأنطاكية لعدم ثقته في أميرها تنكريد [2].

وعندما وصل الملك بلدوين إلى الرها اضطر مودود إلى رفع الحصار عن المدينة والعودة من حيث أتى [3]، وعليه فقد أرسل الملك بلدوين يستدعي تانكريد لكي يرد على الاتهامات التي وجهها إليه بلدوين اوف بورج، وبعد تردد أذعن تانكريد إلى طلب الملك وفور

---

(1) قام الأمير شرف الدين مودود بثلاث حملات عسكرية كانت الأولى في ضد الرها في مايو 1110/ذي القعدة 503هـ ، ولم يسارع تانكريد بمد يد العون في تلك المحنة . ولمزيد من التفاصيل راجع :

William of Tyer, op.cit., V.1, p 463; Albert d' Aix, op.cit., p.670; Mattieu d' Edesse, op. cit., pp.91-3.

انظر أيضاً : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص 167-68؛ سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، جـ10 ، ص290.

(2) Mattieu d' Edesse, op. cit., pp.91; Albert d' Aix, op.cit., Loc.cit.

(3) والجدير بالذكر ان الامير مودود عندما رأى النجدات الصليبية تتوالى على الرها انسحب الى حران لاستدراج الصليبيين ومنازلتهم في ارض مكشوفة الا ان الصليبيين احجموا عن تتبع المسلمين فاضطر مودود الى العودة الى بلاده . ولمزيد من التفاصيل راجع : Mattieu d' Edesse, op. cit., pp.91.

انظر أيضاً : محمد محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ، دار الثغر ، 1972، ص223.

حضوره وجه اتهامات مضادة[1] إلى أمير الرها، وقد طلب الملك منه التصالح ، وفي حالة رفضه ذلك واستمراره في كيد المكائد مع الأتراك فسوف يلقى حرباً لا هوادة فيها باعتباره عدواً للصليبيين ، وأيد الفرسان المجتمعون ما قاله الملك ، فاضطر تانكريد إلى التصالح[2].

وما كاد ينتهي الخلاف بين بلدوين اوف بورج وتنكريد حتى تفجر خلاف آخر بين بلدوين اوف بورج وتابعه جوسلين اوف كورتناي أمير المعاقل الفراتية ، إذ اتهم الأول تابعه بالتقاعس عن مد يد العون لإمارته على إثر ما لحق بها من تخريب ودمار على أيدي قوات الأمير مودود الذي تعمد إحراق وتدمير الأراضي الزراعية والحدائق المحيطة بالرها مما أدى إلى خلق وضع اقتصادي حرج للإمارة[3].

حقيقة أن تعرض إمارة الرها للتدمير والتخريب وإتلاف محاصيلها أمر لا شك فيه ولكن اتهام جوسلين اوف كورتناي بالتقاعس عن مساعدة إمارة الرها وسيدها أمر مشكوك فيه وآية ذلك أن جوسلين بذل قصارى جهده من أجل مساعدة سيده ؛ فقد ذهب بنفسه مبعوثاً إلى الملك بلدوين طالباً لمساعدته ضد هجوم الأمير مودود عام 1110م/ 503هـ ، كما إنه شارك القوات الصليبية المتحدة في تصديها لقوات مودود ، هذا فضلا عن أنه نجح في إحباط مؤامرة دبرها الأمير

---

(1) ذكر متى الرهاوي أن كونت الرها هو الذي قام باستدعاء أمير الموصل لمعاضدته ضد تانكريد .

C.F.Mattieu d' Edesse, op.cit., Loc. Cit.

(2) William of Tyer, op.cit.,V.1, p 463; Albert d' Aix, op.cit., p.672; Mattieu d'Edesse, op. cit., Loc.cit.

(3) William of Tyer, op.cit.,v.1, pp. 498-99; Mattieu d' Edesse, op. cit., pp.93-4; A.S.C.,p.83.

انظر أيضاً : سبط بن الجوزي : المصدر السابق، ص 291.

مودود مع بعض أرمن الرها الذين كانوا يتولون حراسة بعض أبراج المدينة ونجح في إجهاضها في الوقت المناسب، ولولا ذلك لتمكنت القوات الإسلامية من دخول المدينة عام 1112م / 505هـ [1].

ولعل السبب الحقيقي وراء الخلاف بين الرجلين يرجع إلى عامل الحقد والحسد والكراهية الذي يكنه بلدوين لتابعه جوسلين ، ففي الوقت الذي أصبحت فيه إمارة الرها تعاني من آثار التخريب والتدمير، لم تتعرض ممتلكات جوسلين اوف كورتناي لأي أذى، بل حاز سيدها من الشهرة والثروة ما لم يتمتع به سيده ، لذا فقد أسر بلدوين هذا الأمر في نفسه ولم يبده لأحد انتظاراً لفرصة مواتية ، والتي سرعان ما واتته . فعندما أرسل سفارة من قبله إلى أنطاكية مرت تلك السفارة بتل باشر حيث يقيم جوسلين الذي أحسن وفادتهم ونزلهم ، إلا أن بعض أتباعه عندما انفردوا بالمبعوثين أهانوهم ووجهوا نقداً لاذعاً إلى سيدهم بلدوين الذي غدا في رأيهم غير صالح لحكم البلاد ، وإن الحكمة تقتضي أن يبيع إمارته للأمير جوسلين ويحصل على مبلغ كبير من المال يعود به إلى فرنسا [2]. وعندما علم بلدوين بذلك الأمر تميز من الغيظ واستدعى على الفور تابعه بحجة التشاور فيما يخص شئون الإمارة وعندما مثل بين يديه قام بالقبض عليه وزج به في غياهب السجن وأذاقه صنوفاً شتى من العذاب . وتحت وطأة التعذيب اضطر جوسلين اوف كورتناي إلى التنازل عن إقطاعه والتجرد من ممتلكاته في مقابل إطلاق سراحه ثم يمم وجهه شطر بيت المقدس حيث الملك بلدوين الأول الذي رفق به ومنحه حكم

---

(1) Albert d' Aix, op.cit., p.670 ; Mattieu d' Edesse, op. cit., pp.101-2 ; A.S.C., p.83.

انظر أيضاً : ابن القلانسي المصدر السابق ، ص 167-68

(2) William of Tyer, op.cit., Loc. Cit.

إقليم الجليل تعويضاً عما فقده وذلك في 1113م/ 507هـ [1]. ومما يدعو للسخرية أن نرى الأمير بلدوين نفسه يستدعي جوسلين مرة أخرى لا ليعيد إليه ما سلبه منه فحسب، بل ليسند إليه حكم إمارة الرها، وذلك عندما استدعي ليكون ملكاً على بيت المقدس في عام 1118م / 512هـ [2] أي أن المصلحة الشخصية هي التي دفعته في المرة الأولى لتجريد تابعه من إقطاعه وهي التي دفعته في المرة الثانية لإعادته لحكم الإمارة بأسرها.

ومما يلفت الإنتباه إن خلافات الصليبيين قد قلت كثيراً خلال الفترة الممتدة من 1113- 1127م/ 507- 521هـ. ولم يكن معنى ذلك أن الصليبيين قد ترفعوا عن مطامعهم الشخصية ونبذوا ما بينهم من أحقاد جانباً، ولكن كانت هناك عوامل أجبرتهم على ذلك، منها على سبيل المثال شعورهم جميعاً بالخطر المحدق بهم والذي بات يهدد بقاءهم في الشرق وأعني به ظهور حركة الجهاد المقدس التي حمل لواءها الأمير شرف الدين مودود [3] والبرسقي وبرسق بن برسق وإيلغازي وبلك بن

---

(1) Matticu d' Edesse, op. cit., p.126 ; William of Tyer, op.cit., Loc. Cit.

(2) William of Tyer, op.cit.,p.520 ; Michel Le Syrien, op.cit., p.196.

(3) قام السلطان محمد بن ملكشاه 1105- 1108م / 499-512هـ بإنفاذ قائده شرف الدين مودود للشام على إثر استغاثة فخر الملك بن عمار أمير طرابلس به وكان الفرنج حاصروا امارته . اقام مودود في سبتمبر 1105- 1108م / 499-512هـ بأخذ الموصل من يد جاولي وشرع في الجهاد الديني ضد الصليبيين بالشام . وقام بثلاث حملات عسكرية في الفترة ما بين عامي 1110-1113م حتى قتل على أيدي الباطنية في جامع دمشق ولمزيد من التفاصيل انظر : =

بهرام، الأمر الذي جعل الأمراء الصليبيين ينبذون خلافاتهم للتصدي لهذا الخطر، وفضلاً عما سبق كان هناك عامل آخر ألف بينهم وزاد من ارتباطهم الا وهو رابطة المصاهرة؛ فقد تزوج روجر – Roger الذي خلف تانكريد في حكم أنطاكية (1112- 1137م / 507-532هـ) – من أخت بلدوين أوف بورج أمير الرها، وتزوج بونز Pons أمير طرابلس من أرملة تانكريد وأصبح صديقاً حميماً لروجر[1]، كما تزوج جوسلين اوف كورتناي من ماريا Marie أخت الأمير روجر، ووحد بين هؤلاء الأمراء اتفاقهم على اعتبار الملك بلدوين سيدهم الأعلى وكان ذلك تضامناً نادر الحدوث ،وهناك عوامل أخرى منها موت بعض الأمراء، ووقوع البعض الآخر في الأسر، ووضع الإمارات الصليبية تحت الوصاية لفترات متفاوتة، مما أدى إلى الحد من خلافات الصليبيين.

ومهما يكن من أمر فما أن تولى بوهيموند الثاني Bohemond II حكم أنطاكية عام 1126- 1130م/ 520-524هـ حتى دب الخلاف بينه وبين أمير الرها جوسلين أوف كورتناي إذ كان كل منهما غيوراً من صاحبه، فقد حصل جوسلين بموجب هدنة

=أبو المحاسن : المصدر السابق ، جـ 5 ، ص 199-201؛ سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، ص 291؛ ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص 167-68 ، 174-75 ؛ ابن الأثير : التاريخ الباهر ، 17-8 .

انظر أيضاً

Fulcher of Charters, op. cit., pp. 201-2 ; William of Tyre, op. cit., p.463; Albert d' Aix, op. cit., pp.670,680-81 ; A.S.C., pp.73,82-3; Mattieu d' Edesse, op. cit., T.1 ,p,91-4 .

(1) Fulcher of Charters, op. cit., p. 251 n.8 ; A.S.C., p.90.

مع البرسقي على مقاطعات كانت تابعة لإمارة أنطاكية من قبل [1]، وزاد من شدة الخلاف أن زوجته الأميرة ماريا قد حصلت على وعد بأن يكون مهرها مدينة عزاز، بينما اعتبر بوهيموند أن روجر لم يكن سوى الوصي باسمه ولا حق له في أن يهب أرضاً بأنطاكية ورفض الاتفاق، ونتيجة ذلك وجه جوسلين جنوده بمساعدة المرتزقة الأتراك للإغارة على القرى القريبة من الحدود [2]. ورغم إعلان بطريرق أنطاكية حرمان إمارة الرها بأسرها إلا أن ذلك لم يردع جوسلين . ولولا تدخل الملك بلدوين و إرغامه الأميرين على التصالح عام 1128م/ 522هـ لتدهورت الأمور ولأصبح فرنج الشمال في موقف لا يحسدون عليه [3]، خاصة وقد تولى عماد الدين زنكي حكم الموصل وحلب 1127-1146م/ 521- 541هـ، وأخذ على عاتقه مهمة الجهاد المقدس ضد الصليبيين، وتأجل الخلاف لحين من الوقت بين أنطاكية والرها حتى

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن المعاهدة بين البرسقي وجوسلين الاول ،انظر : ابن العديم: المصدر السابق ، جـ2 ، ص 231-32.

انظر ايضاً : Nicholson, op. cit., p.77

(2) William of Tyre, op. cit., Loc cit; C.F. also, Grousset, op. cit., V.1 ,p.651.

(3) ولعل من الاسباب التي دفعت الملك بلدوين للصلح بين الأميرين هي ان كلا الرجلين كانا يمتان إليه بصلة القرابة فأحدهما ابن عمه والآخر كان صهره الذي زوجه ابنته حديثاً ، ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر :

William of Tyre, op. cit., Loc cit; C.F. also, Stevenson, op. cit., p. 119.

ومن حسن الحظ أن جوسلين الأول لم يلبث أن مرض فجأة وأحس أن مرضه ليس إلا عقاباً الهياً فوافق على أن يعيد إلى بوهيموند ما حازه من الغنائم ، كما تخلى عن دعواه في عزاز وذلك بعد أن تم شفاؤه . ولمزيد من التفاصيل انظر :

Michel le Syrien, op. cit., p.224.

مقتل بوهيموند الثاني على أيدي الأتراك الدانشمند في فبراير 1130م/ ربيع أول 524هـ [1].

ولم تقتصر الخلافات بين الصليبيين على الرجال فقط، بل لعبت النساء دوراً هاماً فيها، فعلى إثر موت بوهيموند الثاني أمير انطاكية سنة 1130 م، أسرع الملك بلدوين من بيت المقدس متوجهاً صوب أنطاكية ليتولى تنظيم شئونها وتعيين الوصي عليها، إلا أن ابنته أليس Alice الطموحة – أرملة بوهيموند – سبقته إلى ذلك وجعلت من نفسها الوصية على ابنتها كونستانس Constance، وعملت على الانفراد بالإمارة لا بوصفها الوصية فقط، بل الحاكمة لها كذلك، ولما علمت أليس بقدوم والدها الملك بلدوين الثاني خشيت أن تفلت الأمور من يدها ؛ فأرسلت على الفور رسولاً إلى عماد الدين زنكي في حلب تعلن له أنها على استعداد للاعتراف بسيادته إذا ضمن لها امتلاك أنطاكية، إلا أن رسولها وقع في أيدي رجال أبيها فانفضح أمرها . ولما أدركت فشل مخططها عمدت إلى غلق أبواب المدينة في وجه أبيها واستمالت إليها قلوب المسيحيين المحليين بصفة خاصة إلا أن أمراء أنطاكية الصليبيين أبدوا امتعاضاً لتصرفها وعصوا أوامرها، وقاموا بفتح أبواب المدينة أمام قوات الملك . وقد احتمت أليس بأحد أبراج المدينة ولم تخرج منه إلا بعد أن ضمن لها وجهاء الإمارة سلامة حياتها، وعندما مثلت بين يدي الملك عفا عنها ولكنه أجبرها على التخلي عن الوصاية وألزمها البقاء في مدينتي اللاذقية وجبلة اللتين منحهما بوهيموند الثاني مهراً لها، كما

---

(1) الجدير بالذكر أن بوهيموند لقي حتفه على أيدي الأتراك الدانشمند وذلك في فبراير 1130م، ولمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث أنظر :

William of Tyre, op. cit., Vol. 2 ,p.43 ; A.S.C., p.99.

انظر أيضاً : ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ 8، ص 332.

قام الملك بإسناد الوصاية إلى جوسلين أوف كورتناي — أمير الرها — [1]
ثم عاد إلى بيت المقدس في صيف 1130م / 524هـ، حيث مات في العام التالي ولحق به جوسلين أوف كورتناي في نفس العام [2].

انتهزت الأميرة أليس فرصة موت أبيها وعملت على إحياء مخططها القديم للانفراد بالوصاية وحكم أنطاكية، وحتى تضمن لخطتها النجاح جذبت إليها عدداً من الأمراء على رأسهم جوسلين الثاني أمير الرها 1131- 1146م/525- 541هـ، وبونز أمير طرابلس وغيرهما من القادة الصليبيين [3]، ولما علم صليبيو أنطاكية بما تخططه أليس أرسلوا على الفور يستدعون الملك فولك Foulque (1131-1143م/ 525- 538هـ) الذي نهض على رأس جيشه متوجهاً صوب الشمال، وعندما وصل إلى طرابلس براً رفض أميرها السماح له بالمرور عبر أراضيه فاضطر الملك أن يستكمل مسيرته بحراً من بيروت إلى السويدية، وما كاد يصل إلى هناك حتى دخل في معركة دامية مع قوات الحزب المؤيد لأليس وعلى رأسهم الأمير بونز وتمكن من هزيمتهم وإن لم يتمادى في إنزال العقاب بهم نظراً لقلة جنوده، وعليه فقد قبل اعتذار بونز وجوسلين الثاني وغيرهما من الأمراء، كما أجبر الأميرة أليس على القنوع بمدينتي جبلة واللاذقية، وأسند الوصاية إلى رينالد

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث، راجع:

William of Tyre, op. cit., Loc cit; Michel le Syrien, op. cit., p.230; A.S.C., p.99.

(2) William of Tyre, op. cit., p.45; A.S.C., pp.99- 100 ; Michel le Syrien, op. cit., p.232.

(3) William of Tyre, op. cit., pp.43-4; Du Cange, Les Familles d' Outer- Mer, publie'es par M.E.G. Rey, Paris, 1869,p.185; C.F. also, Setton , K.M., A History of the Crusades, Vol. I, U.S,A., 1958, p. 433.

عازوار Rainald Masour كونسطبل الإمارة، ثم عاد أدراجه إلى بيت المقدس [1].

وما كاد فولك يعود إلى بيت المقدس حتى نشب خلاف جديد كاد أن يشعل نار حرب أهلية بين أمراء المملكة جميعاً ؛ ذلك أن هيو الثانى Hugh II أمير يافا الذي تزوج من الأميرة إيما Emma أرملة ايوستاس جارنييه Eustace Grenier سيد قيسارية عام 1124م / 518هـ لم يكن على وئام مع ولديها ايوستاس الثانى Eustace II وريث صيدا وجوتييه الأول Gautier I 1123- 1149م/ 517- 544هـ وريث قيسارية لأنه يكبرهما بقليل [2]، ونظراً لصلة القرابة التي كانت تربط بين هيو الثانى والملك بلدوين وابنته الأميرة ميليسند Melisend فقد أصبح من أهم أصدقائها المقربين [3]، ولم تنقطع العلاقة بينهما رغم زواج الأميرة ميليسند من فولك الأنجوي التي لم تحفل به مطلقاً —

---

(1) William of Tyre, op. cit., pp. 54-5; Michel le Syrien, op. cit., p.233.

(2) هيو الثاني هو هيو ابن هيو الأول من زوجته مابيلا وقد مرض هيو الثاني فـي أبوليا أثناء توجه والديه إلى الشرق . فتركاه في بلاط بوهيموند الثاني ابـن عـم مابيلا العبلاش وظل هيو الابن مقيماً في أبوليا حتى مات والديـه فـأبحر إلـى الشرق للمطالبة بميراث أبيه فاحتفى به الملك بلدوين الثاني وسلمه إقطـاع يافـا ميراث أبيه ، ولمزيد من التوفاصيل انظر :

William of Tyre,- op. cit., p. 70; C.F also, Rohiricht, Regesta Hierosolymitani, Innsbruck, 1893, doc. 104; La Monte, The Lords of Sidon in Byzantion, Vol XVII, pp. 188-90; La Monte, Lords of Caesarea, in the Period of the Crusadesin Speculm, Vol. XXII, Cambridge, 1947, p. 147.

(3) تعتبر أليس والدة هيو الأول خالة الملك بلدوين الثانى وبالتالى تصبح ميليسند ابنة عم هيو الثاني .

برغم حبه الكبير لها -- بل ازدادت علاقة هيو بميليسند بعد تربع فولك على عرش المملكة 1131م/ 525هـ حتى كثر حولها القيل والقال وتمكنت الغيرة من الملك فولك واشعل من أوارها التفاف عدد من أعداء هيو حول الملك وعلى رأسهم ايوستاس الثاني ووالتر جارنييه فزادوا من شكوكه ؛ و لم يجد الأمير هيو أمامه سوى ان يجعل لنفسه حزباً معارضاً، وسرعان ما تحزب نبلاء المملكة كلها بين الملك والكونت[1].

وفي أواخر صيف 1132م/ 526هـ وبينما كان القصر الملكي يغص بأعداد كبيرة من الوجهاء والنبلاء اتهم جوتييه سيد قيسارية علناً الأمير هيو الثاني أمير يافا وزوج أمه بالتآمر على حياة الملك فولك، ودعاه متحدياً إلى منازلته كي يبرئ ساحته فأنكر هيو التهمة وقبل التحدي، وحددت المحكمة العليا تاريخاً للنزال، وعاد كل منهما إلى إمارته ليجهز نفسه لذلك اليوم . وفي اليوم المحدد تغيب هيو عن المبارزة فأدانته

---

(1) والمعروف أن الملك بلدوين الثاني أرسل سفارة الى فرنسا لعرض مسألة زواج ابنته الكبرى ميليسند من أحد الأمراء الفرنسيين وقد وقع اختيار ملك فرنسا على فولك الخامس كونت انجو ليكون الزوج المرتقب لميليسند ابنة الملك وقد قبل-فولك هذا العرض إذ وعد باتمام زواجه من ابنة الملك خلال مدة لاتزيد عن خمسين يوماً من تاريخ وصوله الى الشرق وربما بخلافة عرش بيت المقدس بعد موت الملك بلدوين أيضاً . وقد أصبح فولك بالفعل ملكاً على بيت المقدس وتوج هو و زوجته ميليسند فى 14 سبتمبر 1131م وتم ترسيمهما حسب العرف المتبع فى كنيسة القيامة من قبل وليم بطريرك بيت المقدس . ولمزيد من التفاصيل عن شخصية فولك انظر :

William of Tyre, op. cit., pp. 51-2; Roger of Wendover, Flowers of History, Vol I, London, 1848, p. 477; C.F. also, Grousset, op. cit., Vol. II, p 851; Rey, Les Colonies Franques de Syrie, Aux,XI et XIII Siecles, paris, 1883, p.13.

المحكمة غيابياً مما جعله يعيش في ذعر دائم [1]، ولم يجد أمامه سوى الإلتجاء إلى حامية عسقلان الإسلامية طالباً منها الحماية والأمن، فما كان من الحامية الإسلامية إلا أن أرسلت معه فرقة عسكرية أعادته إلى يافا، بينما عاثت هي فساداً في الأراضي الصليبية، الأمر الذي أدى إلى تأليب الرأي العام الصليبي ضده، وتخلى مؤيدوه عنه، كما أسرع الملك فولك على رأس جيشه إلى يافا لنجدتها فاستسلمت له المدينة على الفور، في الوقت الذي تخلى فيه المسلمون عن هيو إذ وجدوا فيه حليفاً عقيماً لا جدوى من ورائه [2]، فاسقط في يده وأيقن أن لا مخرج أمامه سوى الاستسلام للملك فولك. ولم يكن عقابه عسيراً نظراً للعلاقة التي كانت تربطه بالملكة ميليسند ابنة عمه والتي بلا شك مارست ضغوطاً على زوجها الملك فولك في هذا الأمر، كما كان الملك نفسه يرغب في تهدئة الأمور؛ إذ أطلت أخطار الحرب الأهلية برأسها من جهة، واستغل الدماشقة الفرصة وانتزعوا بانياس من أيدي الصليبيين من جهة أخرى. وعليه فقد اكتفى بنفي هيو ثلاث سنوات يجوز له بعدها أن يعود إلى أراضيه وقد أعفي من العقوبة.

وبينما كان هيو يستعد للرحيل عن الشرق هاجمه أحد الفرسان الصليبيين في بيت المقدس وطعنه في رأسه وجسده طعنات قاتلة. وعلى

---

(1) William of Tyre, op. cit., pp. 71-2

انظر أيضاً ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 136؛ ابن العديم: المصدر السابق، جـ2، ص 251.

(2) لعل الملكة ميليسند هى التى أوعزت لهيو بالتغيب لشعورها بالخطر عليه أو ربما كانت زوجته إيما هى السبب من وراء ذلك لانها أدركت أنها لابد أن تفقد إما الأبن أو الزوج أو ربما كان هيو هو نفسه الذى كان مدركاً لما ارتكبه من إثم خائفاً من انتقام الرب.

الفور حامت الشبهات حول الملك فولك الذي أراد أن يبعد أصابع الاتهام عن نفسه فقبض على المعتدي وسلمه إلى المحكمة حيث اعترف بأنه قام بذلك بوحي من نفسه، فحكم عليه بالإعدام[1]، ورغم ذلك، ظلت الملكة ميليسند حانقة على زوجها الملك فولك ولم تغفر له ولا لحزبه المعارض لهيو هذه الفعلة، وظلوا لمدة أشهر يخشون على حياتهم فلا يسيرون إلا برفقة الحرس، ويقال أيضاً أن نفس الشعور كان ينتاب الملك فولك، وإن ظلت رغبته الوحيدة هي الفوز بالحظوة لدى زوجته؛ فكان لا يعصي لها أمراً بل يوافقها على كل ما تريد[2].

وإذا تركنا مملكة بيت المقدس وخلافاتها وصلنا إلى إمارتي الشمال الرها وأنطاكية نجد الخلاف يتفجر من جديد بين الإمارتين. إذ استغل الأمير جوسلين الثاني فرصة تواجد الإمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين John Commenus بالمنطقة 1138م/ 532هـ وعمد إلى إيغار صدره ضد الأمير ريموند الثاني أمير أنطاكية Raymond II of Saint Gilles (1136- 1149م/ 530- 544هـ) حتى يقلل من منزلة الأخير لدى الإمبراطور على حد قول المؤرخ وليم الصوري [3].

---

(1) استطاع شمس الملوك إسماعيل أمير دمشق من انتزاع بانياس من أيدي الصليبيين في ديسمبر 1132م/ صفر 527هـ. ولمزيد من التفاصيل انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 226؛ ابن الأثير: المصدر السابق، جـ 8، ص 333؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، 4جـ في مجلدين، بيروت، بيروت، بدون تاريخ؛ جـ 3، ص 7؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ 27، تحقيق سعيد عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص 83

(2) William of Tyre, op. cit., pp. 74-5.

(3) Michel le Sytien, op. cit., p.245; William of Tyre, op. cit., p.97. والجدير بالذكر أن تحالفاً تم بين الامبراطور يوحنا كومنين John Comenus كلاً من الامير ريموند الثاني امير انطاكية وجوسلين الثاني امير الرها ضد—

وقد ظلت العلاقات بين الأميرين هادئة ظاهريا – رغم ما يضمره كل منهما للآخر من حقد وكراهية – إلى أن انكشف الأمر وأفصح كل منهما عن مكنون صدره، وذلك عندما حاصر عماد الدين زنكي الرها 1144م/ 539هـ إذ تقاعس الأمير ريموند الثاني عن مد يد العون لإمارة الرها، ولم تلق نداءات الاستغاثة التي طلبها جوسلين من أمير أنطاكية صدى لديه، بل سر وفرح لما نزل بالرها من شدائد، الأمر الذي أتاح لعماد الدين زنكي الفرصة الكاملة لحصار المدينة والاستيلاء عليها [1]. وحتى عندما لاحت الفرصة لجوسلين الثاني

=المسلمين في الشرق وكان يهدف الى انتزاع حماة وحمص وحلب وشيزر من أيدي المسلمين ومنحها لريموند الثاني أمير أنطاكية في مقابل تسليم الأخير أنطاكية الى الدولة البيزنطية وقد انتهى هذا التحالف بالفشل الذريع أمام شيزر. ولمزيد من التفاصيل راجع :

William of Tyre, op. cit., p.94-7.

انظر أيضاً :

ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص 262-63؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ 8 ، 358؛ ابن العديم : المصدر السابق ، جـ2 ، ص 265؛ ابن واصل :المصدر السابق ،جـ1 ، ص 76 .

(1) والثابت أن عماد الدين زنكي نجح في استرداد الرها يوم السبت 23 ديسمبر 1144م/ 26 جمادى الآخر 539هـ . ولمزيد من التفاصيل عن استرداد الرها راجع :

William of Tyre, op. cit., p.144; Gregoire le Pertre, Chronique de Gregoire le Pertre, Ed. R.H.C. Doc Arm., Tome I Paris, 1869, p157.

انظر ايضاً : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص 270؛ ابن واصل : المصدر السابق ، جـ 1 ، ص94؛ ابن العديم : المصدر السابق ، جـ2 ، ص279.

=

لاستعادة إمارته بعد موت عماد الدين زنكي 1146م/ 541هـ رفض ريموند أمير أنطاكية مد يد المساعدة لحملته مما أضعف محاولة جوسلين وجعل جيشه عاجزاً عن مواجهة الجيش الإسلامي الذي قاده نور الدين محمود وأنزل بالصليبيين هزيمة ساحقة ضاعت على إثرها كل الآمال لاستعادة الرها مرة أخرى [1].

ومهما يكن من أمر فقد قامت الحملة الصليبية الثانية كنتيجة مباشرة لاسترداد المسلمين إمارة الرها فضلا عن رغبة الغرب الأوربي في مساعدة إخوانهم في الشرق ضد قوة الزنكيين التي أخذت تنمو باضطراد مستمر في تلك الآونة . ووصلت جحافل الحملة الصليبية إلى الأراضي المقدسة وعلى رأسها إمبراطور ألمانيا كونراد الثالث Conrad III (1138- 1152م / 533- 547هـ) والملك لويس السابع Louis VII ملك فرنسا (1137- 1180م/ 532- 577هـ)، وفي يوم

=انظر أيضاً : علية عبد السميع الجنزوري : إمارة الرها الصليبية ، القاهرة ، 1975، ص 295-308.

(1) استغل جوسلين الثاني فرصة موت عماد الدين زنكي للعمل على استعادة إمارته فراسل سكان الرها من الأرمن الذين وعدوه بالمساعدة وقد تمكن من دخول المدينة ولكنه فشل في اقتحام القلعة ثم تمكن نور الدين محمود من إنزال الهزيمة الساحقة به وبقواته ،ولمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث راجع :

Michel le Syrien, op. cit., p.277; William of Tyre, op. cit., pp.158-61; Gregoire le Preter, op. cit., p..160.

انظر أيضاً: ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص 298؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ 9 ، ص14؛ ابن العديم : المصدر السابق ، جـ2 ، ص290؛ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، 2جـ في مجلد واحد ، القاهرة 1287-1288هـ ، جـ 1، ص 49 ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، جـ 1، ص 111.

السبت الموافق الرابع والعشرين من شهر يوليو 1148م/ السادس من ربيع الأول 543هـ حاصر الصليبيون دمشق حيث نزلوا بمنطقة البقاع وأخذوا مواقعهم أمام أبواب المدينة وشددوا من هجماتهم وأحرزوا بعض التفوق، بينما أخذ الدمشقيون يستبسلون في الدفاع عن مدينتهم إلا أن الصليبيين سرعان ما رفعوا الحصار عن دمشق وعادوا أدراجهم من حيث أتوا بعد أربعة أيام فقط من حصارهم لدمشق . وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية في تحقيق أهدافها بسبب ما نشب بين الصليبيين من خلافات[1].

من العرض السابق يتبين لنا أن خلافات الصليبيين أثرت تأثيراً سلبياً على وجودهم في الشرق منذ البدايات الأولى لاستيطانهم المنطقة،

---

(1) هناك عدة أسباب أدت الى فشل الحملة لعل من أهمها انحرافها عن هدفها الرئيسي الذى جاءت من أجله وهو استعادة الرها من أيدى المسلمين والوقوف أمام قوة نور الدين محمود المتزايدة وخيانة بعض الأمراء وتلقيهم الرشوة من المسلمين والانشقاق الداخلي وعدم الثقة التي تفشت بين صفوف قادة الحملة ، إذ تسرب نبأ خيانة بعض نبلاء المملكة الى اخوانهم الوافدين الجدد الأمر الذى انعكس سلبياً على النشاط العسكري ضد المسلمين وكذلك ما وقع من تنافس حول ملكية دمشق بعد سقوطها فى ايديهم . ففي حين ايد نبلاء المملكة الصليبية جي الثاني بريسبار أمير بيروت ليكون حاكماً عليها أيد الوافدون الجدد تيري الألزاسي لهذا المنصب . مما أثار غيرة كلا الفريقين وثبط من هممهم فى محاربة المسلمين وأهم من ذلك كله الدور الذى اضطلع به معين الدين أنر مدبر دمشق فى تصديه لتلك الحملة . ولمزيد من التفاصيل انظر :

William of Tyre, op. cit., pp.190-92; Roger of Wendover, op. cit., p.502; A.S.C., pp.298-99.

انظر ايضاً : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص 298؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ 8 ؛ ص 20-1 ؛ التاريخ الباهر ، ص 89؛ أبو شامة : المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 52-3 ؛ أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ 3، ص 20؛ النويري : المصدر السابق، جـ 27 ، ص 150-51

حقيقة أن أثر تلك الخلافات عليهم لم يبدو واضحاً جلياً في الفترة الأولى من حكمهم، ولا يرجع ذلك إلى أن تلك الخلافات لم تكن عميقة الأثر، ولكن لأن المسلمين في تلك الفترة كانوا يعانون آثار التفكك والضعف والتشرذم السياسي والمذهبي الأمر الذي لم يمكنهم من استغلال خلافات الصليبيين لصالحهم. وما أن أفاق المسلمون من سباتهم العميق وأدركوا ماهية الحروب الصليبية واستوعبوا الصدمة الأولى التي أفقدتهم توازنهم واعتدلت كفتا الميزان بينهم وبين الصليبيين، حتى استغلوا خلافات الصليبيين استغلالاً كبيراً لصالحهم، وتوجوا ذلك بنجاحهم في استرداد الرها أولى الإمارات الصليبية التي بذل الصليبيون جهداً كبيراً في تأسيسها . ورغم أن الصليبيين أحسوا بتغير موازين القوى لغير صالحهم إلا أنهم لم يتداركوا أخطاءهم بل تمادوا في خلافاتهم الأمر الذي أعطى المسلمين الفرصة لاستئصال شأفتهم والقضاء عليهم، بدأ ذلك بفشل الحملة الصليبية الثانية وما تلاها من حملات، واستطاع القادة المسلمون أمثال صلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، ثم الأشرف خليل بن قلاوون من استغلال الفرص المواتية ونجحوا بالفعل في اجتثاث جذور الصليبيين نهائياً من المنطقة.

الفصل الثاني

الدور السياسي لبنات الملك بلدوين الثاني

في الشرق اللاتيني

لعبت المرأة الفرنجية دورًا هامًا فى منطقة الشرق الأدنى إبان فترة الحروب الصليبية، فلم يقتصر دورها على الناحية الاجتماعية فحسب، بل امتد ليشمل مختلف مناحى الحياة الاجتماعية، الاقتصادية، الدينية، السياسية، والعسكرية وغيرها . فمن الناحية الاجتماعية، اهتمت المرأة فى المقام الأول بزوجها وتربية الأولاد، وكذلك الاهتمام بشئون البيت. ومن الناحية الاقتصادية، نجد عددًا غير قليل منهن كن يعملن بالتجارة ويمتلكن ضياعاً شاسعة وإقطاعات كبيرة وثروات ضخمة أثرت بشكل أو بآخر فى تلك الناحية . أما من الناحية الدينية فكان منهن الراهبات ومن يخدمن فى المستشفيات وأماكن العبادة، فضلاً عن تقلد بعضهن مناصب هامة مثل رئيسات للأديرة وغير ذلك، أما من الناحية السياسية، فكان للمرأة الفرنجية حظ كبير بحكم تقلدها لبعض المناصب الهامة فكان منهن الأميرات، الوصيات، وكذلك الملكات . ومن الناحية العسكرية نجد المرأة الفرنجية قد لعبت دوراً لا بأس به إذ شاركت الرجل في حروبه الطاحنة فامتطت صهوة الجياد وهي متخفية فى زيها العسكري تحارب المسلمين، اعتقاداً منها بأن ذلك من صميم العبادة والدين، فتظل تمارس القتال جنباً إلى جنب مع الرجل دون أن تُعرف شخصيتها أو يُكتشف أمرها إلا بعد القتال أو الأسر، كما كانت تحرض زوجها وأبناءها على قتال المسلمين وتحذرهم من الفرار، وكان منهن أيضا من يستأجرن الجنود لمحاربة المسلمين، ويتكفلن بمؤنهم وأجورهم[1].

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن وضع المرأة الفرنجية فى الشرق اللاتينى انظر :
William of Tyre,op.cit.,Vol. I, pp. 74 - 5,Vol. II, pp. 70- 2; Michel le Syrien, op.cit ,p. 230;.cf. also, Jean Richard, Le Statut de la Femme dans l'Orient Latin, in Variorum Reprints, (London, 1976), pp. 377- 388.

ولما كان دور المرأة من الناحية السياسية أكثر بروزًا وأهمية، لذلك اقتصرت الدراسة على تناول هذا الجانب ؛ ولعل ما قامت به بنات الملك بلدوين الثاني Baldwin II خير مثال على أهمية دور المرأة السياسي ؛ إذ لم يقتصر أثره على الشرق الفرنجي فحسب، بل امتد ليؤثر في الشرق الإسلامي والغرب الأوربي والدولة البيزنطية كذلك .

فالمعروف أن بلدوين أوف بورج Baldwin of Borge وصل إلى الشرق مع الحملة الصليبية الأولى، وتولى حكم إمارة الرها خلفًا لابن عمه بلدوين أوف بويون Baldwin of Bouillon عندما أصبح الأخير ملكاً على بيت المقدس سنة 1100م[1]. وعندما تولى بلدوين أوف بورج الإمارة 1100- 1118م لم يكن متزوجاً، كما لم يكن لديه أبناء، فأقدم سنة 1100م على خطوة هامة وهي الزواج من إحدى الأميرات الأرمنيات وهي الأميرة مورفيا Morphia ابنة جبرائيل أمير ملطية العاصمة الثانية لأرمينيا . وكان بلدوين موفقًا إلى حد كبير في تلك الخطوة ؛ فمن جهة ضمن ولاء المسيحيين الوطنيين عامة والأرمن خاصة الذين كانوا يشكلون غالبية سكان الإمارة، ومن جهة أخرى أصبحت خزائن إمارته عامرة بالأموال بعد أن كانت خاوية ؛ إذ قدم له الأمير جبرائيل Gabriel مبلغًا من المال يقدّر بنحو خمسين ألف بيزانت بائنة لابنته، فضلاً عن أموال أخرى قدمها له في مناسبات مختلفة، مما

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن تولي بلدوين أوف بورج حكم الرها راجع :
Fulcher of Charters op. cit., pp.27, 137; Matthieu d'Edesse, op. cit., T. I, p. 52; William of Tyre, Op. Cit., Vol. I, p. 42.
انظر أيضاً : علية عبد السميع الجنزوري : إمارة الرها الصليبية، القاهرة 1975، ص87- 93.

مَكّن الأمير بلدوين من الإمساك بدفة الحكم وتسيير أمور الإمارة بشيء من القوة(1).

وقد أنجبت الأميرة مورفيا لبلدوين بناته الأربع وهن: مليسيند Melisand، أليس Alice، هوديرنا Hodierna، وأخيراً إيفيست Yvet (2) أما الثلاثة الأول فقد وُلِدْن أثناء حكم بلدوين للرها في الفترة من سنة 1100 إلى سنة 1118م، أما الرابعة فقد وُلدت أثناء حكمه لمملكة بيت المقدس 1118- 1131م. وقد أحرزت ابنته أليس قصب السبق على أخواتها في الزواج، حيث تزوجت من الأمير بوهيمند الثاني Bohemond II أمير أنطاكية 1126- 1130م، فعندما وصل إلى الشرق سنة 1126 مطالباً بإرث والده، رحّب به الملك بلدوين ورد عليه إقطاعية أنطاكية كاملة، ثم زوجه من ابنته أليس في العام التالي 1127م(3). ورغم ما كان عليه بوهيمند من فتوة وشجاعة إلا أن المنية لم تمهله إذ سرعان ما لقي حتفه في حربه ضد الدانشمند عند رعبان،

(1) A.S.C., p. 75.; Jacques de Vitry, The History of Jerusalem A.D. 1180, Trans. From the Original Latin by Aubery Stewart in P.P.T.S, Vol. XI, London 1896, p. 97.

(2) Du Cange, op. cit., p.13.

(3) وبوهيمند الثاني هو ابن بوهيمند الأول، وأمه كونستانس ابنة فيليب ملك فرنسا، وكان عمره عندما وصل إلى الشرق ثمانية عشر عامًا، وكان أقرب إلى الطول وعلى قدر كبير من الوسامة، لبقًا في حديثه. ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته وأهم أعماله في أنطاكية انظر:

Walter The Chancellor's,The Antiochene Wars, tr.Thomass. Asbridge And Susan B.Edgington,Sydney 1999,P.192; Bar Hebraeus, The Chronigraphy of Gregory Abu Faraj, English translation, V. I, London 1932, p. 253.

انظر أيضاً: أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، حرّره فيليب حتي، د. ت، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص121.

فبراير 1130م، وهو لا يزال في مقتبل العمر، لتصبح أليس أرملة وهي في ريعان شبابها[1].

كان لبوهيمند عند وفاته ابنة واحدة من زوجته أليس تدعى كونستانس Constance في نحو الثالثة من عمرها تقريباً، ولما كانت هي الابنة الوحيدة أصبح لها حق إرث أبيها، ونظراً لأنها كانت قاصرة كان من حق الملك بلدوين- بوصفه السيد الإقطاعي الأعلى- أن ينظم شئون وصايتها، إلا أن ابنته أليس لم تنتظر وصوله إلى أنطاكية، كما لم تُعْطِ لغيرها فرصة للتدخل، وأعلنت نفسها الوصية على ابنتها، مما يكشف لنا عن شخصية تلك الأميرة وطموحها إلى الحكم والسيطرة؛ إذ عملت منذ الوهلة الأولى لوصايتها على تثبيت أقدامها في الحكم، والعمل بشتى الطرق على الاستئثار به وإن كان ذلك على حساب حقوق ابنتها كونستانس أو غيرها من الأمراء، الأمر الذي أثار ضدها حفيظة العديد من الأمراء الفرنج الذين طالبوا من الملك بلدوين ضرورة التدخل في هذا الأمر[2].

---

(1) Walter The Chancellor's,Op.Cit,.Loc.Cit; J. Kinnamos, Deeds of John and Manuel Comnenus, Trans., by Charles M. Brand, New York, 1976, p. 22; Michel le Syrien, Op. Cit., p. 230; Cf. Also, Robert L. Nicholson, The Growth of the Latin States, 1118 - 1144 in Setton, Vol. I, p. 431; Claude Cahen, La Syrie du Nord à l'époque des Croisades et la Principauté franque d'Antioche, Institut Français de Damas, Bibliothèque, Orientale, I (Paris, 1940), pp. 344 - 50, 357 - 61.

أشار المؤرخ وليم الصوري خطأ أن رضوان أمير حلب هو الذي قتل بوهيمند، لأن من المعروف أن رضوان مات قبل ذلك بكثير في 1114م.

عن ذلك انظر: William of Tyre, Op. Cit., Vol. 2, pp. 22- 23.

(2) William of Tyre, Ibid., p. 53; Michel le Syrieu, Op. Cit., p. 230; cf. Also; Alfred Duggan , op. cit., pp.99- 100.

ولما علمت الأميرة أليس بما يدبره لها مُناوؤها عملت على استقطاب قوة كبيرة تكون لها خير عون وتضمن لها بقاءها في الحكم، فوجدت ضالتها في الأمير عماد الدين زنكي . فأرسلت إليه رسولاً تعرض عليه ولاءها له في مقابل ضمان استقلال إمارتها وحمايتها من أعدائها . ولسوء حظها انكشف مخططها عندما وقع رسولها في أيدي رجال الملك بلدوين، الذي أسرع من بيت المقدس شمالاً صوب أنطاكية ليعيد الأمور إلى نصابها ، فأسقط في يدها ولم تجد أمامها سوى إعلان العصيان، فقامت بإغلاق بوابات المدينة في وجه أبيها ، واستعدت للمقاومة ، وكانت تعتمد في المقام الأول على ولاء المسيحيين الوطنيين - حيث كانت نصف دمائها أرمينية - وكذلك على ما كانت تنفقه من أموال من خزائن إمارتها[1]، ورغم عدم وصول الرسالة إلى عماد الدين زنكي إلا أن هذا الأمر يوضح لنا مدى ما كان لزنكي من نفوذ في المنطقة، هذا من جهة، كما أنه يكشف لنا عن مدى رغبة أليس وإصرارها على البقاء في الحكم، ولو كان ذلك بمحالفة المسلمين أعداء الصليبيين التقليديين، من جهة أخرى .

ومهما يكن من أمر، فقد وصل الملك بلدوين إلى أنطاكية ليجد أبوابها مغلقة ، فألقى الحصار على المدينة وساعده في ذلك عدد من الأمراء على رأسهم أمير الرها جوسلين أوف كورتناي Joscelin of Cortney [2] ولم يتمكن الملك من دخول المدينة إلا بعد قيام بعض

(1) William of Tyre, Op. Cit., p. 53; cf. Also; Runciman, A History of the Crusades, Cambridge, V.2, 1952, p.183; Jean Richard, op. cit., p.35.

(2) ينحدر جوسلين أوف كورتناي من إحدى العائلات النبيلة في فرنسا من مقاطعة جاتنيس Gatinois وتبعد حوالي ستة وخمسين ميلاً جنوب باريس، ، وقد جاء=

أمراء أنطاكية الفرنج من العلمانيين وقادة الكهنوت المناوئين لأليس بعصيان أوامرها وفتحوا بوابات مدينتهم أمام الملك وجنوده ، ولم تجد أليس أمامها سوى الالتجاء إلى القلعة لتحتمي بها ، ولم تنزل منها إلا بعد أن ضمن لها الوسطاء الصفح من أبيها الملك بلدوين، الذي أمر بتحديد إقامتها في مدينتي اللاذقية وجبلة اللتين كانتا باقتها عند زواجها من بوهمند الثاني، ومنحوما لها. وبذا نجح الملك بلدوين في القضاء على تمرد ابنته أليس، ورتب أمور الوصاية، وعاد ثانية إلى بيت المقدس سنة 1130م، ولم يلبث أن مات في العام التالي(1).

وإن كانت الأميرة أليس قد فشلت في محاولتها السابقة للاستئثار بحكم أنطاكية، وخذ والدها من طموحها، فها هي الفرصة تلوح لها من جديد لتحيي آمالها في السيطرة على حكم أنطاكية، وساعدها على ذلك وفاة أبيها والأمير جوسلين الأول أمير الرها الذي كان يتولى الوصاية على أنطاكية، كما ساعدتها أختها الملكة ميليسند صاحبة النفوذ القوي والتأثير الكبير على زوجها الملك فولك

= إلى الشرق في حملة عام 1101م، وكان فقيرا لا يملك من حطام الدنيا شيء، فمنحه بلدوين أوف بورج حكم منطقة أعالي الفرات.

ولمزيد التفاصيل عن نسبه وشخصيته وأهم أعماله، انظر: محمد فرحات: معاقل أعالي الفرات ص99-111

(1) لمزيد من التفاصيل عن المواجهة بين أليس وأبيها الملك بلدوين، انظر :
William of Tyre, Op, Cit., p. 53; Michel le Syrien, Op. Cit., p.230; Bar Hebraeus, Op. Cit., V. 1, p. 255; cf. also, Archer, T.H., and Kingsford, C.L., The Crusades the Story of Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1914, p.184; Rey op. cit., p. 356.

وعن موقع مدينتي اللاذقية وجبلة انظر خريطة رقم (2).

الأنجوى 1131 - 1143م[1]، فسادت من منفاها باللاذقية إلى أنطاكية لتتولى بنفسها الوصاية على ابنتها وإدارة شئون البلاد . وفى هذه المرة حاولت أن تقنع ابنتها بالانخراط فى سلك الرهبانية طوعاً أو كرهاً ، وإن كانت قد فشلت فى محاولاتها السابقة فى التحالف مع المسلمين فقد اعتمدت فى هذه المرة على الأمراء الفرنج، فعمدت إلى جذب بعض من ذوى المكانة إلى الوقوف بجانبها ومناصرتها فى تنفيذ مخططها، ونجحت فى استقطاب الأمير جوسلين الثانى Joscelin II أمير الرها 1131 - 1150م[2]، والأمير بونز Pons أمير طرابلس 1112- 1137م[3]، وغيرهما من الأمراء.

---

(1) الجدير بالذكر أن الملكة ميليسند كان لها تأثير كبير على زوجها الملك فولك الذى كان أسير حبها، فلم يكن يعصى لها أمرًا بل كان كل ما يطمع فيه أن يحظى برضائها. ولمزيد من التفاصيل انظر :

William of Tyre, Op. Cit., pp. 74 - 75.

(2) هو ابن جوسلين الأول، تولى حكم الإمارة بعد وفاة أبيه عام 1131م، وقد وصفته المصادر بأنه كان عربيدًا معاقرًا للخمر فاسقًا، عاش حياة الركود والدعة وسامت سمعته. ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته انظر :

William of Tyre, Op. Cit., pp. 51- 52; Du Cange, Op. Cit., p.390.

(3) بونز هو ابن برتراند، تولى الحكم بعد أبيه عام 1112م، وقام الأوصياء عليه بإرساله إلى أنطاكية ليتلقى فيها أصول الفروسية ويصبح فارسًا، وقد تزوج من أرملة تنكريد.

ولمزيد من التفاصيل عن حياته وأعماله، انظر :

Fulcher of Charter, Op. Cit., pp. 227, 28, 35, 36, 64, 68, 78, 93, 94; William of Tyre, Op. Cit., Vol. 1, pp. 492, 501, 528, 531, Vol. 2, pp. 11, 14, 16, 24, 30; Cf. also, Runciman, Op. Cit., p.125.

انظر أيضاً سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج1، القاهرة 1963م، ص377.

ولكن لماذا استقطبت أليس هذين الأميرين بالذات؟ ولماذا وافقاها على ذلك؟

لعل ما اتصف به جوسلين الثاني من ضعف وسوء الأخلاق ومعاقرة للخمر وحبه للملذات هو الذي جعل أليس تستميله، هذا فضلاً عن أن كلا الأميرين - جوسلين وبونز- أغراهما ما تنفقه أليس وما تقدمه من هدايا، هذا من جهة، كما أنهما أرادا أن يطرحا طاعة الملك فولك جانباً، خاصة وأن الأخير لم يكن لديه نفس مقدرة سلفيه بلدوين الأول والثاني، فإذا ما نجحت أليس في تحقيق مخططها حذى كلاهما حذوها في الاستقلال وعدم التبعية للملك[1].

على أي حال، أرسل مناوئوا أليس إلى الملك فولك يخبرونه بحقيقة الأمر، وما تدبره أليس من مكائد، وعندما علمت أليس بذلك أخذت تحصن القلاع والأسوار وتستعد لمعركة مرتقبة مع الملك فولك، الذي أسرع بدوره على رأس جيشه متوجهًا صوب أنطاكية[2]، وعندما وصل إلى طرابلس رفض بونز أميرها السماح له بالمرور عبر كونتيته، فاضطر إلى استكمال رحلته بحراً، وعندما وصل إلى ميناء السويدية دخل على الفور في معركة دامية مع حزب أليس المعارض، وتمكن من إنزال الهزيمة به وأجبرهم على الفرار، وكان على رأسهم بونز أمير طرابلس، إلا أن الملك لم يغامر بتعقب الفارين، ولعل ذلك يرجع إلى أنه

---

(1) والجدير بالذكر أن الأمير بونز قام قبل ذلك بمحاولة للخروج عن تبعية الملك بلدوين الثاني، ولكن محاولته باءت بالفشل عام 1122م. عن ذلك انظر:

Fulcher of Charter, Op. Cit., p. 235; William of Tyre, Op. Cit., Vol. 1, p.539.

(2) William of Tyre, Op. Cit., pp. 53- 54; Michel le Syrien, Op. Cit., p232; Cf. also, La Monte, op. cit., p. 12.

ادرك قلة ما معه من قوات، فضلاً عن أنه لم يرغب فى سفك المزيد من دماء الصليبيين، الأمر الذى سينعكس سلباً على قوتهم ككل فى المنطقة، فقبل اعتذار بونز وغيره من الأمراء وعفا عنه، كم أنه أجبر أليس على العودة والإقامة باللاذقية، ثم رتب أمور الإمارة وعاد ثانية إلى بيت المقدس سنة 1132م(1).

على أى حال انهمك الملك فولك فى شئون المملكة ومشاكلها، ولكنه اضطر إلى الذهاب ثانية إلى أنطاكية فى 1133م عندما تعرضت الإمارة للهجوم الإسلامى(2)، وأثناء وجوده بأنطاكية عرض عليه الأمراء فكرة اختيار زوج مناسب للأميرة الصغيرة كونستانس ليتولى شئون الإمارة، ووقع اختيار الملك على الأمير ريموند أوف بواتييه Raymond of Poitier ليكون الزوج المرتقب، إلا أن ريموند لم يصل إلى الشرق حتى عام 1136م(3). ونظرًا لانشغال الملك فى الجنوب، فقد انتهزت أليس هذه الفرصة وعادت للظهور من جديد فى أنطاكية سنة 1135م، ولم تتوانَ فى البحث عن مؤيدين لها فلم تجد سوى البطريرك رادولف 1135- 1140م، فتحالفت معه رغم أنه كان

(1) William of Tyre, Op. Cit., pp. 53- 54; Michel le Syrien, Op. Cit., p232; Cf. also, La Monte, op. cit., p. 12.

(2) ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص339؛ ابن القلانسى: المصدر السابق، ص240 – 241.

انظر أيضاً: William of Tyre, Op. Cit., p 57.

انظر أيضاً : ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. عماد الدين غانم، تقديم د. نجاح صلاح الدين القابسي، منشورات مجمع الفاتح للجامعات 1990م، ص132.

(3) William of Tyre, Op. Cit., pp. 77 - 78; J. Kinnamos, Op. Cit., pp.22 – 23.

مكروهاً من رجال الدين لسوء سمعته وأعماله[1]. ونظراً لرغبتها الجامحة في السيطرة والحكم، وعدم رغبتها في زواج ابنتها من ريموند أوف بواتييه الذي سيصبح حينئذ الأمير الشرعي للإمارة، وبالتالي ستفقد نفوذها وسيطرتها على الحكم، فقد أقدمت على خطوة غير مسبوقة من قبل؛ إذ عرضت زواج ابنتها من الأمير مانويل Manuel الابن الأصغر للإمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين 1118- 1142م John Comnenus[2] فوافق الأخير على هذا الاقتراح إذ وجد فيه ما كانت بيزنطة تصبو إليه منذ أربعين عاماً؛ إذ كانت تدعي أحقيتها الشرعية في أنطاكية، ولكنه كان ادعاءً على الورق فقط، أما وقد لاحت هذه الفرصة أمامها، فلم يتردد الإمبراطور يوحنا في الترحيب بتلك الخطوة.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل كانت أليس محقة فيما أقدمت عليه أم كانت مخطئة؟

الحقيقة أن إقدام أليس على زواج ابنتها من الأمير مانويل الذي سيصبح فيما بعد إمبراطور الدولة البيزنطية أفقدها ولاء مؤيديها وحلفائها داخل الإمارة، وعلى رأسهم البطريرك رادولف الذي لم يفكر مطلقًا في أن يتخلى عن منصبه لبطريرك آخر من الأرثوذكس، ولذا تخلى عن مناصرتها وانحاز إلى معارضيها. كما انتهز مناوئوا أليس من الأمراء والنبلاء الفرنج تلك الفرصة ليروجوا الإشاعات حول خيانتها

(1) خلف رالف أو رادولف البطريرك برنارد أوف فالنس Bernard of Valence عام 1135م، وظل في البطريركية حتى خلفه البطريرك أميرى ليموج Amiery of Limoges والذي ظل بطريركًا حتى وفاته من 1140م إلى 1196م.

(2) William of Tyre, Op. Cit., p. 80.

ومطامعها الشخصية وتفريطها فى حقوق فرنج أنطاكية خاصة، والقضية الصليبية عامة.

ولعل ما أقدم عليه أليس من اتصال بالدولة البيزنطية - إن أحسنّا الظن فى نواياها - كان ينم عن بعد نظر سياسى؛ إذ أن موازين القوى فى تلك الفترة أخذت تميل لصالح المسلمين، وأصبح عماد الدين زنكى قوة لها وزنها فى المنطقة، هذا من جهة، كما أن أحوال الصليبيين بصفة عامة لم تكن مستقرة ولم يكن لديهم من القوة ما يمكنهم من التصدى لقوة الزنكيين المتنامية، لذا تصبح المصاهرة المرتقبة مع بيزنطة والتحالف معها خير ضمان لفرنج أنطاكية خاصة والصليبيين عامة، إذ كان بوسع بيزنطة بما لديها من قوة أن تقف ضد طموح عماد الدين زنكى بالمنطقة، حقيقة إن فى هذا الأمر تقوية للنفوذ البيزنطى على حساب الصليبيين، إلا أن المصلحة العليا للعالم المسيحى كانت تقضى بأن يتم مثل هذا التحالف إذا ما أرادوا ترسيخ أقدامهم فى الشرق، خاصة وأن الصليبيين لم يترددوا بعد ذلك فى محالفة البيزنطيين ومصاهرتهم، بل وأقروا بأحقية بيزنطة فى حكم أنطاكية، واعترف ريموند أوف بواتييه - بعد استشارة الملك فولك بذلك - بل أقرَّ بأنه فصل من أفصال الإمبراطور[1].

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث، انظر:

J. Kinnamos, Op. Cit., p. 23; William of Tyre, Op. Cit., pp. 83 - 84, 92 - 93.

وعن أحقية بيزنطة فى حكم أنطاكية راجع الدراسة القيمة التى أعدها د.رأفت عبد الحميد تحت عنوان قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى 1998، ص100- 101، 103، 106.

ومهما يكن من أمر فقد انزعج صليبيو أنطاكية لما تدبره أليس، وأرسلوا إلى الملك فولك يلحون عليه بضرورة الإسراع بزواج الأميرة كونستانس، ولحسن الطالع أن الأمير ريموند أوف بواتييه وصل إلى أنطاكية في 1136م . ولكي يتجنب البطريرك والأمير ريموند معارضة أليس، أوهمها البطريرك أن الأمير ريموند إنما جاء للزواج منها وليس من ابنتها ذات التسعة أعوام . لذلك انخدعت أليس في وعود البطريرك وبقيت في قصرها تنتظر قدوم الأمير ريموند للزواج منها، وفي الوقت نفسه قام البطريرك بتدبير من يختطف الأميرة كونستانس ويأتي بها إلى كاتدرائية المدينة، وبينما كانت الفتاة الصغيرة تتساءل مندهشة عن سبب وجودها في الكنيسة، قام البطريرك رادولف بعقد زواجها على الأمير ريموند ليصبح الأخير صاحب الحق الشرعي في إدارة شئون الإمارة 1136- 1149م[1]، وفوجئت أليس بالأمر ولم يكن بوسعها القيام بأي شيء، نظراً لأن القانون الإقطاعي يعطي الحق لزوج الوريثة في أن يصبح سيد الإقطاع . وبذا خُدعت أليس وضاع حلمها في الزواج من ريموند، كما قضي على آمالها في الاستمرار في حكم الإمارة، ولم تجد أمامها من سبيل سوى الانزواء على نفسها باللاذقية لتقضي ما تبقى من عمرها الذي لم يطل بها، وتموت هناك كمداً دون أن تحقق ما أرادت[2].

---

(1) أورد لنا المؤرخ وليم الصوري تفاصيل ما جرى منذ لحظة وصول ريموند إلى أنطاكية وحتى زواجه من الأميرة كونستانس والمؤامرة التي حاكها بإتقان أسقف أنطاكية ضد الأميرة أليس. عن ذلك انظر:

William of Tyre, Op. Cit., pp. 79 - 80; Cf. also, Alfred Duggan, Op. Cit., pp. 100 – 101; Lilie,Op.Cit.,P.104.

(2) William of Tyre, Op. Cit., p. 80.

انظر أيضاً : ماير: المرجع السابق، ص133.

وإن كانت الأميرة أليس قد فشلت فى تحقيق أهدافها، فإن الدولة البيزنطية لم تكن لترضى عما حدث. فقد ساء الإمبراطور يوحنا أن يفشل مشروع المصاهرة بينه وبين أليس، وأبدى معارضة شديدة لزواج الأميرة كونستانس من ريموند أوف بواتييه دون استشارته، إذ أوضح أنه كان لابد من إحاطته علماً وأخذ موافقته على هذا الزواج؛ على أساس أن أنطاكية كانت جزءاً من الدولة البيزنطية من قبل، وترجم غضبه هذا عملياً؛ إذ قاد فى 1137م حملة عسكرية ضد أنطاكية أرغم فيها الأمير ريموند على الاعتراف بتبعية أنطاكية للدولة البيزنطية وأنه فصل من أفصال الإمبراطور، كما رُفع العلم البيزنطى على قلعة أنطاكية، وأكثر من ذلك اتفق الإمبراطور مع ريموند على القيام فى العام التالى بحملة عسكرية ضد المسلمين يكون من أهدافها انتزاع حلب وحمص وشيزر من أيدى المسلمين ومنحها إلى ريموند فى مقابل تنازل الأخير عن أنطاكية للإمبراطور[1]. والجدير بالذكر أن ريموند لم يوافق على كل ما سبق إلا بعد استشارة الملك فولك، ويقال إن الملكة ميليسند هى التى أوعزت إلى زوجها بتلك الإجابة حتى تثأر ممّن غدر بأختها أليس وتجرعه كأس الذل والهوان[2].

وإذا تركنا أليس وإمارة أنطاكية وعدنا إلى بيت المقدس؛ نجد أن الأميرة ميليسند الابنة الكبرى للملك بلدوين أصبحت الوريثة الشرعية

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث انظر :

William of Tyre, Op. Cit., pp. 83 - 84, 92 - 93; J. Kinnamos, Op. Cit., p.23.cf.also,Chalandon, Jean II Comnène (1118 - 1143) et Manuel I Comnène (1143 - 1180), Les Comnènes, Etudes sur l'Empire Byzantin aux XIème et XIIème Siècles, II, Paris 1912, pp. 122 - 34; La Monte, Op. Cit., p. 193.

(2) ماير، المرجع السابق، ص134.

للمملكة سنة 1129م، نظرًا لأن أباها لم ينجب أولاداً ذكوراً حتى ذلك الحين، وقد شاركت ميليسند أباها في كثير من شئون المملكة وأفادها ذلك كثيرًا عندما اعتلت العرش بعد وفاته[1]. ولما كان بلدوين الثاني قلقاً على مسألة وراثة العرش فقد رأى ضرورة ترتيب أمر زواج ابنته، وعليه عقد الملك مجلساً عاماً حضره عدد كبير من الأمراء العلمانيين ورجال الكهنوت لمناقشة تلك المسألة، وقد نصح النبلاء الملك بضرورة البحث عن زوج مناسب للأميرة ميليسند ليخلفه على عرش المملكة، وعليه أرسل الملك سفارة إلى فرنسا برئاسة وليم دى بيرى William de Bury كافل المملكة وعدد من النبلاء منهم سيد بيروت ومقدم الداوية[2]، ووقع اختيار لويس السادس Louis IV ملك فرنسا على فولك الخامس كونت أنجو ليكون الزوج المرتقب للأميرة ميليسند[3] ووعده رئيس السفارة بإتمام الزواج في غضون خمسين يومًا

---

(1) شهدت ميليسند على عدة وثائق في حياة أبيها، منها الوثيقة الصادرة في مارس 1129 والخاصة ببعض الهبات التي منحها الملك لصالح الضريح المقدس، وجاء اسمها ضمن الشهود عليها ووقعت بصفتها وريثة ملك بيت المقدس.

عن ذلك انظر :

Comte de Marsy, Fragment d'un cartulaire de l'ordre de St. Lazare en Terre Sainte, Cf. A.O.L., 2, p. 128.

(2) ولمزيد من التفاصيل عن تلك البعثة انظر :

William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p. 50.

انظر أيضاً : محمد محمد فرحات: بيروت ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد، الإسكندرية 1994، ص183.

(3) William of Tyre, Op. Cit., Loc. Cit.; Ernoul, Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier, Ed. L. De Maslatrie, Paris, 1871, p.10.

وقد أرسل البابا هونوريوس الثاني Honorius II خطابًا إلى الملك بلدوين يزكى فيه اختيار فولك. عن ذلك انظر :

من وصوله إلى الشرق، وتوقع وراثة العرش بعد وفاة الملك بلدوين[1]، وقد قبل الأمير فولك العرض . وبعد أن أعد الترتيبات اللازمة، وعهد بحكم كونتيته إلى ابنه الأكبر جيوفرى الملقب بالبلانتاجنت Geoffrey Plantagenet[2]، غادر فرنسا متوجهاً صوب الشرق فى موكب مهيب فاق مهابة وأبهة الملك. وفى ربيع 1129م وصل إلى ميناء عكا حيث استقبله الملك بلدوين بالحفاوة والتكريم، وزوّجه من ابنته ميليسند كما منحهما مدينتى صور وعكا[3].

ومهما يكن من أمر، فلم يمض وقت طويل على زواج فولك حتى مات الملك بلدوين الثانى فى 1131م، فخلفه على العرش زوج ابنته

= Letter of Honorius II to Baldwin recommending Foulque, Regesta, doc. 122;,PP.261-263.

(1) Roger of Wendover, op. cit., Vol. I, p. 477; Cf. also, Nickerson, Op. Cit., Loc. Cit.

(2) Roger of Wendover, Op. Cit., Loc. Cit; Ordric Vitalis and Robert of Torigni,The Gesta Normannorum Ducum of Willim of Jumieges,tr.ElisabethM.C.Van Houts,Two Vols,OxFord, 1995, Vol 2 P.263; Cf.also,Holt,The Age of The Crusades, London, 1990,PP.25-6.

وقد تزوج جيوفرى من ماتيلدا ابنة هنرى ملك إنجلترا. ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر : ماير : تاريخ الحروب الصليبية، ص130 – 131.

(3) Roger of Wendover, Op. Cit., loc. cit.; William of Tyre, Op. Cit., Loc.Cit.; Mukhairas, Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus, entitled "Chronicle", edited with a translation and notes by R.M. Dawkins Bywater and Sotheby, Vol. I, Oxford, 1932, p. 49.

انظر أيضاً : يوشع براور : عالم الصليبيين، ترجمة وتعليق وتقديم: قاسم عبده قاسم، محمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، 1999م، ص91.

وعن موقع مدينتى صور وعكا انظر خريطة رقم (1).

1131- 1143م[1] ورغم أن الملك فولك كان شغوفاً بزوجته، إلا أنها لم تكن تبادله نفس المشاعر بل لم تحفل به مطلقاً نظراً لما كان يربطها بابن عمها هيو الثاني Hugh II سيد يافا من علاقات عاطفية قبل ذلك[2]، ورغم زواجها وتربعها على عرش المملكة مع زوجها الملك فولك، إلا أن علاقتها بابن عمها أخذت تزداد قوة حتى راج حولها القيل والقال، وتمكنت الغيرة من قلب الملك فولك، وزاد من أوارها التفاف عدد من النبلاء حول الملك وزادوا من شكوكه، وكان على رأسهم يوستاس الثاني Eustace II وريث صيدا، ووالتر Walter وريث

---

(1) وتذكر المصادر الغربية أنه بينما كان الملك بلدوين على فراش الموت استدعى إليه ميليسند وفولك وكذلك النبلاء ووجهاء المملكة، وتم موافقة البلاط على انتخاب ميليسند وفولك كوارثين للعرش، وفي 14 سبتمبر تم تتويجهما في كنيسة الضريح المقدس. عند ذلك انظر :

Ordric Vitalis and Robert of Torigni,Op.Cit.PP.240-41; William of Tyre, Op. Cit., p. 11; Roger of Wendover, Op. Cit., p. 477.

انظر أيضاً : أسامة بن منقذ: المصدر السابق، ص81؛ ابن القلانسي: المصدر السابق، ص233.

Cf. also, W. Miller, Essay on the Latin Orient, Cambridge 1921, p.518.

(2) هيو الثاني هو ابن هيو الأول من زوجته مابيلا، وقد مرض هيو الثاني في أبوليا أثناء توجه والديه إلى الشرق، فتركاه هناك في بلاط بوهيمند الثاني -ابن عم مابيلا المباشر- وظل هيو الابن مقيماً في أبوليا حتى مات والداه فأبحر إلى الشرق للمطالبة بميراث أبيه، فاحتفى به الملك بلدوين الثاني وسلمه إقطاع يافا ميراث أبيه. ولمزيد من التفاصيل انظر :

Du Cange, Op. Cit., pp. 338 - 39; William of Tyre, Op. Cit., p. 70.

قيسارية ابنا زوجة الأمير هيو[1]. ولم يجد الأخير أمامه سوى أن يجعل لنفسه حزباً معارضاً، وسرعان ما تحزب نبلاء المملكة كلها بين الملك والكونت[2].

استمر هذا الوضع على ما هو عليه حتى عام 1132م، عندما اتهم والتر جارنيه سيد قيسارية هيو الثاني صراحة بالخيانة والتآمر على حياة الملك، ودعاه متحدياً إلى منازلته كي يبرئ ساحته: فأنكر هيو التهمة وقبل التحدي، وحددت المحكمة العليا تاريخاً للنزال وعاد كل منهما إلى مدينته ليجهز نفسه لذلك اليوم. وفي اليوم المحدد للنزال، تغيب هيو عن الحضور، ولعل الملكة ميليسند هي التي أوعزت له بذلك لخوفها عليه، أو لعل زوجته الأميرة إما Emma نصحته بذلك لأنها خشيت فقدان زوجها أو ابنها.

على أية حال، أدانت المحكمة العليا الأمير هيو لتغيبه عن النزال، مما اضطر الأخير إلى طلب الحماية من مسلمي عسقلان الذين أرسلوا إليه فرقة عسكرية عاثت فساداً في الأراضي الصليبية وهي في

---

(1) تزوج هيو الثاني Hugh II أمير يافا من الأميرة إما Emma أرملة ايوستاس جرونييه Eustace Grenier عام 1124م، ولم يكن علي وتسام مع ولديها ايوستاس الثاني ورينه صيدا ووالتر الأول رينه قيسارية لأنه يكبرهما بقليل. عن ذلك انظر:

William of Tyre, Op. Cit., p. 70; Regesta, doc. 104; cf. also, La Monte, op. cit., pp. 188 - 90; Idem, Lords of Caesarea in the Period of the Crusades in Speculim, Vol. XXII, Cambridge, 1947, p. 147.

(2) Du Cange, Op. Cit., pp. 338 - 341, 401 - 402; William of Tyre, Op. Cit., pp.71- 72.

انظر أيضاً: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص136؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج2، ص251.

طريقها إلى يافا التي تحصن بها هيو وأعلن العصيان على الملك، فما كان من الأخير إلا أن زحف بجيشه وتمكن من دخول المدينة بعد أن تخلى مؤيدو هيو عنه عندما طلب مساعدة المسلمين ضد الملك، ونتيجة لذلك أصبح هيو وحيداً دون مناصر من الفرنج، كما تخلى عنه المسلمون أيضًا لأنهم وجدوا فيه حليفاً عقيماً لا جدوى من ورائه، فأسقط في يده ورأى أن الحكمة تقتضي الاستسلام للملك . ولم يكن عقابه عسيراً نظراً للعلاقة التي كانت تربطه بالملكة ميليسند ابنة عمه والتي بلاشك مارست ضغوطاً على زوجها الملك فولك في هذا الأمر، وعليه، فقد اكتفى بنفي هيو ثلاث سنوات يجوز له بعدها أن يعود إلى إقطاعه، وقد أعفى من العقوبة[1].

وبينما كان هيو يستعد للرحيل عن الشرق، تعرض لمحاولة اغتيال قام بها أحد الفرسان الصليبيين في بيت المقدس، فحامت الشبهات حول تورط الملك فولك في تلك المحاولة، ولكي يبعد أصابع الاتهام عن نفسه قبض على المعتدي وسلمه إلى المحكمة حيث اعترف الجاني بأنه قام بذلك بوحي من نفسه فحكم عليه بالإعدام . ورغم ذلك ظلت الملكة ميليسند حانقة على زوجها الملك فولك ولم تغفر له ولا لمؤيديه هذه الفعلة وظلوا لمدة أشهر يخشون على حياتهم فلا يسيرون إلا برفقة الحرس، ويقال أيضاً أن نفس الشعور كان ينتاب الملك فولك وإن ظلت رغبته الوحيدة هي الفوز بالحظوة لدى زوجته، فكان لا يعصي لها أمراً، بل يوافقها على كل ما تريد[2] وهكذا طعنت ميليسند في حبها

---

(1) يورد لنا المؤرخ وليم الصوري تفاصيل ما حدث بشيء من الإسهاب.

عن ذلك انظر: William of Tyre, Op. Cit., pp. 71 - 72.

(2) William of Tyre, Op. Cit., pp. 74 - 75; Cf. also, Jean Richard, Op. Cit., pp.95- 96.

لهم، ولم تجد سبيلاً لسنواها سوى الانغماس في شئون السياسة والحكم.

لعلنا لا يجانبنا الصواب إذا قلنا إن الملكة ميليسند يقع عليها الجزء الأكبر من مسئولية ما حدث بالمملكة من فتنة وحرب أهلية كان المسلمون هم المستفيدون الوحيدون منها، إذ انتهزوا فرصة ما يجري بالمملكة من اضطرابات وتمكنوا من انتزاع مدينة بانياس من أيدي الصليبيين[1]، كما تعرضت إمارات الشمال إلى هجماتهم المتكررة[2].

مما سبق يتضح لنا مدى ما كانت عليه شخصية الملك فولك من ضعف، وهذا أمر ليس مبالغ فيه، وإنما أكدته المصادر العربية والغربية على حد سواء[3]، الأمر الذي انعكس سلباً على قوة المملكة والصليبيين عامة، كما استغلته الملكة ميليسند لصالحها خاصة؛ إذ مارست ميليسند على زوجها نفوذاً كبيراً، يظهر ذلك من خلال موافقة

---

(1) استطاع شمس الملوك إسماعيل أمير دمشق انتزاع بانياس من أيدي الصليبيين في ديسمبر 1132م/ صفر 527هـ. ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص236؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص333؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج3، ص7؛ النويري: المصدر السابق، ج27، ص83.

(2) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص240- 241؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص339.

(3) وصف ابن القلانسي الملك فولك بقوله: «ولم يخلف بعده (الملك بلدوين الثاني) فيهم صاحب رأي صائب ولا تدبير صالح وقام فيهم بعده الملك القومص الجديد الكندايجور الواصل إليهم في البحر من بلادهم فلم يتسدد في رأيه ولا أصاب في تدبيره» الذيل: ص233.

انظر أيضاً:

William of Tyre, Op.Cit., p.47; Mattew of Edessa, Op.Cit., p. 125.

فولك على عودة أليس من منفاها باللاذقية لتتولى الوصاية ثانية على ابنتها كونستانس رغم مواقفها الشاذة التي كان يمكن أن تضر بالصالح الصليبي العام. كما أملت ميليسند على زوجها الرد الذي أجاب به على ريموند أوف بواتييه أمير أنطاكية عندما عرض على الملك مطالب الإمبراطور البيزنطي وأحقيته في حكم أنطاكية مما أدى إلى أن يمثل بين يدي الإمبراطور في ذلة ومهانة، ويخضع لكل ما أملاه عليه، انتقامًا لأختها أليس كما سبقت الإشارة، كما أنها كانت سببًا فيما وقع من خلاف بين زوجها وبين الأمير هيو الثاني سيد يافا. ويمكننا القول أن الملك فولك لم يحكم بيت المقدس حكمًا منفردًا، وإنما قاسمته الملكة ميليسند فيه، وآية ذلك الوثائق والعقود الملكية التي صدرت في عهده، فلم يصدر الملك أي وثيقة إلا وتضمنت موافقة زوجته[1] باستثناء ثلاث وثائق انفرد هو بها، اثنتان منها ظهر فيهما كوصي على إمارة أنطاكية[2]، أما الثالثة فقد ظهر فيها كشاهد[3]. وهذه الوثائق الثلاث ليس لها علاقة بالحكم أو تصريف شئون المملكة.

وفي 10 نوفمبر 1143م مات الملك فولك وله ولدان: بلدوين الثالث، وعمره ثلاث عشرة سنة، وعموري وعمره سبع سنوات، وفي الحال تولت ميليسند الوصاية على ابنها القاصر بلدوين الثالث، وتم تتويجها في عيد الميلاد، وقد دان لها كل نبلاء المملكة بالطاعة[4].

---

(1) هناك ست وثائق أصدرها الملك فولك، وتضمنت موافقة زوجته وهي في أعوام 1136، 1138، 1142. عن ذلك انظر:

Regesta, docs. 163, 164, 174, 179, 181, 210.

(2) Regesta, docs. 149, 157.

(3) Regesta, doc. 142.

(4) William of Tyre, Op. Cit., pp. 134 - 35, 139;Cf.also,Lilie Op.Cit.,P.145.

وكانت فترة حكم الملكة ميليسند لبيت المقدس كوصية على ابنها من أصعب الفترات التى مرت فى تاريخ المملكة ؛ إذ واكبتها تغيرات كبيرة فى موازين القوى بالمنطقة مالت فيها لصالح المسلمين أكثر منها لصالح الفرنج، كما أنها شهدت محاولات جادة لإعادة النفوذ البيزنطى من جديد بالمنطقة فى الوقت الذى بدا فيه الصليبيون أقل قوة من خصومهم، كما أن إمارات الشمال أخذت تستخف بالمملكة ولم يَرُقْ لأمرائها الاعتراف بسيادة النساء عليهم، وأخذت النكبات تترى على الصليبيين فلم يمض أكثر من بضعة أشهر حتى هاجم عماد الدين زنكى إمارة الرها وأظهر إصراراً كبيراً على إسقاطها، ولم تجد نفعًا الاستغاثة التى طلبها جوسلين الثانى من ريموند أوف بواتييه أمير أنطاكية لذا طلب جوسلين النجدة من الملكة ميليسند التى أرسلت بعد طول أناة جيشاً بقيادة مناسس Manasses كونستابل المملكة، ولكن تلك النجدة وصلت بعد فوات الأوان وتمكن عماد الدين زنكى من استرداد الرها فى ديسمبر 1144م[1]، كما أن

---

(1) عن تفاصيل استرداد عماد الدين زنكى للرها، انظر : ابن القلانسى: المصدر السابق، ص279؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص8؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج2، ص279؛ ابن واصل : المصدر السابق، ج1، ص94.

انظر أيضًا :

Michel le Syrien, Op. Cit., pp. 260-62; Bar Hebraeus, Op.Cit., Vol.I, pp.268- 69; William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 141 - 143.

انظر أيضاً : محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها 1097- 1144م، إسكندرية 1972، ص335 - 74.

السفارة التى أرسلتها الملكة ميليسند إلى البابا يوجين الثالث لطلب النجدة من الغرب وصلت إليه متأخرة فى خريف 1145م[1].

ولم يقتصر فشل الملكة ميليسند على نجدة الرها فحسب، بل إن ما قامت به فى عام 1147م يوضح لنا مدى الحماقة السياسية التى كانت عليها ؛ إذ انحازت إلى الأمير التونتاش والى بُصرى وصلخد ، وأحد قواد معين الدين أنر، عندما تمرد على سيده وذهب يطلب العون من الملكة ميليسند ويعرض عليها تخليه عن مدينتيه فى مقابل منحه منطقة حوران، وقد وافقت الملكة على العرض، ورغم مناشدة أنر لها بعدم الانزلاق فى هذا الأمر وإن العُرف يقضى بعدم تأييد تابع لحاكم آخر تربطه بالأول علاقة صداقة إذا تمرد ذلك التابع على سيده إلا أن ذلك لم يُجدِ نفعاً مع الملكة والصليبيين رغم علمهم بأن مصلحة المملكة تكمن فى تحالفها مع دمشق، كما عرض أنر تسديد أية نفقات تكون قد تكبدتها المملكة من جراء تجهيز الحملة . فاضطر أنر أمام هذا الرفض إلى التوجه إلى حلب وطلب المساعدة من نور الدين، ووافق على منح يد ابنته إليه فقبل نور الدين العرض ووعده بالحضور فورًا لمساعدته . وقد نجح الرجلان فى إجهاض الحملة العسكرية التى قام بها الصليبيون لانتزاع بُصرى وصلخد وكبدوهم خسائر فادحة ، ولم تفلح الحملة فى تحقيق أهدافها رغم تكاليفها الباهظة فحسب، بل وترت العلاقة بين بيت المقدس ودمشق وانعدمت الثقة بين الجانبين، وهذا الأمر سيتضح أكثر فى الحملة الصليبية الثانية ، كما أنها أوجدت نوعاً من

---

(1) ترأس هذه السفارة هيو أسقف جبلة. عن ذلك انظر :

Runciman, Op. Cit., Vol. II, p. 238.

التقارب بين حلب ودمشق مما سينعكس سلبًا فيما بعد على الوجود الصليبي بالشرق[1].

لم يقف الأمر عند قصور حسن الملكة ميليسند السياسي فحسب، بل ورطت نفسها في مؤامرة اغتيال ألفونسو جوردان Alphonse Jordan أحد أمراء الحملة الصليبية الثانية . ولما كان الأخير ابن ريموند الأول Raymond كونت تولوز، يصبح من حقه حكم طرابلس إذا ما طالب بإرث أبيه[2]، وهذا ما كان يخشاه ريموند الثاني كونت طرابلس آنذاك، فأوعزت الكونتيسة هوديرنا زوجته إلى أختها الملكة ميليسند بضرورة التخلص من الكونت، ولم يَمْضِ وقت طويل على وصوله إلى عكا وأثناء توجهه إلى بيت المقدس دُسَّ له السم فمات صريعاً في قيسارية[3]. واتهم ابنه صراحة ريموند الثاني بقتل أبيه، في حين ساد الاعتقاد عند الكثيرين أن الملكة

---

(1) ولمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث وما ترتب عليها راجع :

ابن القلانسي : المصدر السابق، ص288- 291؛ أبو شامة : المصدر السابق، ج1، ص50.

انظر أيضًا:

William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 146- 157.

انظر أيضاً : حسن حبشي: نور الدين والصليبيون، بغداد 1948م، ص47.

(2) ألفونسو جوردان هو ابن ريموند الأول كونت تولوز، ولد في قلعة الحجاج أثناء حصار أبيه لمدينة طرابلس، أما ريموند الثاني فهو حفيد برتراند الابن غير الشرعي للأمير ريموند.

(3) عن وصول ألفونسو جوردان إلى الشرق وما وقع من أحداث حتى مصرعه، انظر :

William of Tyre, Op. Cit., p. 181; Cf. also, Virginia G. Berry, The Second Crusade in Setton, Vol. I, p. 504.

ميليسند متورطة فى هذه المؤامرة . والباحث يتفق مع الرأى الأخير على أساس أن نجاح ألفونسو جوردان - إذا ظل على قيد الحياة - فى استعادة إرث أبيه، وهو كونتية طرابلس، سيحرم الكونتيسة هوديرنا زوج ريموند الثانى وشقيقة الملكة ميليسند من الحكم وستصبح دون نفوذ، وهذا أمر يتعارض مع سيكولوجية بنات الملك بلدوين الثانى اللائى كن يطمحن دائماً إلى الحكم والسيطرة .

ومهما يكن من أمر، فقد قامت الحملة الصليبية الثانية بهدف استرداد الرها، وفى الاجتماع الذى حضرته الملكة ميليسند وابنها الملك بلدوين الثالث وكبار رجال المملكة من العلمانيين ورجال الدين، فضلاً عن قادة الحملة، ناقش المجتمعون تحديد وجهة الحملة واستقر الرأى فى النهاية على مهاجمة مدينة دمشق بدلاً من الرها[1]، وهذا يدل المرة تلو الأخرى على مدى القصور السياسى لدى الملكة ميليسند خاصة والأمراء الصليبيين عامة، إذ سمح الصليبيون بمهاجمتهم مدينة دمشق لمعين الدين أنر بالاتصال بنور الدين محمود وطلب العون منه بما يمثله هذا من خطر على الوجود الصليبى، كما فقد صليبيو الشرق حليفاً كبيراً طالما وقف حجر عثر أمام إتمام الجبهة الإسلامية المتحدة التى دأب نور الدين محمود، ومن قبله عماد الدين زنكى، على محاولة تحقيقها.

ولعل من الأسباب الهامة التى أدت إلى توجه الصليبيين نحو مهاجمة دمشق رغبة الملك بلدوين الثالث فى التخلص من سيطرة والدته عليه، فحتى ذلك الحين، ورغم بلوغه سن الرشد، لم تظهر الملكة

---

(1) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 183 - 185; Reger of Wendover, Op. Cit., Vol. I, p. 501, A.S.C., Op. Cit., p. 298.

انظر أيضاً : ابن القلانسى: المصدر السابق، ص298؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص20؛ أسامة ابن منقذ: المصدر السابق، ص94 - 95.

ميليسند أي بادرة تشير إلى عزمها على التنازل عن العرش لابنها، فرأى الملك بلدوين في الاستيلاء على دمشق فرصة للانفراد بحكمها بعيدًا عن سطوة والدته . ورغم كل ذلك فشلت الحملة الصليبية الثانية في الاستيلاء على دمشق، وضاع معها أي أمل في استعادة الرها مرة أخرى من أيدي المسلمين[1].

وفي السنوات التي تلت الحملة الصليبية الثانية، ألمّت النكبات بالصليبيين عامة، فبالنسبة لإمارات الشمال خرّ ريموند أوف بواتييه أمير أنطاكية صريعاً أمام قوات نور الدين في 1149م[2]. وفي العام التالي، 1150م، أُسر جوسلين الثاني أمير الرها و وافقت الملكة على بيع ما تبقى من معاقل الإمارة إلى البيزنطيين[3].

---

(1) ولمزيد من التفاصيل عن أسباب فشل الحملة الصليبية الثانية انظر :

William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 190-92; Roger of Wendover, Op. Cit., Vol. I, p. 502; A.S.C., Op. Cit., pp. 298 - 99; Michel le Syrien, Op. Cit., Vol. III, p. 276.

انظر أيضًا :ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص20– 21؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج3، ص20؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج1، ص113.

(2) لقي ريموند أوف بواتييه مصرعه في معركة انب في 29 يونيو 1149م، حيث تمكن المسلمون من إبادة معظم جيشه وأسر عدد كبير آخر منهم. ولمزيد من التفاصيل عن تلك المعركة وأهم نتائجها انظر:

ابن القلانسي: المصدر السابق، ص304– 305؛ الدمشقي: الدر الثمين في سيرة نور الدين (مخطوط) ورقة 57؛ ابن العديم: المصدر السابق،ج2،ص298-299.

انظر أيضًا :

William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 196- 98; Grégoire le Prêtre, op.cit.,T. I, p. 161.

(3) اختلفت المصادر العربية والغربية حول تحديد تاريخ وكيفية أسر جوسلين ، عن ذلك انظر :

و في 1151م تمكن نور الدين من انتزاع تلك المعاقل وإعادتها ثانية إلى السيادة الإسلامية[1].

أما بالنسبة لمملكة بيت المقدس، فقد ضاق الملك بلدوين الثالث ذرعاً بتصرفات أمه وإصرارها على عدم التخلي عن العرش، وأخذ يعمل جاهداً على طرح طاعتها واستئثارها بالحكم، وساعده في ذلك عدد كبير من نبلاء المملكة الذين رأوا أن اهتمامات الملكة محلية ضيقة لا ترقى إلى ما يصبو إليه اللاتين، في حين كانوا يرون أن بلدوين الثالث أكثر نشاطاً وأبعد نظراً، فقد كانت طموحاته تتناسب مع طموحات الشرق اللاتيني. ولما أحست الملكة بتمرد ابنها والتفاف النبلاء حوله، عملت هي الأخرى على تدعيم مركزها واجتذاب عدد من الحلفاء لمساندتها، فاعتمدت في المقام الأول على دعم الكنيسة[2]،

= ابن العديم: المصدر السابق، ج2، ص301 – 302؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج1، ص72؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج1، ص124؛ النويري: المصدر السابق، ج27، ص156.

انظر أيضاً :

William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 201, 208 - 209; Grégoire le Prêtre, Op. Cit., T.1, p. 164; Du Cange, Op. Cit., p. 300.

(1) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص315؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج9، ص46؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج2، ص302 – 303؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج1، ص520 – 521.

انظر أيضاً: William of Tyre, Op. Cit., p. 212.

ولمزيد من التفاصيل عن كيفية استرداد المسلمين لمنطقة المعاقل الفراتية انظر: محمد محمد فرحات: معاقل أعالي الفرات بين المسلمين والصليبيين، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، إسكندرية 1988، ص220 – 225.

(2) لعل سبب تأييد الكنيسة للملكة ميليسند يرجع إلى ما كانت تقدمه الملكة من منح وهبات لها. عن ذلك انظر: Regesta, docs. 50, 65, 68.

كما عينت أنصارها فى الوظائف الملكية العليا ، وكان على رأس هؤلاء مناسس أوف هيرجس Manasses of Hierges كونستابل المملكة الذى كان مكروهاً لسوء سمعته وأعماله[1] ، وكذلك فيليب أوف ميللى Philip of Milly سيد نابلس وغيرهما من النبلاء . وأخذ كل من الملك والملكة يضع ميزانية خاصة به ، كما انقسم ديوان المملكة بينهما ، فأصبح لكل منهما موظفين خاصين به .

وبلغ الوضع من التفاقم درجة أن الملك بلدوين عندما اضطر للتوجه شمالاً بعد أسر جوسلين الثانى 1150م استدعى نبلاء المملكة للاشتراك معه فى الحملة العسكرية إلا أن أتباع الملكة من الأمراء رفضوا تلبية دعوته بحجة أنه ليس سيدهم على الرغم من أن الملك قد أقدم على خطوة غير معهودة بأن دعاهم إلى ذلك كتابياً ، والهدف من ذلك كان واضحاً ويتمثل فى الحيلولة دون ممارسة الملك لحقه الشرعى باعتباره حامى الدويلات الصليبية مما جعل الوضع يسير سريعاً نحو التدهور وتقسيم الدولة[2].

وإزاء هذا الوضع المتدهور ، تدخل عدد من الوسطاء لإصلاح ذات البين ورأب الصدع الذى ألم بالمملكة ، وقدموا عدة اقتراحات منها

---

(1) هو ابن عم بلدوين الثانى ، وقد وصل الشرق عام 1140م ، ومنحته الملكة ميليسند منصب الكونستابل .

ولمزيد من التفاصيل عن حياته وسوء سمعته انظر :

William of Tyre, Op. Cit., p. 204; Regesta, doc. 240, 245, 259, 262, 269; Du Cange, Op. Cit., pp. 544-45, 619; Les Lignages d'Outre-mer, cf. Assises de Jerusalem, T. II, Paris, 1843, pp. 470 - 710.

(2) William of Tyre, Op. Cit., p. 205;Cf.also.Phillips J,Defenders of The Holy Land ,OxFord 1996,PP.98,103.

انظر أيضاً : ماير : تاريخ الحروب الصليبية، ص166.

تقسيم المملكة بين الملك والملكة على أن يأخذ الملك مدينتي صور وعكا وتوابعهما في حين تحتفظ الملكة ببيت المقدس ونابلس، ووافق الطرفان على هذا العرض، كما اتفقا على إعادة تتويج كل منهما مرة أخرى في عيد الفصح . ولكن نتيجة لتحريض النبلاء عدل الملك بلدوين عن الرأي الأخير لكي لا تتوج والدته معه، وأرجأ ميعاد التتويج إلى ميعاد لاحق، ثم أجبر بطريرك القدس على تتويجه بمفرده[1]، وكان هذا بمثابة إعلان للحرب.

على أي حال، لم يمض أكثر من ثلاثة أسابيع على تقسيم المملكة حتى اتخذ الملك بلدوين خطوات عملية نحو انتزاع ما تحت يدي والدته من إقطاعات، بل وإقصائها تماماً عن الحكم، فحشد جيشاً وباغت مناسس أوف هيرجس كونستبل المملكة في قلعة مرابل[2]، وأجبره على الاستسلام، ثم زحف إلى مدينة نابلس التي غادرتها والدته بعد أن عهدت بها إلى فيليب أوف ميللي وأسرعت هي إلى بيت المقدس وعملت على تحصينها والدفاع عنها. وتمكن الملك بلدوين فور وصوله إلى نابلس من انتزاعها ولم يضيع وقتاً بل تقدم صوب بيت المقدس ملاحقاً والدته التي تحصنت في قلعة المدينة عند سماعها بتقدم ابنها نحوها، وعند وصول بلدوين إلى هناك قام الأهالي بفتح بوابات المدينة أمامه فدخلها ثم ألقى الحصار على القلعة، ونظراً لقلة عدد أتباع الملكة اضطرت إلى الاستسلام بعد عدة أيام، وبذا نجح الملك بلدوين الثالث في قهر أمه وإجبارها على التخلي عن الحكم ومنحها فقط مدينة نابلس

---

(1) William of Tyre, Op. Cit., Loc. Cit.

(2) قلعة مرابل: هي مجدل يابا الحالية، وتقع شمال شرق مدينة يافا. انظر :
King, E., The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931 p. 49.

كإقطاع تقيم فيه، وتعهد بعدم التحرش بها أو التعرض لممتلكاتها في نابلس طوال حياتها، وانفرد هو بحكم المملكة بأكملها وذلك في 1152م[1].

مما سبق يتضح لنا أن الملكة ميليسند كانت المسئولة الأولى عن نشوب تلك الحروب الأهلية، فرغم بلوغ ابنها سن الرشد منذ وقت غير قليل إلا أنها أصرت في عناد على البقاء في الحكم بغض النظر عما يترتب عليه من نتائج، ولعل تصرفات الملكة هذه دفعت الكثير من النبلاء إلى الانحياز إلى ابنها، كما فضل عامة الشعب بلدوين الثالث عليها، والدليل على ذلك قيام أهالي بيت المقدس بفتح أبواب مدينتهم أمام الملك لدى وصوله إليها، ولو أنهم كانوا على قناعة بأهلية الملكة في الحكم لاستماتوا في الدفاع عنها وما فتحوا أبواب المدينة للملك بلدوين طواعية.

ومهما يكن من أمر، فإنه يمكننا القول بأن الفترة التي قضتها الملكة ميليسند من 1143- 1152م كانت فترة حكم مشتركة مع ابنها بلدوين الثالث أكثر منها وصاية عليه، ويتضح ذلك جلياً من خلال الوثائق الملكية، فقد صدرت في تلك الفترة اثني عشر وثيقة، أربعة منها صدرت عن الملكة ميليسند بمفردها[2]، واثنتان

(1) William of Tyre, Op. Cit., pp. 206 - 7; Cf. also, Marshall W. Baldwin, The Latin States under Baldwin III and Amalric I, 1143 - 1174, in Setton, Vol. I, p.534; Phillips,Op.Cit,P.125 .

(2) صدرت الأولى في عام 1150م والثانية والثالثة صدرتا في عام 1151م أما الرابعة فقد صدرت في عام 1152م. انظر :

Comte de Marsy, Op. Cit., in A.O.L., II, p. 129; Regesta, doc. 259,268,269,278.

أصدرهما الملك بلدوين بمفرده[1]، وأربع وثائق صدرت عن الملكة وابنها معها[2]، والأخيرتان صدرتا بموافقة الملك بلدوين[3]، وإن الوثائق التي أصدرتها الملكة ميليسند بمفردها كانت في تاريخ متأخر عن تلك التي أصدرها الملك بلدوين، وآخر وثيقة صدرت عنهما معاً كانت في عام 1150م، بينما صدرت الوثائق الأربع عن ميليسند وحدها فيما بين عامي 1150 ، 1152. وهذا يوضح لنا أن الملكة ميليسند كانت حتى سنة 1152 تمارس نفوذاً قوياً بالمملكة، الأمر الذي لم يتحمله الملك بلدوين، ولا غرو أن طموح الملكة للحكم والسيطرة هو الذي أدى بالمملكة إلى أن تصل إلى ما وصلت إليه وهذه حقيقة أكدتها المصادر المعاصرة، فيذكر وليم الصوري أن الملكة ميليسند والدة الملك كانت امرأة عظيمة الحكمة، وذات خبرة كبيرة جداً في كل الأمور المدنية، وكانت قد سمت كثيراً فوق المنزلة العادية للمرأة إلى درجة أنها أقدمت على اتخاذ إجراءات هامة، وكانت تطمح لأن تنافس روعة أعظم الملوك وأنبلهم، ولتظهر نفسها بكل وسيلة بأنها ليست أقل منزلة منهم[4]. ويستشف من العبارة السابقة أن الملكة كانت متفوقة في الشئون المدنية ولكنها لم تظهر مثل ذلك في باقي شئون المملكة سياسية وعسكرية

---

(1) صدرت الوثيقة الأولى في عام 1144م. انظر: Regesta, doc. 226.
أما الثانية فقد صدرت في عام 1150م.
Comte de Marsy, Op. Cit., in A.O.L., II, p. 128; Regesta, doc. 258.

(2) صدرت الأولى في عام 1144م أما الثانية فقد صدرت في عام 1146م، أما الثالثة والرابعة فقد صدرتا في عام 1147م، انظر
Comte de Marsy, Op. Cit., in A.O.L., II, p. 124 - 25; Regesta, doc. 227, 240, 224, 245.

(3) الأولى صدرت عام 1149م والثانية صدرت عام 1150م. انظر :
Regesta, doc. 250, 262.

(4) William of Tyre, Op. Cit., p. 139.

وغيرها.. خاصة وأن صليبيى الشرق كانوا يمرون بفترة من أدق الفترات فى تاريخهم فتزايد قوة المسلمين واتحادهم ومحاولة استعادة الأباطرة البيزنطيين لنفوذهم فى الشرق كان يتطلب بلا شك قيادة لها من الخبرة السياسية والحنكة العسكرية ما تستطيع به الإمساك بدفة البلاد والوصول بها إلى بر الأمان وسط تلك الأخطار المحدقة، وهذه صفات لم يؤكد على وجودها المؤرخ وليم الصورى لدى الملكة ميليسند.

فقلة الخبرة السياسية والعسكرية لديها، بالمقارنة بابنها الملك بلدوين، واقع لا تجنّى فيه . وآية ذلك أنه لم يمض على إقصائها عن الحكم أكثر من عام حتى تمكن ابنها الشاب من تحقيق ما فشل فى تحقيق أسلافه لأكثر من نصف قرن من الزمان تقريباً ؛ فقد نجح فى 19 أغسطس 1153م فى الاستيلاء على مدينة عسقلان الإسلامية بما لها من مكانة استراتيجية[1]، والتى اتخذها الفاطميون قاعدة لشن هجماتهم البرية والبحرية على الموانى الصليبية، ولم تقتصر خبرة الملك بلدوين على الناحية العسكرية والسياسية فحسب، بل كان دبلوماسياً ماهراً ؛ ففى الوقت الذى عملت فيه أمه قبل ذلك على بذر بذور الشقاق بينه وبين أخيه عمورى، ووقف الاثنان يحاربان بعضهما البعض نجده بعد أن أمسك بزمام المملكة يعمل على استقطاب أخيه وجذبه إلى جانبه؛ بل كان من الذكاء بحيث أنه لم يُعدْ إليه حكم كونتية يافا - التى خسرها فى أثناء الحرب الأهلية فى عام 1152م - فحسب، بل أسند إليه حكم مدينة عسقلان بعد انتزاعها من أيدى المسلمين، وهذا يوضح

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن حصار الصليبيين لعسقلان وكيفية الاستيلاء عليها انظر :
William of Tyre, Op. Cit., pp. 217 - 231.

انظر أيضاً :ابن الأثير : المصدر السابق، ج9، ص42.

انظر أيضاً: Holt,op.cit.,PP.44,46.

مدى ما كان يتمتع به الملك بلدوين من حكمة وذكاء، والعمل على لَمّ شعث الصليبيين واتحادهم [1].

ومهما يكن من أمر، فقد تقلص نفوذ الملكة ميليسند إلى درجة كبيرة بعد عام 1152، ويتضح ذلك من خلال الوثائق، فلم تصدر سوى أربع وثائق فقط في الفترة بين إقصائها عن العرش ووفاتها 1161م، وقد تضمنت جميعها موافقة الملك بلدوين الثالث عليها [2]، في حين أضاف الملك اسمها في وثائقه ولكن بصفة غير منتظمة [3]. وقد كرست الملكة ميليسند اهتمامها فيما تبقى لها من عمر بالاهتمام بالناحية الدينية وأعمال التقى والورع فوهبت العطايا والمنح للأديرة المختلفة، كما شيدت العديد من الكنائس وأوقفت عليها الأوقاف الكثيرة، ومارست نوعًا من السلطة خاصة في تعيين الأساقفة ورجال الدين، وفي سبتمبر 1161م قضت الملكة ميليسند نحبها بعد مرض طويل [4] ليسدل الستار على واحدة من أهم ملكات بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي.

---

(1) William of Tyre, Op. Cit., pp. 233 - 34; cf. also, Steven Tibble, Monarchy and Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem, p.87; La Monte, Op. Cit., p. 18.

(2) صدرت الوثيقة الأولى عام 1155م. في حين صدرت الوثائق الثلاثة الأخرى في الفترة من 1159 – 1160م. انظر: Regesta, doc. 313, 338, 350.

(3) أصدر الملك بلدوين منذ 1152م وحتى وفاته 1162م عشرين وثيقة تضمنت خمس منها موافقة الملكة ميليسند، وعن هذه الوثائق الخمس انظر:

Regesta, docs. 293, 306, 321, 322, 325.

(4) لمزيد من التفاصيل عن أعمال الملكة ميليسند الدينية انظر

William of Tyre, op. cit., pp.132, 271, 291; Regesta, docs. 106, 107; Cf. also, Martin, Les premiers princes croisés et les syriens jacobites de Jérusalem, in J.A., 1888, ii, p. 471.

أما إذا انتقلنا إلى الحديث عن الأميرتين هوديرنا وإيفيت، فإن المصادر المتاحة لم تقدم لنا مادة كافية تشفي غلة الباحث، بل اكتفت بإشارات قليلة عنهما، فقد أشارت المصادر إلى أن الأميرة هوديرنا تزوجت من ريموند الثاني كونت طرابلس 1138م[1] الذي شغف بها حباً وكان منصرفاً إليها بكل جوارح الغيرة، وأنجبت منه طفلين هما ريموند الثالث Raymond III وميليسند، ويبدو من خلال ما كتبته المصادر أنها لم تكن على وئام مع زوجها، ولم تكن حياتها الزوجية سعيدة، كانت هوديرنا - كشأن أختيها ميليسند وأليس- عنيدة طروب؛ لذا فكثيراً ما نشبت الخلافات بينهما، ودارت همسات الريبة حول شرعية ابنتها ميليسند، مما دفع ريموند في غيرته عليها إلى محاولة حبسها في عزلة على النمط الشرقي، وإزاء تدهور العلاقة بين الزوجين استلزم الأمر تدخل الملك بلدوين الثالث والملكة ميليسند لفض النزاع بينهما[2]، فذهبا إلى طرابلس ولم يتمكنا من تسوية الخلاف بينهما[3]، واقترح على ريموند أن تقضي هوديرنا فترة استجمام

---

(1) تولى ريموند الثاني حكم طرابلس خلفاً لأبيه بونز 1137 – 1152م، ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته وحياته وأعماله انظر :

William of Tyre, op. cit., pp. 82, 83, 85, 91.

انظر أيضاً : ابن القلانسي: المصدر السابق، ص158؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص357 – 358؛ ابن الفرات: المصدر السابق، المجلد الثاني، ص229 – 230.

(2) William of Tyre, op. cit., p. 214.

انظر أيضاً : أسامة زكي زيد : الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية (القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، 1980، ص224.

(3) William of Tyre, op. cit., Loc. Cit.

السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص156 – 157.

فى بيت المقدس فوافق على ذلك واصطحب زوجته والملكة ميليسند فى رحلتهما إلى بيت المقدس مسافة ميل أو ميلين، وفى طريق عودته وثب عليه جماعة من الباطنية عند البوابة الجنوبية للمدينة فقتلوه ولاذوا بالفرار[1].

ولما علم الملك بلدوين بهذا الأمر – وكان حينئذ فى طرابلس يستعد للدفاع عنها ضد هجوم نور الدين المرتقب – استدعى على الفور الأميرة هوديرنا إلى طرابلس ثانية وجعل الأمراء يحلفون لها يمين الولاء، وتولت الوصاية على ابنها ريموند الثالث الذى لم يتجاوز عمره آنذاك الثانية عشر[2].

إن مقتل ريموند الثانى فى هذا التوقيت أمر يدعو إلى التساؤل: لماذا قُتل؟ وما هى الدوافع التى أدت إلى قتله ؟ ومن كان وراء هذه الجريمة ؟

من الثابت أن الباطنية هم الذين نفذوا عملية القتل . هذا أمر معروف . ولكن من غير المعروف أن ريموند الثانى كانت له علاقة بالباطنية أثناء فترة حكمه أو أنه كان له موقف معاد لهم يدفعهم للثأر منه . لذلك فإن أصابع الاتهام تشير إلى تورط الكونتيسة هوديرنا فى

---

(1) Idem; Cf. also, Marshall W. Baldwin, op. cit., p. 535.

وقد ذكر روجر أوف وندوفر أن مقتل ريموند الثانى وقع سنة 1159م وهذا خطأ وقع فيه المؤلف.

Roger of Wendover, op. cit., vol. II, p. 503.

(2) William of Tyre, op. cit., pp. 214 - 15; Cf. also, Marshall W. Baldwin, op. cit., p. 536.

ولمزيد من التفاصيل عن النتائج التى ترتبت على مقتل ريموند الثانى بالنسبة للصليبيين والمسلمين انظر: أسامة زكى زيد : المرجع السابق، ص225.

تلك المؤامرة . حقيقة إنه ليس هناك من دليل قاطع على تورطها ، ولكن هناك دوافع يمكن أن تؤدى بها إلى فعل ذلك، فالخلافات المستمرة بينها وبين زوجها، وارتيابه فى شرعية ابنته ميليسند منها ، ربما تدفعها للتخلص منه . أضف إلى ذلك تورطها مع أختها وزوجها فى التخلص من ألفونسو جوردان سابقة يمكن أن تتكرر . هذا فضلاً عن طموحها الشديد للحكم والسيطرة مثلها فى ذلك مثل باقى أخواتها . وأخيراً فإن فشل الملكة ميليسند فى تسوية الخلاف بين ريموند الثانى وأختها، وخروج الأخيرة مغاضبة معها إلى بيت المقدس لا يخلو من الريبة والشك . لكل هذه الدوافع يمكننا القول إن هوديرنا كانت متورطة فى مؤامرة قتل زوجها ريموند الثانى .

ومهما يكن من أمر، فقد ظلت هوديرنا وصية على ابنها ريموند الثالث حتى بلغ سن الرشد، وعندها تخلت عن الوصاية وأصبح ابنها الأمير الفعلى للكونتية . ولعل ما حدث من خلاف بين أختها الملكة ميليسند وابنها بلدوين الثالث وما نشب بينهما من حروب أقنعها بعدم الاقتداء بها فنجدها تتنازل طواعية عن الحكم لابنها دون معارضة . ولم تُشِرْ المصادر بعد ذلك إلى أى دور سياسى لها بقية حياتها .

أما الأخت الصغرى إيفيت، فقد ولدت 1119م أثناء فترة تولى أبيها عرش بيت المقدس وفى سن الخامسة سلمتها أمها الأميرة مورفيا كرهينة لدى الأمير تمرتاش فى مقابل إطلاق سراح زوجها ودفع الفدية المطلوبة لذلك[1]. وعلى إثر انتصار بلدوين الثانى على البرسقى فى

---

(1) تمكن الأمير بلك بن بهرام الأرتقى من أسر الملك بلدوين الثانى عام 1123م، وبعد مقتل بلك انتقل الملك بلدوين إلى أيدى تمرتاش الذى وافق على إطلاق سراحه مقابل مبلغ كبير من المال وتنازله عن مدينة عزاز .

معركة عزاز 1125م حصل الملك بلدوين على غنائم كثيرة مكنته من دفع فديته وإطلاق سراح ابنته وباقى الرهائن[1].

أما فيما يتعلق بطموح إيفيت Iveta للحكم، فنجدها تخالف أخواتها فى هذه الأمر؛ إذ تجنبت تماماً الحياة السياسية ومعتركها، وفضلت أن تنخرط فى سلك الرهبانية وتقضى حياتها فى الزهد والورع. وقد أنشأت الملكة ميليسند لأختها ديراً فى بيت عنيا يعتبر من أثرى أديرة فلسطين؛ حيث أوقفت عليه أوقافًا كثيرة[2]. وحتى لا تظهر الملكة ميليسند أنها فعلت ذلك من أجل أختها، أسندت رئاسة الدير فى البداية لراهبة طاعنة فى السن، لم تلبث طويلاً حتى ماتت وانتخبت الراهبات الأميرة إيفيت لتكون رئيسة لهذا الدير بعد موافقة البطريرك على ذلك، فظلت به حتى وفاتها فى 1178م[3].

ولمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث، انظر:

Fulcher of Charter, op. cit., p. 237; William of Tyre, op. cit., Vol. I, pp. 540 - 41; Matthieu d'Edesse, op. cit., pp. 132 - 33

انظر أيضاً: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص29؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص304

(1) لمزيد من التفاصيل عن معركة عزاز وما ترتب عليها من نتائج انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص210؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص318؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج2، ص231 – 232.

انظر أيضاً:

Fulcher of Charter, op. cit., p. 279; William of Tyre, op. cit., Vol. II, pp. 24 - 25; Matthieu d'Edesse, op. cit., T. I, p. 143 - 45.

(2) بيت عنيا: قرية تقع بالقرب من بيت المقدس، أسست بها الملكة ميليسند ديراً أطلق عليه دير بيثاني. عن ذلك انظر:

William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 132.

(3) William of Tyre, Op. Cit., Loc. Cit.

انظر أيضاً: ماير: المرجع السابق، ص137

من العرض السابق يتضح لنا أن بنات الملك بلدوين الثانى قد لعبن دوراً هاماً على مسرح الأحداث السياسية فى منطقة الشرق الأدنى إبان الفترة موضوع الدراسة، وكان لهن طموح شديد نحو الحكم والسيطرة، وقد سعين إلى تحقيق ذلك بشتى الطرق الشرعية وغير الشرعية، وساعدهن على ذلك عدة عوامل لعل من أهمها أصلهن النبيل ؛ فهن بنات ملك بيت المقدس الذى كانت له شهرة عظيمة ليس فى الشرق اللاتينى فحسب، بل فى الغرب الأوربى والشرق الإسلامى كذلك. ولعل عدم وجود شقيق ذكر لهن قد قرّبهن أكثر من الاحتكاك بالحياة السياسية أثناء وجودهن فى معية أبيهن كأمير للرها أو كملك لبيت المقدس، كما أن والدتهن الأميرة مورفيا قد شاركت زوجها فى تصريف شئون المملكة، ولاشك أن بناتها قد تأثرن بها كثيراً، وقد ازدادت رغبتهن أكثر للحكم والسيطرة بعد زواجهن، نظراً لضعف أزواجهن أمام سطوتهن ؛ إذ كانوا لا يعصون لهن أمراً، فكان أقصى ما يصبون إليه أن ينالوا الحظوة لديهن، وعندما أتيحت لهن فرصة ممارسة الحكم عملن ما فى وسعهن لتثبيت أقدامهن، ولو كان ذلك على حساب أقرب الناس إليهن فلم يتورعن عن هضم حقوق أبنائهن أو الاستغاثة بالمسلمين والبيزنطيين أعداء الصليبيين أو حتى التورط فى جرائم القتل وغير ذلك مما جرَّ عليهن سخط العديد من الصليبيين سواء كانوا من الطبقة الأرستقراطية أو من عامة الشعب.

والسؤال الذى يطرح نفسه: هل نجحت بنات الملك بلدوين الثانى بعد وصولهن للحكم فى خدمة القضية الصليبية ؟

الحقيقة أنهن لم يعملن مطلقاً لخدمة الصالح الصليبى العام، بل اقتصر طموحهن على تحقيق مصالحهن الشخصية ولو كانت تتعارض

مع الصالح العام. كما لم يتقبل عدد كبير من النبلاء والأمراء سيادتهن عليهم إما اعتقاداً منهم بعدم قدرتهن على الإمساك بدفة الحكم أو ربما تأثراً بعادات الشرق الإسلامي في ذاك الوقت - وكثيراً ما تأثروا بها - والتي لم تكن تسمح للنساء بتقلد الحكم، هذا فضلاً عن أن الظرف التاريخي في تلك الفترة لم يساعدهن على الاستمرار في سدة الحكم نظرًا لأن الصليبيين كانوا دائماً في حروب تتطلب ممن يمسك بزمام البلاد أن يكون صاحب خبرة عسكرية كبيرة تمكنه من قيادة الجيوش بنفسه وخوض غمار المعارك وهذا ما لم يتوفر في بنات الملك بلدوين كما أن الكوارث والنكبات أخذت تترى على صليبيي الشرق أثناء فترة حكمهن، فقلت فرصتهن في إثبات قدرتهن على الحكم. ومع ذلك فإن فشلهن الواحدة تلو الأخرى في تحقيق أهدافهن لا يعني أنهن لم يتركن أثرًا كبيرًا في تاريخ الشرق اللاتيني، بل يمكننا القول إنهن لعبن دوراً هاماً لا يمكن إغفاله، وأثرن كثيراً في مجرى الأحداث السياسية في المنطقة إبان القرن الثاني عشر الميلادي.

الفصل الثالث

تمرد الأميرة اليس في أنطاكية

1130 – 1136 م

لأن يتمرد الرجال ويشهرون السلاح في وجه السلطة فهذا شيء وارد، وأن يقع ذلك في العصر الحديث، خاصة في ظل الثورة التكنولوجية والمعلوماتية فهذا أيضاً أمر متوقع ولكن أن تتمرد النساء ويلجأن إلى القوة العسكرية وتحكيم السلاح فهذا شيء غير طبيعي، وإن يحدث ذلك في العصور الوسطى فهذا لعمري أمر عجيب إن لم يكن غريب، خاصة إذا علمنا أن دور المرأة في تلك العصور كان متواضعاً خاصة في المجال السياسي، سواء كان ذلك في الشرق أو في الغرب على حد سواء. حقيقة إننا سمعنا عن نساء متآمرات ونساء شاركن في التخطيط لاغتيالات سياسية وغير سياسية [1]، ولكننا لم نسمع عن نساء قمن بتمرد مسلح. ولكن يبدو أن الأميرة أليس كانت مثالاً فريداً للمرأة المتمردة التي حطمت أعراف وتقاليد العصر وكان لديها من الجرأة والإقدام ما جعلها تتمرد على السلطة الشرعية ولو كانت تلك السلطة ممثلة في والدها أو أحد أقربائها. فمن هي تلك المرأة؟ وما الأسباب التي دفعتها إلى التمرد؟ وكيف انتهى تمردها؟ وما النتائج التي تمخضت عنه؟ هذا ما سنحاول التعرف عليه في الصفحات التالية.

---

(1) ومن أمثلة تلك السيدات الإمبراطورة ثيوفانو Theophano زوجة الإمبراطور رومانوس الثاني (959 – 963م) التي أوعزت له بدس السم لأبيه الإمبراطور قسطنطين السابع، كما دبرت مؤامرات للتخلص من زوجيها رومانوس الثاني سنة 963م، ونقفور فوقاس سنة 969. عن ذلك انظر: يحيى بن سعيد الأنطاكي: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، نشره لويس شيخو، بيروت، 1909، ص 136 انظر أيضاً: سيد الناصري: الروم والمشرق العربي، مركز النشر لجامعة القاهرة، القاهرة، 1993، ص 321.

الأميرة اليس Alice هي الإبنة الثانية لبلدوين أوف بورج Baldwin of Borge ملك بيت المقدس (1118 – 1131م)، ووالدتها هي الأميرة مورفيا Morphia ابنة الأمير جبرائيل Gabriel أمير ملطية العاصمة الثانية لأرمينيا [1]، وهي بذلك ليست فرنجية خالصة بل فرنجية أرمينية، أو بمعنى آخر أن دماءها نصف أرمينية .

ولدت الأميرة أليس أثناء حكم أبيها لإمارة الرها (1100 – 1118م) [2] ثم انتقلت مع الأسرة إلى بيت المقدس عندما تقلد والدها حكم المملكة الصليبية سنة 1118م . وقد احرزت أليس قصب السبق على أخواتها في الزواج، حيث تزوجت من الأمير بوهيمند الثاني Bohemond II أمير انطاكية 1126 – 1130م عندما وصل إلى الشرق مطالباً بارث والده سنة 1126م، فرحّب به الملك بلدوين ورد عليه إقطاعية انطاكية كاملة، ثم زوجه من ابنته أليس في العام التالي 1127م [3] .

(1) William of Tyre, op. cit., p.450 ;A.S.C., p 75.

(2) لمزيد من التفاصيل عن تولي بلدوين أوف بورج حكم الرها راجع :
Fulcher of Charters, op. cit., pp.27, 137; Mathieu d'Edesse, op. cit., p. 52.

انظر أيضاً : علية عبد السميع الجنزوري : إمارة الرها الصليبية : القاهرة 1975، ص87– 93.

(3) وبوهيمند الثاني هو ابن بوهيمند الأول ، وأمه كونستانس ابنة فيليب ملك فرنسا، وكان عمره عندما وصل إلى الشرق ثمانية عشرة عاماً ، وكان أقرب إلى الطول وعلى قدر كبير من الوسامة ، لبقاً في حديثه . ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته وأهم أعماله في انطاكية انظر :
Walter The Chancellor's , op. cit., p. 192; Bar Hebraeus , op. cit., p.253 .

ورغم ما كان عليه بوهيمند من فتوة وشجاعة إلا أن المنية لم تمهله ؛ إذ سرعان ما لقي حتفه في حربه ضد الأتراك الدانشمند عند زعبان، فبراير 1130م، وهو لا يزال في مقتبل العمر، لتصبح أليس أرملة وهي في ريعان شبابها.[1]

كان لبوهيمند عند وفاته ابنة واحدة من زوجته أليس تدعى كونستانس Constance في نحو الثالثة من عمرها تقريباً، ولما كانت هي الإبنة الوحيدة أصبح لها حق إرث أبيها، ونظراً لأنها كانت قاصرة كان من حق الملك بلدوين - بوصفه السيد الإقطاعي الأعلى - أن ينظم شئون وصايتها، إلا أن ابنته أليس لم تنتظر وصوله إلى أنطاكية، كما لم تُعْطِ لغيرها فرصة للتدخل، وأعلنت نفسها الوصية على ابنتها، مما يكشف لنا عن شخصية تلك الأميرة وطموحها إلى الحكم والسيطرة.

عملت الأميرة أليس منذ الوهلة الأولى لوصايتها على تثبيت أقدامها في الحكم، والعمل بشتى الطرق على الاستئثار به وإن كان ذلك على حساب حقوق ابنتها كونستانس أو غيرها من الأمراء، الأمر الذي أثار ضدها حفيظة العديد من الأمراء الفرنج الذين طلبوا من الملك بلدوين ضرورة التدخل في هذا الأمر[2].

---

(1) Walter The Chancellor's ,Op.Cit., Loc . Cit ; J. Kinnamos , op. cit., p. 22 ; Michel le Syrien, op. cit., p.230.

أشار المؤرخ وليم الصوري خطأ أن رضوان أمير حلب هو الذي قتل بوهيمند ، إذ من المعروف أن رضوان مات قبل ذلك بكثير في 1114م .

عن ذلك انظر :

William of Tyre, Op . Cit., Vol . 2 , pp. 22- 23.

وعن موقع مدينة زعبان ومناطق نفوذ الدانشمند انظر خريطة رقم (1) .

(2) William of Tyre, Ibid., p. 53; Michel le Syrien , Op. Cit., p.230; cf. Also; Alfred Duggan , op. cit., pp.99- 100 .

ولما علمت الأميرة أليس بما يدبره لها مناوؤها عملت جاهدة على استقطاب قوة كبيرة تكون لها خير عون وتضمن لها بقاءها في الحكم، فوجدت ضالتها في الأمير عماد الدين زنكي . فأرسلت إليه رسولاً تعرض عليه ولاءها في مقابل أن يضمن لها استقلالها بإمارة أنطاكية وحمايتها من أعدائها . ولسوء حظها انكشف مخططها عندما وقع رسولها في أيدي رجال الملك بلدوين، الذي أسرع من بيت المقدس شمالاً صوب أنطاكية ليعيد الأمور إلى نصابها؛ فأسقط في يدها ولم تجد أمامها سوى إعلان العصيان، فقامت بإغلاق بوابات المدينة في وجه أبيها ، واستعدت للمقاومة، وكانت تعتمد في المقام الأول على ولاء المسيحيين الوطنيين من الأرمن وغيرهم - حيث كانت دماؤها نصف أرمينية كما سبقت الإشارة - وكذلك على ما كانت تنفقه من أموال من خزائن إمارتها ، ورغم عدم وصول الرسالة إلى عماد الدين زنكي إلا أن هذا الأمر يوضح لنا مدى ما كان لزنكي من نفوذ في المنطقة من جهة ، ويكشف لنا عن مدى رغبة أليس وإصرارها على البقاء في الحكم، ولو كان ذلك بمحالفة المسلمين أعداء الصليبيين التقليديين من جهة أخرى [1].

ومهما يكن من أمر، فقد وصل الملك بلدوين إلى أنطاكية ليجد أبوابها موصدة، فألقى الحصار على المدينة وساعده في ذلك عدد من الأمراء على رأسهم أمير الرها جوسلين الأول أوف كورتناي Joscelin of Cortney (1119 – 1131م). ولم يتمكن الملك من دخول المدينة إلا بعد قيام بعض أمراء أنطاكية الفرنج من العلمانيين وقادة الكهنوت المناوئين لأليس بعصيان أوامرها وفتحوا بوابات مدينتهم أمام الملك وجنوده . ولم تجد أليس أمامها سوى الالتجاء إلى قلعة المدينة

(1) William of Tyre, Op. Cit., p. 53; cf. Also ; Jean Richard, op. cit., p.35.

لتحتمي بها ، ولم تتنازل منها إلا بعد أن ضمن لها الوسطاء الصفح من أبيها الملك بلدوين، الذي أمر بتحديد إقامتها في مدينتي اللاذقية وجبلة اللتين كانتا بائنتها عند زواجها من بوهمند الثاني، ومنحهما لها . وبذا نجح الملك بلدوين في القضاء على تمرد ابنته أليس، ورتب أمور الوصاية وأسندها إلى جوسلين أوف كورتناي أمير الرها لمقدرته وثقته فيه من جهة ، ولقرب أنطاكية من الرها من جهة أخرى، وعاد ثانية إلى بيت المقدس سنة 1130م، ولم يلبث أن مات في العام التالي [1] ولحق به الأمير جوسلين الأول في نفس العام .

وإن كانت الأميرة أليس قد فشلت في محاولتها السابقة للاستئثار بحكم أنطاكية ، وحدّ والدها من طموحها ، فها هي الفرصة تلوح لها من جديد لتحيي آمالها في السيطرة على حكم أنطاكية ، وساعدها على ذلك وفاة أبيها والأمير جوسلين الأول أمير الرها ، كما ساعدتها أختها الملكة ميليسند صاحبة النفوذ القوي والتأثير الكبير على زوجها الملك فولك الأنجوي 1131 - 1143م [2] ، فعادت من منفاها باللاذقية إلى أنطاكية لتتولى بنفسها الوصاية على ابنتها وإدارة شئون البلاد . وإن كانت قد فشلت في محاولتها السابقة في التحالف مع المسلمين فقد اعتمدت في هذه المرة على الأمراء الفرنج، فعمدت إلى جذب بعض من

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن المواجهة بين أليس وأبيها الملك بلدوين ، انظر :
Michel le Syrien , Op. Cit., p. 230 ; Bar Hebraeus, op. cit., p.255 ; cf. also , Rey, op. cit., p.356.

وعن موقع مدينتي اللاذقية وجبلة انظر خريطة رقم (2) .

(2) الجدير بالذكر أن الملكة ميليسند كان لها تأثير كبير على زوجها الملك فولك الذي كان أسير حبها ، فلم يكن يعصى لها أمراً بل كان كل ما يطمع فيه أن يحظى برضائها . ولمزيد من التفاصيل انظر :
William of Tyre , Op. Cit., pp. 74 - 75.

ذوى المكانة إلى الوقوف بجانبها ومناصرتها فى تنفيذ مخططها، ونجحت فى استقطاب الأمير جوسلين الثانى Joscelin II أمير الرها 1131 - 1150م [1]، والأمير بونز Pons أمير طرابلس 1112- 1137م [2]، وغيرهما من الأمراء.

ولكن لماذا استقطبت اليس هذين الأميرين بالذات ؟ ولماذا وافقاها على ذلك ؟ لعل ما اتصف به جوسلين الثانى من ضعف وسوء الأخلاق ومعاقرة للخمر وحبه للملذات هو الذي جعل أليس تستميله، هذا فضلاً عن أن كلا الأميرين - جوسلين وبونز - أغراهما ما تنفقه أليس وما تقدمه من هدايا، هذا من جهة، كما أنهما أرادا أن يطرحا طاعة الملك فولك جانباً، خاصة وأن الأخير لم يكن لديه نفس مقدرة سلفيه بلدوين الأول والثاني، فإذا ما نجحت أليس فى تحقيق مخططها حذا كلاهما حذوها فى الإستقلال وعدم التبعية للملك [3].

---

(1) هو ابن جوسلين الأول، تولى حكم الإمارة بعد وفاة أبيه عام 1131م، وقد وصفته المصادر بأنه كان عربيداً معاقراً للخمر فاسقاً، عاش حياة الركود والدعة وساءت سمعته. ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته انظر:
William of Tyre , Op. Cit., pp. 51- 52 ; Du Cange, op. cit., p.390.

(2) بونز هو ابن برتراند، تولى الحكم بعد أبيه عام 1112م، وقام الأوصياء عليه بإرساله إلى أنطاكية ليتلقى فيها أصول الفروسية ويصبح فارساً، وقد تزوج من أرملة تنكريد. ولمزيد من التفاصيل عن حياته وأعماله، انظر:
Fulcher of Charter, Op. Cit., pp. 227, 28, 35, 36 ; William of Tyre , Op. Cit., Vol. 1 , pp. 492, 501, Vol. 2, pp. 11, 14, 16 ; Cf. also, Runciman, op. cit., p. 125.

(3) والجدير بالذكر أن الأمير بونز قام قبل ذلك بمحاولة للخروج عن تبعية الملك بلدوين الثاني، ولكن محاولته باءت بالفشل عام 1122م. عن ذلك انظر:
Fulcher of Charter, Op. Cit., p. 235 ; William of Tyre , Op. Cit., Vol. 1, p. 539.

على أية حال، أرسل مناوئوا أليس إلى الملك فولك يخبرونه بحقيقة الأمر، وما تدبره أليس من مكائد، وعندما علمت أليس بذلك أخذت تحصن القلاع والأسوار وتستعد لمعركة مرتقبة مع الملك فولك، الذي أسرع بدوره على رأس جيشه متوجهاً صوب أنطاكية[1]، وعندما وصل إلى طرابلس رفض بونز أميرها السماح له بالمرور عبر كونتيته، فاضطر إلى استكمال رحلته بحراً، وعندما وصل إلى ميناء السويدية دخل على الفور في معركة دامية مع حزب أليس المعارض، وتمكن من إنزال الهزيمة به وأجبرهم على الفرار، وكان على رأسهم بونز أمير طرابلس، إلا أن الملك لم يغامر بتعقب الفارين؛ ولعل ذلك يرجع إلى أنه أدرك قلة ما معه من قوات، فضلاً عن أنه لم يرغب في سفك المزيد من دماء الصليبيين، الأمر الذي سينعكس سلباً على قوتهم ككل في المنطقة، فقبل اعتذار بونز وغيره من الأمراء وعفا عنه، كما أنه أجبر أليس على العودة من جديد والإقامة باللاذقية، ثم رتب أمور الإمارة وعاد ثانية إلى بيت المقدس سنة 1132م[2].

انهمك الملك فولك في شئون المملكة ومشاكلها، ولكنه اضطر إلى الذهاب ثانية إلى أنطاكية في 1133م عندما تعرضت الإمارة للهجوم

---

(1) Michel le Syrien , Op. Cit., p232; William of Tyre , Op. Cit., pp. 53- 54 ; Cf. also , La Monte , op. cit., p. 12.

(2) William of Tyre , Op. Cit., Vol. 2, p. 54 ; Michel le Syrien , Op. Cit., Loc. Cit.

ظهر فولك كوصي لأنطاكيا في عدة وثائق . انظر

Rohricht, op. cit., p. 149, 157 .

انظر أيضاً : إسحاق عبيد : روما وبيزنطة ، دار المعارف بمصر 1970م ، ص157- 158.

الإسلامي[1]، وأثناء وجوده بأنطاكية عرض عليه الأمراء فكرة اختيار زوج مناسب للأميرة الصغيرة كونستانس ليتولى شئون الإمارة، ووقع اختيار الملك على الأمير ريموند أوف بواتييه Raymond of Poitier ليكون الزوج المرتقب، إلا أن ريموند لم يصل إلى الشرق حتى عام 1136م[2]. ونظراً لانشغال الملك في الجنوب، فقد انتهزت أليس هذه الفرصة وعادت للظهور من جديد في أنطاكية سنة 1135م، ولم تتوانَ في البحث عن مؤيدين لها فلم تجد سوى البطريرك رادولف 1135-1140م، فتحالفت معه رغم أنه كان مكروهاً من رجال الدين لسوء سمعته وأعماله[3]. ونظراً لرغبتها الجامحة في السيطرة والحكم، وعدم

---

(1) ابن الأثير: المصدر السابق ، ج 8، ص339 ؛ ابن القلانسي : المصدر السابق، ص240 – 241.

انظر أيضاً: William of Tyre , Op. Cit., p 57.

(2) والجدير بالذكر أن الأمير ريموند كان متواجداً في بلاط هنري الأكبر ملك إنجلترا ، وعندما وصلت إليه سفارة الملك فولك والأنطاكيين سرّ لهذا العرض ، وعلى الفور أخذ يعد الترتيبات اللازمة للوصول إلى الشرق . ولما كان روجر الثالث ملك أبوليا على علم باستدعاء ريموند فقد أخذ يعمل جاهداً على الإيقاع به والحيلولة دون وصوله إلى أنطاكية لأنه كان يرى أنه أحق بإرث أنطاكية منه ، لذلك فقد تنكر ريموند في أثناء رحلته تارة على هيئة حاج وأخرى على هيئة خادم حتى تمكن في نهاية الأمر من الوصول إلى الشرق في 1136م .

ولمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث انظر :

William of Tyre , Op. Cit., pp. 77 – 78 ; J. Kinnamos, Op. Cit., pp. 22 - 23.

(3) خلف رالف أو رادولف البطريرك برنارد أوف فالنس Bernard of Valence عام 1135م ، وظل في البطريركية حتى خلفه البطريرك أميري ليموج Amiery of Limoges والذي ظل بطريركاً حتى وفاته من 1140م إلى 1196م .

رغبتها في زواج ابنتها من ريموند أوف بواتييه الذي سيصبح حينئذ الأمير الشرعي للإمارة، وبالتالي ستفقد نفوذها وسيطرتها على الحكم، فقد أقدمت على خطوة غير مسبوقة ؛ إذ عرضت زواج ابنتها من الأمير مانويل Manuel ابن الإمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين John Comnenus (1118 – 1142م)[1] فوافق الأخير على هذا الاقتراح إذ وجد فيه ما كانت بيزنطة تصبو إليه منذ أربعين عاماً ؛ إذ كانت تدعي أحقيتها الشرعية في أنطاكية، ولكنه كان ادعاءً على الورق فقط، أما وقد لاحت هذه الفرصة أمامه، فلم يتردد الإمبراطور يوحنا في الترحيب بتلك الخطوة .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن : هل كانت أليس محقة فيما أقدمت عليه أم كانت مخطئة؟ الحقيقة أن إقدام أليس على زواج ابنتها من الأمير مانويل الذي سيصبح فيما بعد إمبراطور الدولة البيزنطية أفقدها ولاء مؤيديها وحلفائها داخل الإمارة، وعلى رأسهم البطريرك رادولف الذي لم يفكر مطلقاً في أن يتخلى عن منصبه لبطريرك آخر من الأرثوذكس، ولذا تخلى عن مناصرتها وانحاز إلى معارضيها . كما انتهز مناوئوا أليس من الأمراء والنبلاء الفرنج تلك الفرصة ليروجوا الإشاعات حول خيانتها ومطامعها الشخصية وتفريطها في حقوق فرنج أنطاكية خاصة، والقضية الصليبية عامة .

ولعل ما أقدمت عليه أليس من اتصال بالدولة البيزنطية – إن أحسنّا الظن في نواياها – كان ينم عن بعد نظر سياسي ؛ إذ أن موازين القوى في تلك الفترة أخذت تميل لصالح المسلمين، وأصبح عماد الدين

---

(1) J. Kinnamos , Op. Cit., pp. 22 – 23 ; cf. also, Rey , Op. Cit., (R.O.L.), pp. 358 – 5 9; Lilie , op. cit., p.103.

زنكي قوة لها وزنها في المنطقة ، هذا من جهة ، كما أن أحوال الصليبيين بصفة عامة لم تكن مستقرة ولم يكن لديهم من القوة ما يمكنهم من التصدي لقوة الزنكيين المتنامية ، لذا تصبح المصاهرة المرتقبة مع بيزنطة والتحالف معها خير ضمان لفرنج أنطاكية خاصة والصليبيين عامة ، إذ كان بوسع بيزنطة بما لديها من قوة أن تقف ضد طموح عماد الدين زنكي بالمنطقة ، حقيقة إن في هذا الأمر تقوية للنفوذ البيزنطي على حساب الصليبيين ، إلا أن المصلحة العليا للعالم المسيحي كانت تقضي بأن يتم مثل هذا التحالف إذا ما أرادوا ترسيخ أقدامهم في الشرق ، خاصة وأن الصليبيين لم يترددوا بعد ذلك في محالفة البيزنطيين ومصاهرتهم ، بل وأقروا بأحقية بيزنطة في حكم أنطاكية ، واعترف ريموند أوف بواتييه - بعد استشارة الملك فولك بذلك - بل أقرَّ بأنه فصل من أفصال الإمبراطور [1] .

انزعج صليبيو أنطاكية لما تدبره أليس ، وأرسلوا إلى الملك فولك يلحون عليه بضرورة الإسراع بزواج الأميرة كونستانس ، ولحسن الطالع أن الأمير ريموند أوف بواتييه وصل إلى أنطاكية في 1136م . ولكي يتجنب البطريرك والأمير ريموند معارضة أليس ، أوهمها البطريرك أن الأمير ريموند إنما جاء للزواج منها وليس من ابنتها ذات التسعة أعوام . لذلك

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث ، انظر :

J. Kinnamos, Op. Cit.,p.23 ;William of Tyre , Op. Cit., pp. 83 – 84 , 92 - 93.

وعن أحقية بيزنطة في حكم أنطاكية راجع الدراسة القيمة التي أعدها د. رأفت عبد الحميد تحت عنوان قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى 1998م ، ص100– 101، 103، 106.

انخدعت أليس في وعود البطريرك وبقيت في قصرها تنتظر قدوم الأمير ريموند للزواج منها ، وفي الوقت نفسه قام البطريرك بتدبير من يختطف الأميرة كونستانس ويأتي بها إلى كاتدرائية المدينة ، وبينما كانت الفتاة الصغيرة تتساءل مندهشة عن سبب وجودها في الكنيسة ، قام البطريرك رادولف بعقد زواجها على الأمير ريموند ليصبح الأخير صاحب الحق الشرعي في إدارة شئون الإمارة 1136- 1149م [1]. وفوجئت اليس بالأمر ولم يكن بوسعها القيام بأي شيء ، نظراً لأن القانون الإقطاعي يعطي الحق لزوج الوريثة في أن يصبح سيد الإقطاع . وبذا خُدعت أليس وضاع حلمها في الزواج من ريموند ، كما قضى على آمالها في الاستمرار في حكم الإمارة ، ولم تجد أمامها من سبيل سوى الإنزواء على نفسها باللاذقية لتقضي ما تبقى من عمرها الذي لم يطل بها ، وتموت هناك كمداً دون أن تحقق ما أرادت [2] .

إن كانت الأميرة أليس قد فشلت في تحقيق أهدافها ، فإن الدولة البيزنطية لم تكن لترضى عما حدث . فقد ساء الإمبراطور يوحنا أن يفشل مشروع المصاهرة بينه وبين أليس ، وأبدى معارضة شديدة لزواج الأميرة كونستانس من ريموند أوف بواتييه دون استشارته ؛ إذ أوضح أنه

---

(1) أورد لنا المؤرخ وليم الصوري تفاصيل ما جرى منذ لحظة وصول ريموند إلى أنطاكية وحتى زواجه من الأميرة كونستانس والمؤامرة التي حاكها بإتقان أسقف أنطاكية ضد الأميرة أليس . عن ذلك انظر :

William of Tyre , op. cit ., pp. 79 – 80 ; Cf. also , Alfred Duggan , op . cit., pp . 100 – 101 ; Lilie , Op.Cit .,P. 104.

(2) William of Tyre , Op. Cit., p. 80.

انظر أيضاً ؛ ماير: تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د. عماد الدين غانم ، تقديم د. نجاح صلاح الدين القابسي ، منشورات مجمع الفاتح للجامعات 1990م، ص133.

كان لابد من إحاطته علماً وأخذ موافقته على هذا الزواج، على أساس أن أنطاكية كانت جزءاً من ممتلكات الدولة البيزنطية من قبل، وترجم غضبه هذا عملياً ؛ إذ قاد في 1137م حملة عسكرية ضد أنطاكية أرغم فيها الأمير ريموند على الإعتراف بتبعية أنطاكية للدولة البيزنطية وأنه فصل من أفصال الإمبراطور، كما رُفع العلم البيزنطي على قلعة أنطاكية، وأكثر من ذلك اتفق الإمبراطور مع ريموند على القيام في العام التالي بحملة عسكرية ضد المسلمين يكون من أهدافها انتزاع حلب وحمص وحماة وشيزر من أيدي المسلمين ومنحها إلى ريموند في مقابل تنازل الأخير من أنطاكية للإمبراطور (1).

والجدير بالذكر أن ريموند لم يوافق على كل ما سبق إلا بعد استشارة الملك فولك، ويقال إن الملكة ميليسند هي التي أوعزت إلى زوجها

(1) لمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث انظر :

William of Tyre , Op. Cit ., pp. 83 – 84 , 92 – 93 ; J. Kinnamos , Op. Cit., p.23.

في حين ذكرت المصادر العربية « أن القساوسة والرهبان هم الذين سارعوا بطلب النجدة من بلاد الروم والفرنج – بعد هزيمة الصليبيين في بعرين – فحشدت النصرانية وجمعت وقصدوا الشام مع ملك القسطنطينية » . انظر : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج8 ، ص 358 ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، تحقيق محمد فريد الشبال، 1986، المجلد الثاني ، ص234 ؛ النويري: نهاية الأرب ، ج 27، تحقيق سعيد عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985م ، ص134.

انظر أيضاً :

Chalandon, Jean II Comnène (1118 - 1143) et Manuel I Comnène (1143 - 1180), Les Comnènes, Etudes sur l'Empire Byzantin aux XIème et XIIème Siècles,II, Paris1912,pp.122 – 34

بتلك الإجابة حتى ثار ممن غدر بأختها أليس وتجرعه كأس الذل والهوان[1].

وبعد استعراضنا لتمرد الأميرة أليس، نجد أنفسنا أمام عدة حقائق هامة ينبغي الوقوف أمامها ملياً، أولاها : عنصر الشباب، فالأميرة أليس حين تمردت لم تكن تبلغ الثلاثين من عمرها، على اعتبار أن والدها كان أميراً للرها سنة 1100م، وعلى اعتبار أنه تزوج من والدتها في نفس ذلك العام وأنه رزق ببناته الثلاث مليسند وأليس وهوديرنا أثناء فترة حكمه للرها التي امتدت من 1100 – 1118م، فيصبح عمر الأميرة أليس حين مات عنها زوجها سنة 1130م حوالي السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين على أكثر تقدير، وهذا سن الشباب بما ينطوي عليه من فتوة وجرأة وحماس ربما يصل إلى حد التهور والاندفاع ، والأمر نفسه ينطبق على الأميرين جوسلين الثاني وبونز اللذين ساعداها في تمردها .

والحقيقة الثانية ما اشتهر به الأرمن عبر تاريخهم من ميلهم الشديد للثورة والتمرد، ويبدو أن أليس ورثت ذلك عن أمها وكذلك الحال بالنسبة لجوسلين الثاني فكلاهما كانت أمه أرمينية، كما أن المسيحيين الذين ساندوا أليس داخل أنطاكية كانوا هم أيضاً من الأرمن.

أما الحقيقة الثالثة فهي العنصرية وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحقيقة السابقة عليها، وتتضح بجلاء في إنحياز جوسلين الثاني ومسيحيي أنطاكية إلى جانب الأميرة أليس لأنها من بني جلدتهم الأرمن .

والحقيقة الرابعة وهي بريق الذهب وتأثيره على ضعاف النفوس، فقد نجحت أليس في استقطاب الأميرين جوسلين الثاني وبونز وكثير من

---

(1) ماير، المرجع السابق، ص134.

الأنطاكيين بما أغدقته عليهم من أموال، وصدق من قال " إن الناس قد ذهبوا إلى من عنده الذهب ".

أما الحقيقة الخامسة فهي : عدم الحسم في القرارات والكيل بمكيالين: فماذا كان سيحدث لو لم تكن الأميرة أليس هي ابنة الملك بلدوين الثاني ؟ هل كان الملك سيتعامل معها كما لو كانت إبنته ؟ أو بمعنى آخر هل كان الملك سيعفو عن زعيم التمرد ؟ مع العلم أن ما قامت به أليس يعد خيانة كبرى في حق الصليبيين باعتبار أنها استعانت بأعداء الصليبيين – عماد الدين زنكي – وغلبت المصلحة الشخصية على الصالح العام، وكان من الممكن أن يتعرض الصليبيون لخطر عظيم في حالة وصول رسالة أليس إلي عماد الدين زنكي، الذي لن يتوانى في هذه الحالة عن قبول عرض أليس .

وأما الحقيقة السادسة فهي رفقة السوء فقد أشتهر من جوسلين الثاني وبوتز – وهما اللذان ساعدا أليس عسكرياً في تمردها – حبهما للشهوات ومعاقرتهما للخمر وميلهما للنساء، وهذه صفات لا يمكن أن يصدر عنها شيء من الحكمة أو التعقل .

وأما الحقيقة السابعة فهي فن السياسة التي تقوم على مبدأ أساسي وهو : ليس هناك صداقة دائمة أو عداوة دائمة وإنما هي المصلحة الدائمة ، فالأميرة أليس لم تقم بتمردها إلا من منطلق مصلحتها الشخصية، وكذلك الأمر بالنسبة لبقية شركائها : فبالنسبة للأميرين جوسلين الثاني وبوتز فقد كانا يأملان من وراء مساندتهما لأليس أن ينجح تمردها وعندئذ يكون بوسعهما طرح طاعة ملك بيت المقدس عنهما، كما أن يوحنا الثاني إمبراطور الدولة البيزنطية عندما وافق على مشروع أليس الذي يقضي بزواج ابنتها كونستانس من ابنه الأمير مانويل،

كان يهدف من وراء موافقته على ذلك مصلحته الشخصية : فمن طريق هذا الزواج تتأكد عودة إمارة أنطاكية إلى السيادة البيزنطية الفعلية ؛ لذلك نجده يغضب غضباً شديداً عندما يعلم بزواج الأميرة كونستانس من ريموند الثاني ويتوعد الصليبيين بالويل والثبور .

وأخيراً فمن الأمور التي تسترعي الإنتباه هو أننا لم نسمع عن أحد من المؤرخين الغربيين المعاصرين أو المحدثين استنكر زواج الأميرة كونستانس من ريموند الثاني التي لم يتجاوز عمرها حينذاك التاسعة ، في حين نجدهم يسلقوننا بألسنة حداد عند زواج العربيات أو المسلمات في مثل هذه السن المبكرة ، وما قولهم على السيدة عائشة أم المؤمنين ببعيد ، رغم ان البيئة الصحراوية تساعد كثيراً الفتيات على البلوغ مبكراً !

الفصل الرابع

اللجوء السياسي في الشرق اللاتيني

(1113 - 1192 م / 507 - 588 هـ)

يعد نشوب الصراعات والحروب بين الدول بعضها بعضاً من أهم أسباب ظهور ما يطلق عليه مشكلة اللاجئين، حيث تضطر أعداد غفيرة من السكان إلى ترك ديارهم وأوطانهم إما طوعاً أو كرهاً ، وتنزح إلى مناطق أخرى تلتمس فيها الأمن وتشعر فيها بالاطمئنان على حياتها ومستقبلها . وتعد الحروب الصليبية - بطبيعة الحال- نموذجاً حياً لتلك المشكلة ؛ فما كادت أقدام الصليبيين تطأ بلاد الشام حتى أخذت موجات من اللاجئين المسلمين تتدفق على المناطق المجاورة هرباً من بطش الصليبيين ووحشيتهم . كما اضطرت أعداد غفيرة من المسيحيين المحليين من سريان وأرمن ويعاقبة إلى هجر مدنهم وقراهم تحت وطأة الهجمات التى شنها المسلمون على المناطق التى كانوا يقيمون بها خاصة فى إمارة الرها الصليبية، واللجوء إلى مناطق أكثر أمناً وسلاماً ، وبعد انتصار المسلمين فى معركة حطين 1187م/ 583هـ اضطرت أعداد كبيرة من صليبى مملكة بيت المقدس إلى ترك مدنهم التى كانوا يقيمون بها واللجوء إلى مدينة صور التماساً للأمن والسلام، وغير ذلك من نماذج اللجوء التى اتسمت بها فترة الحروب الصليبية .

هذا وقد ظهرت بعض الدراسات الحديثة التى تناولت بالشرح والتحليل تلك المشكلة منها : "أحوال المسلمين فى بيت المقدس 1099 - 1187م/ 492 - 583 هـ "[1] واللاجئون السوريون - الفلسطينيون فى زمن الحملات الصليبية"[2].

---

(1) محمد فتحى الشاعر: أحوال المسلمين فى مملكة بيت المقدس الصليبية 1099-1187م/ 492- 583هـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1997م.

(2) S. Emmanuel, Refugie's Syro- Palestiniens au temps des Croisades in (Revue des études Islamiquesl), XXXV, Paris, 1967.

ولم يكن هذا النوع من اللجوء هو الذى تميز به عصر الحروب الصليبية فحسب، بل كان هناك نوع آخر ظهر في الشرق اللاتيني ونعني به اللجوء السياسي . وسوف تُسلّط هذه الدراسة الأضواء على نماذج مختلفة من هذا اللجوء إبان الفترة موضوع البحث موضحة أسبابه والدوافع التى حدت بالدولة المستقبلة للاجئين إلى قبولهم على أراضيها، وموقف الدول التى خرج منها اللاجئون من الدول التى استقبلتهم من جهة ومن اللاجئين أنفسهم من جهة أخرى.

وأخيراً لمحة عن نشاط هؤلاء اللاجئين في مواطنهم الجديدة وكيف كان مصيرهم؟

ومن الجدير بالذكر أن تحديد بداية الدراسة بعام 1113م/ 507 هـ جاء نتيجة أن المصادر المتاحة لم تشر إلى نماذج من اللجوء السياسي وقعت قبل هذا التاريخ، ولعل هذا أمر طبيعي على اعتبار أن الصليبيين لم تمض على إقامتهم بالمنطقة فترة طويلة من الزمن حتى يمكن أن تظهر مسببات لهذا اللجوء خاصة أنهم كانوا منهمكين في توسيع ممتلكاتهم وإقامة إماراتهم اللاتينية على حساب المسلمين، في حين تعد نهاية الحملة الصليبية الثالثة 1192م/ 588 هـ حدثا تاريخياً مميزاً يمكن الوقوف عليه كنهاية لهذه الدراسة .

ولم يكن اللجوء السياسي في منطقة الشرق اللاتيني محصوراً فيما بين المسلمين والصليبيين فحسب، وإنما تعداه إلى لجوء البيزنطيين وغيرهم لكل من الصليبيين والمسلمين على حد سواء . وحرى بنا قبل الخوض في تفاصيل تلك الدراسة أن نوضح في البداية ما المقصود بالملجأ؟ ومن هو اللاجئ ؟

يقصد بالملجأ في اللغة أحد معنيين، إما المكان الذي يحتمي به الخائف من خطر يتهدده، وإما الحماية ذاتها التي يوفرها مكان معين للشخص الذي يعتصم به[1]. أما في الاصطلاح فيقصد بالملجأ - بصفة عامة - معنى واحد يدور بشكل أو بآخر حول الحماية ذات الطابع المؤقت التي تمنحها الدولة في مواجهة أعمال دولة أخرى لأحد الأجانب الذين تتوافر فيهم شروط خاصة وجاء يطلبها في إقليم تلك الدولة[2].

في حين يُعد تحديد تعريف اللاجئ من الأمور الصعبة حيث لم تشر المصادر المعاصرة من عربية وغربية إلى تعريف محدد له، كما أن القانون الدولي الحديث هو الآخر لم يضع تعريفًا محددًا له[3]، ومع ذلك فلابد أن يكون اللاجئ أجنبياً بالنسبة لدولة الملجأ، أي ليس من رعاياها، وأن تتوافر فيه شروط خاصة تميزه عن غيره من الأجانب العاديين من تجار وحجاج وعابرين ومهاجرين وغيرهم. فاللاجئ هو الشخص الذي يوجد خارج حدود دولة جنسيته أو خارج حدود الدولة التي كانت فيها إقامته المعتادة ولا يستطيع أو لا يرغب في التمتع بحماية هذه الدولة نتيجة لخوف مبني على أسباب معقولة مثل التعرض للاضطهاد

---

(1) ابن منظور: لسان العرب، ج5، دار المعارف، القاهرة 1997م، مادة لجأ، محمد الغنيمي: الوسيط في قانون السلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1982م، ص415.

(2) محمد شوقي عبد العال: حقوق اللاجيء طبقًا لمواثيق الأمم المتحدة، "أعمال ندوة الحماية الدولية للاجئين"، مطبعة مركز حقوق الإنسان، القاهرة، 1997م، ص340؛ حازم حسن جمعة: مفهوم اللاجئين في المعاهدات الدولية والإقليمية، "أعمال ندوة الحماية الدولية للاجئين"، مطبعة مركز حقوق الإنسان، القاهرة، 1997م، ص15.

(3) محمد شوقي عبد العال: المرجع السابق، ص35.

داخل هذه الدولة [1]، أو أنه الشخص الذي يضطر إلى ترك بلده بسبب الخوف على حياته أو حريته من التعرض للخطر، وقد تبرر هروبه أسباب سياسية[2]، وقد عرفه آخرون بأنه الشخص الذي يغادر بلد إقامته بسبب أحداث سياسية من شأنها تعريضه للاضطهاد أو يصاحبها اضطهاد أو تهديد له[3]. وقد أخذت الدراسة بالتعريف الأخير واعتمدت عليه.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن نماذج من اللجوء السياسي فنستهلها بالحديث عن الأمير جوسلين أوف كورتناي Jocelyn of Courtenay الذي وصل إلى الشرق اللاتيني رفق الحملة الصليبية عام 1101م / 495هـ [4]، ونظراً لأنه كان لا يملك من حطام الدنيا شيئاً فقد لجأ إلى قريبه وابن عمته بلدوين أوف بورج Boldwin of Borge أمير رها (1100- 1118م/ 494- 512 هـ) الذي أنعم عليه بحكم منطقة تل باشر وأعالي الفرات[5] وقد أظهر جوسلين من الكفاءة والمقدرة ما جعل

---

(1) Budislav Vukas, International Instruments Dealing with The Status of Stateles, Persons and Refugees, (Revue Belge de Droit international), Vol. 8, No. 1, 1972, pp. 146- 48; Sudruddin Agakhan, Legal Problems Relating to Refugees and Displased Persons, ed. (R. C.), Vol. 149, 1976, p. 314.

(2) Van Heuven Goedhart, The Problem of Refugees, ed. (R. C.) Vol. 1, 1953, p. 269.

(3) حمدي الغنيمي: الملجأ في القانون الدولي، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد، كلية الحقوق، جامعة الإسكندرية، 1976، ص3- 7.

(4) William of Tyre,op.cit., pp. 550- 51; Matthieu d'Edesse, op.cit.,p. 125.

(5) تقع تل باشر على بعد حوالي ثلاثة وتسعين كيلو متر شمالي حلب وهي حصن منيع ذات مياه وبساتين. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، 14ج، القاهرة 1913- 1920، ج4، ص127.

بلدوين أوف بورج يثق به ويتخذه سنده الأول، وظلت العلاقات طيبة بين الرجلين إلى أن انفصمت عُراها في عام 1113م / 507 هـ[1].

أما عن أسباب توتر العلاقات بين الرجلين وتدهورها فتشير المصادر إلى تعرض إمارة الرها لغارات عنيفة وقوية على أيدي الأمير شرف الدين مودود أمير الموصل (1108 - 1113م/ 502 - 507هـ)[2] أدت إلى إلحاق أضرار جسيمة بها خاصة في الناحية الاقتصادية حتى أشرفت الإمارة على المجاعة في الفترة 1110-1112م/ 504 - 506هـ[3]، واتهم بلدوين أوف بورج تابعه جوسلين أوف كورتناي - الذي لم تتعرض ممتلكاته لنفس الأضرار التي تعرضت لها الرها - بالتقصير والتقاعس عن تقديم العون اللازم له وعدم إمداد الرها بما تحتاج إليه في وقت محنتها[4]، وزاد الطين بلة أن

---

(1) William of Tyre, Op. Cit., Vol. 1, pp. 498- 99.

انظر أيضاً: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، 2ج، القاهرة 1982، ج1، ص439.

(2) هو قائد تركي من رجال السلطان محمد بن ملكشاه وقد شارك في العديد من الوقائع التي دارت بين السلطان محمد وأخيه بركيارق، ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته راجع: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، بيروت، 1908م، ص174؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 12ج، بيروت 1979م، ج10، ص138.

(3) ومن الجدير بالذكر أن الأمير شرف الدين مودود قام بعدة غارات مدمرة على إمارة الرها وألحق بها أضراراً بالغة في شتى النواحي، حيث أُجبر العديد من السكان الأرمن على ترك مساكنهم وأراضيهم، كما ألحق الدمار والخراب بالممتلكات والأراضي الزراعية. ولمزيد من التفاصيل عن ذلك راجع: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص169، 170؛ ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، 3ج، تحقيق سامي الدهان، دمشق 1968م، ج1، ص154.

(4) Matthieu d'Edesse, op. Cit., T. I, pp. 91- 92, 96- 97; William of tyre, op. Cit., Vol. I, pp. 496- 98.

الرُسل الذين أرسلهم بلدوين أوف بورج إلى أنطاكية مروا فى ذهابهم وإيابهم بتل باشر حيث استقبلهم جوسلين أوف كورتناى بالترحاب وأحسن وفادتهم، إلا أن بعض تابعيه عندما انفردوا بهؤلاء الرسل تهكموا على الأمير بلدوين أوف بورج وعلى ما وصلت إليه إمارة الرها من ضعف وفقر مقارنة بما ترفل فيه ممتلكات سيدهم جوسلين من غناء وثراء ، وأضافوا أنه من الأجدى للأمير بلدوين أن يبيع إمارته لسيدهم بمبلغ كبير من المال ليعود به إلى فرنسا حيث لا جدوى من استمرار بقائه في المنطقة[1].

وعندما عاد رسل الأمير بلدوين أوف بورج إلى الرها وقصوا عليه ما قيل فى حقه من إهانات من قبل أتباع جوسلين فى تل باشر تميز من الغيظ وأسر الأمر فى نفسه ولم يبده لأحد ريثما تلوح له الفرصة للانتقام، ولم ينتظر بلدوين طويلاً بل أرسل على الفور إلى تابعه يطالب منه القدوم عليه فى الرها لمناقشة بعض الأمور التى تخص الإمارة . وعندما دخل جوسلين على سيده بقلعته فى الرها غُلقت الأبواب واخذ بلدوين يوبخ تابعه على تقصيره وتقاعسه فى مساعدة إمارة الرها وعمَّ بدر من أتباعه من إهانات فى حقه، وأمر به فزج فى غياهب السجن . وتحت وطأة التعذيب اضطر جوسلين أوف كورتناى إلى التنازل عن كافة ممتلكاته فأصبح شريداً لا يدرى إلى أين يذهب بعدما جرد من كل ما كان يملك[2]، وضاقت به السبل ولم يجد أمامه من قوة يحتمى بها سوى اللجوء إلى بلدوين الأول Baldwin I ملك بيت المقدس

---

(1) William of Tyre, Op. Cit., Vol.I, pp. 489- 90.

(2) Matthieu de'Edesse, op. cit., T. I, pp. 125- 26; William of Tyre, op. cit., Vol. 1, pp. 490- 91; A.S.C., op. cit., p.85.

انظر أيضاً: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص133.

(1100 - 1118م/ 494 - 512 هـ) الذى آواه وشمله بعطفه ورعايته[1].

الواقع أن ما تعرض له جوسلين أوف كورتناى من اضطهاد وتعذيب وتجريد من الممتلكات يعتبر سبباً مقنعاً وكافياً لطلب اللجوء لدى بلدوين الأول ملك بيت المقدس، ولكن ما هى الدوافع التى حدت بالملك بلدوين أن يستقبل الأمير جوسلين ويرحب به فى مملكته؟

الثابت أن الملك بلدوين كان فى أمس الحاجة إلى من يساعده ويخفف عنه شيئاً من أعباء المملكة التى ينوء بها كاهله خاصة فى تلك الفترة التى أخذت فيها بوادر اليقظة العربية تظهر شيئاً فشيئاً، وبدأت حركة الجهاد المقدس ضد الصليبيين تلوح فى الأفق وحمل رايتها عدد من رواد الجهاد الأول أمثال الأمير شرف الدين مودود ومن بعده البرسقى وبرسق بن برسق وغيرهم[2]، هذا فضلاً عن أن بعض أجزاء المملكة قد مات عنها أميرها وأصبحت بلا قائد يدافع عنها ويدير شئونها فأصبحت عبئاً إضافياً على عاتق الملك بلدوين الأول[3]، لذلك اعتبر

---

(1) William of Tyre, op. cit., Vol., 1, p. 492; A.S.C. loc. Cit., Cf. also, la Mont, op. cit., p.200.

(2) عن ظهور حركة الجهاد وروادها الأول في منطقة الشرق الأدنى: راجع: محمد محمد الشيخ: الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرهاء، دار الثغر، الإسكندرية، 1972م، ص210- 58.

(3) ومن المعروف أن جرفيه دى بوزوك Gervais de Bozoches أمير طبرية والجليل 1106- 1108م/ 499- 501هـ لقى مصرعه أثناء تصديه لإحدى غارات مسلمي دمشق على إمارته وظلت الإمارة منذئذ تحت وصاية الملك بلدوين الأول حتى مجيء جوسلين أوف كورتناى فى 1113م/ 507هـ فمنحها له. عن ذلك انظر: Albert d'Aix, op. cit. T. IV, pp. 657- 58.

لجوء جوسلين أوف كورتناى إلى المملكة فى ذلك الوقت فرصة مواتية، خاصة وقد توسم فيه الملك الفطنة والكفاءة والقوة والشجاعة . وهذه صفات لابد أن تتوافر فيمن يتولى حكم إمارة صليبية هامة ومتاخمة لإمارة دمشق الإسلامية ؛ وعليه فقد منح الملك بلدوين حكم مدينة طبرية وتوابعها للأمير جوسلين الذى لم يخيب فراسته فيه بل كان بحق من خيرة قادة الصليبيين، ولمَ لا وهو الذى تمرس على الحكم والقيادة من قبل فى منطقة أعالى الفرات المتاخمة للحدود الإسلامية[1].

أما عن نشاط الأمير جوسلين إبان فترة لجوئه فى طبرية (1113 - 1119م/ 507 - 513 هـ) فنلاحظ أنه لم يدخر وسعًا فى حكم إمارته الجديدة، وحاول جاهداً توسيع حدودها وإضفاء مسحة من الهيبة عليها مستعيناً بالقوة تارة وبالدبلوماسية تارة أخرى وفق ما تمليه عليه مقتضيات الموقف، وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير فقد استغل قرب ممتلكاته من الحدود الإسلامية مع دمشق، وقام بتهديد القوافل التجارية المارة بحدود إمارته ونهب ما بها من ثروات وأموال[2]، كما شن الغارات على القبائل العربية القاطنة فى منطقة شرق الأردن واستولى على قطعانهم ودوابهم[3]، الأمر الذى أفاده كثيرًا فى إضفاء مسحة من الهيبة على إمارته من جهة وملء خزائنه من تلك الأموال التى استولى عليها من جهة أخرى، كما نجح فى الاستيلاء على عدد من القرى

---

(1) William of Tyre, loc. cit; Matthieu d'Edesse, op. Cit., T. I, p.126
راجع أيضاً: Steven Tibble, op. cit., pp.12, 157.

(2) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص183؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج10، ص498.

(3) Albert d'Aix, op. cit., pp. 710 - 11.

الإسلامية التابعة لمدينة صور وضمها إلى ممتلكاته مستغلاً في ذلك حالة الضعف التي اعترت الجبهة الإسلامية في ذلك الوقت[1].

ورغم النجاحات التي أحرزها جوسلين إبان تلك الفترة إلا أن الأمر لم يخل من وقوعه في بعض الكبوات الثقيلة، ولعل من أهمها الهزيمة المنكرة التي حاقت به وبقوات المملكة التي كان يقودها في معركة جسر الصنبرة قرب بحيرة طبرية في 28 من يونيو 1113 م/ 11 من محرم 507 هـ على أيدي القوات الإسلامية المتحدة بقيادة الأمير شرف الدين مودود، وكاد أن يفقد فيها حياته[2].

لم تكن حالة الحرب هي السمة المميزة لتلك الفترة التي قضاها جوسلين في طبرية، بل يمكننا القول: إنها كانت عارضة ووجيزة للغاية، وأن السلام والاستقرار كان السمة المميزة لتلك الفترة وذلك نتيجة لسياسته الدبلوماسية التي انتهجها تجاه خصومه من المسلمين وقد ساعدته الظروف على ذلك، فقد انتهز فرصة الخلاف الذي نشب بين طغتكين أتابك دمشق (1104 - 1128م/ 498- 522 هـ) وبين

(1) William of Tyre, op. cit., Vol: I, p. 574.

(2) مما لاشك فيه أن طغتكين أمير دمشق استغل فرصة اضطلاع الأمير شرف الدين مودود بحمل راية الجهاد ضد الصليبيين، وطلب منه القدوم عليه ومساعدته في التصدي لتهديدات صليبي مملكة بيت المقدس فوافق مودود على ذلك وتوحدت قواتهما وتوجها صوب إقليم طبرية فتصدت لهما قوات المملكة بقيادة جوسلين أوف كورتناي. ولمزيد من التفاصيل عن معركة جسر الصنبرة، وأهم نتائجها. انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص184- 85؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص495.

انظر أيضاً:

Fulcher of Chartres,op.cit., pp. 205- 206; william of Tyre, op. cit., vol.I, pp. 493- 94.

السلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي (1105 - 1118م/ 499 - 512هـ) بعد اتهام الأخير لطغتكين بالضلوع في مؤامرة قتل شرف الدين مودود[1] وتكليف البرسقي - خليفته في الموصل- بمواصلة حركة الجهاد ضد الصليبيين من جهة وإخضاع الإمارات السلجوقية في الشام من جهة أخرى، مما دفع طغتكين إلى التوجس خيفة من نوايا السلطان محمد فارتمى في أحضان الصليبيين وسالمهم خاصة جوسلين أوف كورتناي أمير طبرية ؛ ونتيجة لذلك نعم إقليم طبرية بالأمن والسلام طوال الفترة الممتدة من 1113 - 1118م/ 507 - 512 هـ[2]. لم تقتصر دبلوماسية جوسلين على جيرانه من المسلمين فحسب، بل امتدت لتشمل خصومه من الصليبيين أنفسهم، فعلى الرغم من تجريده من ممتلكاته في أعالي الفرات وإكراهه على مغادرة محل إقامته وطلب اللجوء إلى مملكة بيت المقدس، فقد كان لديه من المرونة ما جعله يتغاضى عما ألحق به بلدوين أوف بورج أمير الرها من عنت في 1113م/ 507 هـ ويسعى جاهداً في موازرته ومساندته طالما كان ذلك يصب في مصلحته الشخصية . فبعد موت الملك بلدوين الأول في إبريل 1118 م/

---

(1) ومن الجدير بالذكر أن مودود كان برفقة طغتكين في مسجد دمشق عندما قام أحد الباطنية بطعنه. ولمزيد من التفاصيل عن ملابسات تلك الحادثة وموقف= =طغتكين منها انظر : ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 187- 88؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص497، انظر أيضاً:

Fulcher of Chartres, op. cit., p. 202; William of tyre, op. ciy., vol. 1, p. 195; Matthieu d' Edesse, Op. Cit., T. 1, P. 107.

(2) Fulcher of Chartres, op. cit., p. 210; William of Tyre, op. ciy., vol. 1,p. 501.

انظر أيضاً: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص190؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج10، ص514.

ذي الحجة 511 هـ، أسرع جوسلين بالمناداة بترشيح غريمه بلدوين أوف بورج - الذي تصادف وجوده في بيت المقدس في ذلك الوقت - ليكون ملكًا عليه وعدم انتظار قدوم أيوستاس Eustace شقيق الملك بلدوين من الغرب، نظرًا لأن المملكة في حاجة ماسة إلى رجل يدير شئونها ويمسك بزمام الأمور بها خاصة في تلك الفترة الحرجة التي تمر بها، وأن بلدوين أوف بورج يتمتع بخبرة ومقدرة تؤهله لشغل هذا المنصب الرفيع. وقد كان لرأي جوسلين هذا أثره الكبير على بقية أمراء المملكة الذين أيدوه في موقفه، وعليه تم انتخاب بلدوين أوف بورج ملكاً على بيت المقدس 1118م/ 512[1]، وهذا يدل على بعد نظر جوسلين وفكره الثاقب، فتناسيه إساءة بلدوين أوف بورج له من قبل جعلته لا يسترد ما جرد منه فحسب بل أضاف إليه حكم إمارة الرها أيضًا التي عاد إليها مرة أخرى معززاً مكرماً في 1119م/ 513 هـ[2].

لم يقتصر اللجوء السياسي على الصليبيين فحسب، بل شاركهم المسلمون كذلك؛ فتشير المصادر إلى أن التونتاش[3] والي

---

(1) ومن الثابت أن الملك بلدوين قد أوصى بالعرش قبل موته إلى أخيه أيوستاس الذي كان في الغرب آنذاك إذا ما رغب في القدوم ثانية إلى الأراضي المقدسة أو أن يمنح العرش لابن عمه بلدوين أوف بورج أو أي أمير كفء آخر.

وعن موقف جوسلين من تتويج بلدوين أوف بورج راجع:

William, of Tyre, op. cit., vol. 1, p. 520; Matthieu d'Edesse, op. cit., T.I, pp. 118- 119; A.S.C., p. 86.

(2) William of Typr, op. cit., Vol. 1, p. 522.

(3) هو أحد الأشراف من أصل أرمني، وكان غلاماً لأمين الدولة كمشتكين الأتابكي والي صرخد السابق، وقد ورد اسمه بعدة صور مختلفة في المصادر منها: اليونتاش، التونتاش، الترنتاش، تلتايوس، عن ذلك انظر: ابن القلانسي: الذيل، ص289، انظر أيضاً: William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 147.

بصـرى وصـرخد - من أعمـال حوران[1]- قد سـاءت عـلاقته بأتابك دمشق معين الدين أنر حيث أراد أن يستقل بمدينتيه عن دمشق، وعندما أحس أن معين الدين أنر علم بذلك توجس خيفة منه فترك إمارته تحت وصاية زوجته ولجأ إلى مملكة بيت المقدس ملتمسًا اللجوء إليها عارضاً على الملك بلدوين الثالث Baldwin III 1143 - 1162م/ 538 - 556هـ استعداده لتخليه عن مدينتي بصرى وصرخد نظير تعويض الصليبيين له تعويضاً مناسباً وذلك في مايو 1147 م/ ذي الحجة 541هـ[2].

ناقش الصليبيون العرض الذي تقدم به التونتاش مناقشة مستفيضة وتوصلوا في النهاية إلى قرار يقضي بقبوله رغم علمهم بأن ذلك سيؤدي إلى توتر العلاقات بينهم وبين دمشق التي تعتبر حليفتهم المخلصة في مواجهة أهداف نور الدين محمود 1146 - 1174م/ 541 - 571هـ ومشروعاته في توحيد الجبهة الإسلامية، إلا أن لعابهم سال أمام هذا العرض المغري الذي سيتيح لهم فرصة توسيع ممتلكاتهم على حساب دمشق واعتبروا ذلك خطوة في الطريق نحو بسط سيادتهم على دمشق مستقبلاً[3].

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، لماذا طلب الأمير التونتاش اللجوء إلى الملك بلدوين الثالث ولم يطلبه من نور الدين محمود رغم علمه

---

(1) حوران: قرية من نواحي دمشق قالوا أنها قرية لصحاب الأخدود. عن ذلك انظر:
القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص185؛
ابن حوقل: صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت 1979، ص170

(2) ابن القلانسي: نفس المصدر والصفحة.
انظر أيضاً: William of Tyre, loc. cit.,

(3) William of Tyre, Ibid., pp. 146- 47.

بحالة الوفاق بين دمشق وبيت المقدس ووجود هدنة بين الطرفين؟ [1] لعل متاخمة مدينتي بصرى وصرخد لحدود المملكة الصليبية وهي قوة لا يستهان بها هو الذى دفع التونتاش إلى ذلك ؛ إذ سيكون بوسعه الوصول إليهم في أسرع وقت، في حين أن المسافة بينه وبين نور الدين بحلب أضعاف المسافة بينه وبين مملكة بيت المقدس هذا من جهة ، كما أن التونتاش كان من الدهاء بحيث أدرك أن الصليبيين يمكن أن يسيل لعابهم أمام عرضه المغري ويتجاهلون مصالحهم الحيوية مع دمشق من جهة أخرى، أما اللجوء إلى نور الدين فينطوي على مغامرة خطيرة يمكن أن تفقده حياته في ظل سعي نور الدين الحثيث إلى التقرب من دمشق بشتى السبل خاصة بعد زواجه من ابنة معين الدين في بدايات 1147م / 541هـ [2]، لذلك أعرض التونتاش عن طلب اللجوء من نور الدين ومال إلى جانب الصليبيين .

على أية حال أراد الملك بلدوين الثالث أن يمسك العصا من المنتصف، فمن جهة يقبل عرض التونتاش، ومن جهة أخرى يعمل على المحافظة على تحالفه مع دمشق وذلك بإيهامها أنه لا يريد نقض الهدنة

---

(1) من المعروف أن الهدنة بين دمشق ومملكة بيت المقدس قد أبرمت في 1140م/ 534هـ وذلك للتصدي لخطر عماد الدين زنكي. عن ذلك انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص272.

انظر أيضاً:

William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 105;A.S.C., p. 274.

(2) ومن الثابت أن الاتفاق بين معين الدين ونور الدين حول زواج الأخير من ابنة معين الدين قد تم في مارس 1147م/ شوال 543هـ. عن ذلك انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص288- 89.

والدخول معها فى حرب وإنما يريد فقط الوفاء بتعهداته للأمير التونتاش وكتب خطاباً بهذا المعنى إلى معين الدين أنر [1].

لم يتسرع معين الدين أنر فى الرد على الملك بلدوين الثالث، بل تمهل قليلاً ريثما يعد نفسه والبلاد لمواجهة الخطر الصليبى المرتقب. ومع أنه أرسل يطلب مساعدة نور الدين الذى لبى نداءه على الفور، فإن الشك والريبة التى داخلته من نوايا نور الدين دفعت به إلى عدم الوثوق به ومكاتبة الصليبيين، فأرسل إلى الملك بلدوين الثالث خطاباً عاتبه فى مقدمته على سوء صنيعه وحمايته لتابع له وقال فى خطابه الذى أورده وليم الصورى: « لقد خالفتم شروط الاتفاق الذى ارتضيتموه؛ إذ أخذتم تستعدون لدخول أرض مولاى مجير الدين أبق، وأخذت أنت أيها الملك تبسط حمايتك على تابعه الخارج عليه - التونتاش - الذى لا يستحق الرعاية، والذى يعمل عكس ما تمليه عليه يمين الطاعة التى أقسمها له » وناشد الملك عدم خرق المعاهدة وأن يرعى السلام الذى بينهما، كما أبدى استعداده لتعويض الصليبيين عن جميع النفقات التى بذلوها فى تجهيزهم لتلك الحملة، غير أن رد الملك بلدوين جاء مخيباً لآمال أنر إذ ذكر «أن الشرف يأبى علينا أن نخذل رجلاً وضع أمله فى مملكتنا» [2] وبذلك أصبح الصدام بين الجانبين أمراً حتمياً.

ومهما يكن من أمر لم يضيع الصليبيون الوقت وزحفوا بقواتهم صوب مدينتى بصرى وصرخد اللتين كانت القوات الإسلامية المتحدة تحاصرهما فتصدت لهم وحالت بينهم وبين الاستيلاء على أى منهما وأجبروهم على العودة ثانية من حيث أتوا بعد أن كبدوهم خسائر فادحة

---

(1) William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 148.
(2) Ibid., pp. 148- 50.

فى الأرواح والعتاد . وقد تعرض الصليبيون لمواقف لا يحسدون عليها أثناء انسحابهم إلى بيت المقدس . وكان بوسع القوات الإسلامية الإجهاز عليهم غير أن معين الدين أنر لم يشأ ذلك حتى يبقى على التوازن قائماً بين الصليبيين ونور الدين فلا يستفرد به أحدهما[1].

ولكن بقى لنا أن نتساءل: هل وفّى الصليبيون – رغم فشلهم فى الاستيلاء على مدينتى بصرى وصرخد – للتونتاش، ما وعدوه من قبل؟ الثابت أن لجوء التونتاش لبيت المقدس وإقامته به لم يستمر طويلاً ؛ حيث انتهى دوره السياسى سريعاً قبل أن يعرف ما يخفيه له القدر؛ فقد اتفقت المصادر العربية والغربية حول ما آل إليه مصيره، ولكنهما اختلفتا فى الطريقة التى تم بها ذلك ؛ ففى حين ذكرت المصادر العربية أن التونتاش بعد هزيمة الصليبيين وفشلهم فى تحقيق هدفهم رث حبل رجائه وأيقن أن الصليبيين لن يوفوا له ما وعدوه، وأن لا جدوى من استمرار لجوئه لديهم "فوصل بجهله وسخافة عقله إلى دمشق من بلاد الإفرنج بغير أمان ولا تقرير استئذان توهماً منه أنه يكرم بعد الإساءة القبيحة والارتداد عن الإسلام فاعتقل فى الحال فسملت عيناه وأطلق إلى دار له بدمشق فأقام بها"[2].

---

(1) أسهب المؤرخ وليم الصورى فى ذكر تفاصيل تلك الحملة وما تعرض له الصليبيون من مخاطر وما لحق بهم من أذى عن ذلك انظر:

William of Tyre, Ibid., pp. 150- 57.

انظر أيضاً: ابن القلانسى: المصدر السابق، ص289- 90.

راجع أيضاً: حسن حبشى: نور الدين والصليبيون، دار الفكر العربى، الإسكندرية 1948م، ص43- 49.

(2) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص289.

أما المصادر الغربية فذكرت أن أنر " بعث إلى التونتاش بحجة المصالحة ونسيان ما مضى وخدعه بكلماته المعسولة، فلما صار هذا الرجل التعيس عنده عامله أسوأ معاملة تنطوي على العار، إذ سمل عينيه فعاش ما عاش بعدئذ يقاسي أسوأ صنوف الفقر والتعاسة"[1].

في الواقع أننا إذا أمعنا النظر فيما أوردته المصادر العربية نجد أنها لا تتفق مطلقًا مع الواقع ؛ إذ كيف يمكن أن نتخيل أن يعود التونتاش إلى دمشق بهذه البساطة وفي مخيلته أنه سيستقبل بالحفاوة والتكريم رغم ما اقترفه في حق معين الدين أنر والمسلمين من إهانة، لذلك فإن الباحث لا يميل إلى الأخذ بما جاء في تلك الرواية العربية .

ولعل الأقرب إلى الحقيقة هو ما جاء في الرواية الغربية على اعتبار أن معين الدين أنر هو الذي استدرج التونتاش والآن له القول، ولعله ذكره بوجود زوجته في أسره ووعده بالصفح عنه إن هو عاد ثانية إلى دمشق، وهذا أسلوب ينم عن قدرة فائقة في المكر والدهاء وهي صفات تميز بها معين الدين وكثيراً ما استخدمها مع خصومه سواء من المسلمين أو الصليبيين، وخير دليل على ذلك ما جاء في رسالته التي بعث بها إلى الملك بلدوين الثالث سالفة الذكر، وكذلك إحجامه عن الإجهاز على الصليبيين أثناء انسحابهم إلى مملكة بيت المقدس وهم في متناول أيدي القوات الإسلامية ليبقى على التوازن العسكري في المنطقة ويحافظ على استقلال إمارته .

وباستثناء الحملة التي رافق التونتاش فيها الصليبيين ضد بصرى وصرخد، لم تمدنا المصادر المتاحة بمعلومات توضح لنا نشاطه إبان فترة لجوئه لدى الصليبيين، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى قصر المدة التي

(1) William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 157.

قضاها هناك وانهماكه فى المفاوضات مع معين الدين أنر بخصوص عودته ثانية إلى دمشق .

أما إذا انتقلنا إلى الحديث عن لجوء الأمير البيزنطى أندرونيقوس كومنين Andronikos Comnen [1] إلى الشرق اللاتينى، فتذكر المصادر أن العلاقات بين أندرونيقوس وابن عمه الإمبراطور مانويل كومنين Manuel Comnen(1143 - 1180م/ 538 - 576) لم تكن على ما يرام رغم أنهما كانا صديقين حميمين قبل أن يتربع مانويل على عرش بيزنطة ؛ فقد عاش الاثنان معاً فى بلاط القسطنطينية حياة ملؤها الحب والوئام حتى سنة 1143م / 538 هـ عندما اشتركا سوياً فى الحملة التى قادها الإمبراطور يوحنا الثانى John II (1118 - 1143م/ 512 - 538هـ) ضد بلاد الشام[2]. وعندما مات الإمبراطور يوحنا أثناء تلك الحملة فى قليقية، كان على ابنه مانويل العودة ثانية إلى القسطنطينية بأقصى سرعة ليخلف أباه على العرش، بينما تخلف أندرونيقوس عن صفوف الجيش بغرض الصيد

---

(1) وُلد أندرونيقوس كومنين سنة 1120م/ 514هـ ووالده إسحق كومنين Isaac Comnen شقيق الإمبراطور يوحنا الثانى John II، وكان مثالاً متكاملاً للفارس البيزنطى فى العصور الوسطى، وأصبح إمبراطوراً على بيزنطة 1183-1185م/ 579- 581هـ. ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته وحياته راجع:
Niketas, O City of Byzantium, Annals of Niketas Choniates, Tr. Harry J. Magoulias, Wayne state University press, Detroit, 1984, pp. 187- 88, cf. also, Hussey, The Later Macedonians, The Comneni and The Angeli 1025- 1204, ed. (C.M.H.), Vol. IV, part. 1, Cambridge, 1976, pp. 193- 259, p. 244.

(2) ومن الجدير بالذكر أن الإمبراطور يوحنا كان يهدف من وراء حملته تلك: انتزاع إمارة أنطاكية من أيدى ريموند أوف بواتيه 1136- 1149م/ 531- 544هـ وإعادتها ثانية إلى الحظيرة البيزنطية، ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر:
Kinnamos, op. cit., pp.26- 27; Niketas, op. cit., pp. 25- 27.

فوقع أسيراً في أيدي سلاجقة قونية، ولم يبذل مانويل أي جهد في إطلاق سراح ابن عمه نظرا لانشغاله بتأمين تربعه على العرش، ومنذ ذلك الحين ساءت العلاقات وتوترت بين الرجلين، خاصة أن الإمبراطور مانويل لم يحاول تبرير موقفه ولم يقدم اعتذاراً لما حدث منه بعد إطلاق سراح أندرونيقوس مما أوغر صدر الأخير عليه، ولم يعد بالإمكان بقاء الرجلين معاً في مكان واحد خاصة وان الإمبراطور مانويل كان يغار من قدرات ابن عمه الذهنية والجسمانية، فضلاً عن أن أندرونيقوس يكاد يكون هو الأمير الوحيد في البلاط الذي بوسعه معارضة الإمبراطور وجهًا لوجه مما كان يسبب لمانويل حرجاً كبيراً [1].

وعمل الإمبراطور مانويل جاهداً على التخلص من وجود أندرونيقوس معه بالقسطنطينية فحاول إبعاده عن العاصمة تارة بتكليفه بإخضاع الأمير ثوروس الثاني الأرميني Thoros II (1114 - 1167م/ 539 - 563هـ)[2] وتارة أخرى بتكليفه بالدفاع عن حدود الإمبراطورية ضد الخطر المجري [3]، إلا أن تلكما المحاولتين باءتا

---

(1) Kinnamos, op. cit., pp. 27, 33- 4.

وقد أشار نيقيتاس إلى أن السلاجقة أطلقوا سراح أندرونيقوس دون أن يدفع فدية.

انظر: Niketas, op. cit., p. 30.

(2) ومن الجدير بالإشارة أن الأمير ثوروس شق عصا الطاعة واستولى على عدد من المدن البيزنطية بقليقية. ولمزيد من التفاصيل انظر:

Kinnamos, op. cit., pp. 96- 7; Grégoir le Prêtre, op. cit., pp.168- 70; cf. also, Phillips, op. cit., p.125.

ولمزيد من التفاصيل عن حملة أندرونيقوس ضد الأمير ثوروس راجع:

محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل الأول 1143- 1180م، دار المعارف، الإسكندرية، 1985، ص189- 94.

(3) Kinnamos, op. cit., p. 98.

=

بالفشل ؛ نظراً لأن أندرونيقوس كان يدرك جيداً ما يهدف إليه ابن عمه من وراء ذلك فتمادى فى الكيد له والتآمر عليه حتى وصل الأمر به إلى محاولة اغتياله ، إلا أنه فشل فى ذلك وقبض عليه الإمبراطور مانويل وأمر بالزج به فى سجن القصر الكبير بالقسطنطينية[1]؛ حيث ظل سجيناً به قرابة تسع سنوات 1155 - 1164م / 550 - 559هـ إلى أن تمكن أخيراً من الهرب ولجأ إلى دوق روسيا يارو سلاف Yarosiave في جاليشيا Galicia - الواقعة على نهر الدينستر Dueister- الذى رحب به وسمح له بالإقامة فى بلاده، إلا أن الإمبراطور مانويل - الذى لم يكن قط يأمن مكر ابن عمه أندرونيقوس أوجس خيفة من وجوده هناك بعيداً عنه لا يدرى شيئاً عما يدبره ضده من مؤامرات وخشى أن يتحالف مع يارو سلاف ويشكلا خطراً جديداً على دولته ؛ لذلك حاول مانويل - بما عرف من دهاء - استدراج أندرونيقوس ثانية إلى القسطنطينية واعداً إياه بالصفح عنه ونسيان ما مضى إذا ما كف عن

ومن الجدير بالذكر أن الإمبراطور مانويل قام فى عامى 1150 و 1151 بشن الحرب على المجر لتحالفها مع كل من العرب ونورمان صقلية في جنوب إيطاليا أعداء الإمبراطورية البيزنطية. ولمزيد من التفاصيل انظر:

Gy Moravesik, Hungary and Byzantium in the Middle Ages, ed. (C.M.H.), Vol. IV, pt. 1, Cambridge, 1976, pp. 567- 95, p.582.

(1) لسهب كيناموس في ذكر تفاصيل مؤامرات أندرونيقوس ضد الإمبراطور مانويل عن ذلك انظر: Kinnamos, op. cit., pp. 110- 3.

إحاكة المؤامرات ضده، فوافق أندرونيقوس على ذلك وعاد ثانية إلى القسطنطينية معززاً مكرماً في عام 1165 م/ 560هـ[1].

لا جرم أن ما تعرض له أندرونيقوس من سجن وتعذيب طيلة هذه المدة من الزمن، هو الذي دفع به إلى الهرب خوفًا على حياته ملتمسًا اللجوء لدى دوق روسيا نظرًا لعلمه بتوتر العلاقات بين روسيا وبيزنطة مما سيوفر له بلا شك ملجأ آمنًا وإقامة مستقرة بعيدًا عن أعين الإمبراطور مانويل، وبذلك تتاح له الفرصة للكيد له والتآمر ضده، الأمر الذي خشي منه الإمبراطور مانويل وسعى بشتى السبل إلى إعادته ثانية إلى القسطنطينية .

ولم تطل إقامة أندرونيقوس طويلاً بالقسطنطينية، فلم يمض أكثر من عام على عودته إلى العاصمة حتى ضاق الإمبراطور مانويل به ذرعاً واضطر إلى إبعاده عن القسطنطينية ؛ لأن وجوده يمثل تهديدًا لاستقرار البلاد، فمن المعروف أن مانويل حتى نهاية 1165م / 560هـ لم يكن له وريث ذكر فأراد توحيد إمبراطورية المجر مع إمبراطورية بيزنطة عن طريق المصاهرة بأن يزوج ابنته ماري Mary من الأمير بيلا Bella الذي سيئول إليه عرش المجر فيما بعد ليكونا خليفيه على عرش البلاد. وعندما طُلب من أندرونيقوس أن يحلف يمين الولاء لهما باعتبارهما وريثي العرش، لم يرفض أداء اليمين فحسب، بل حرّض غيره من الأمراء على أن يحذوا حذوه ؛ فخشي مانويل من عواقب ذلك فاضطر

---

(1) لجأ أندرونيقوس إلى دوق روسيا نظرًا لتوتر العلاقات بين روسيا وبيزنطة بعدما تحالف ياروسلاف مع ستيفن الثالث ملك المجر 1163- 1176م/ 559- 572هـ وقدم له مساعدات عسكرية في حربه ضد مانويل. انظر:
Ibid., pp. 176- 78; Niketas, op. cit., pp. 77- 78.

إلى إبعاد أندرونيقوس عن القسطنطينية وإرساله إلى قليقية عام 1166م / 561هـ بحجة إخضاع الأمير ثوروس الأرميني مرة أخرى [1].

لم يكن أمام أندرونيقوس سوى تنفيذ ما كُلف به رغم أنه كان على يقين بأن هذه المهمة لم تكن سوى ذريعة للتخلص من وجوده بالقسطنطينية، وبدلاً من أن يعمل على استقرار الأمور بقليقية واستتباب الأمن بها نجده يعمل على إثارة حنق الأرمن وسخطهم خاصة بعد قتله استيفاني شقيق الأمير ثوروس؛ الأمر الذي ألهب مشاعر الأرمن ودفعهم إلى الثورة والانتقام من الرعايا البيزنطيين بالمنطقة . وأمام تلك الثورة أصبح أندرونيقوس في موقف لا يحسد عليه، فليس بوسعه البقاء في قليقية وسط تذمر الأرمن ولا العودة إلى القسطنطينية لعجزه عن تبرير ما قام به بالمنطقة مما سيجعله عرضه لغضب الإمبراطور مانويل بعد مقتل تلك الأعداد الكبيرة من البيزنطيين في قليقية؛ لذلك قرر اللجوء إلى الشرق اللاتيني لعله يجد هناك الملجأ الآمن والملاذ الهادئ بعيدًا عن ملاحقة الإمبراطور مانويل له [2].

ومهما يكن من أمر اختار أندرونيقوس أنطاكية لتكون ملاذاً آمناً له، وهذا الاختيار لم يكن عفويًا وإنما كان

---

(1) Kinnamos, op. cit., pp. 163, 188.

غيرّ مانويل خططه لوراثة العرش بعد أن رزق بابنه أليكسيوس من زوجته ماري الأنطاكية 1169م/ 565هـ، وعليه لم يتم زواج بيلا من ماري ابنة الإمبراطور مانويل عن ذلك انظر:

Niketas, op. cit., p. 73, 78; cf. also, Moravcsik, op. cit., pp. 583- 84.

(2)عن ظروف تولية أندرونيقوس إقليم قليقية وقتله الأمير استيفاني شقيق ثوروس ورد الفعل الأرميني انظر:

Grégoire le Prêtre, op. cit., T. I, p. 198 cf. also, R. Lilie, op. cit., pp.193 - 94.

مدروساً وعقلانياً، فمن جهة تعتبر أنطاكية هى أقرب الولايات الصليبية التى يمكن الوصول إليها من قليقية فى أسرع وقت، ومن جهة أخرى يتيح له فرصة الإقامة بها الاستمرار فى الكيد والنكاية بالإمبراطور مانويل . فعلى الرغم من قصر المدة التى قضاها فى أنطاكية التى لم تتجاوز العام، فقد نجح فى إقامة علاقة غرامية مع الأميرة فيليبا Philipa شقيقة الإمبراطورة مارى زوجة مانويل حيث شغفها حباً بما حباه الله من وسامة، حتى راج حول علاقتهما القيل والقال وأصبحا مثار حديث أهل، الأمر الذى أثار حفيظة الإمبراطور مانويل وزاد من سخطه عليه[1].

ولما رأى أندرونيقوس أن الجو لم يعد مناسباً للإقامة فى أنطاكية خشية ملاحقة الإمبراطور مانويل له والنيل منه ؛ رأى أن يبتعد أكثر لعلمه أن يدى الإمبراطور يمكن أن تصلا إليه وتبطشا به هناك، فلجأ إلى مملكة بيت المقدس ليكون فى حمى الملك عمورى الأول Amalric I (1163 - 1174 م/ 558 - 569 هـ)[2].

يبدو أن روح الانتقام كانت متأصلة فى نفس أندرونيقوس، فلم يدع فرصة إلا وانتهزها للحط من شأن الإمبراطور مانويل وإذلاله، فعندما التجأ إلى مملكة بيت المقدس الصليبية لم يكن اختياره لها

---

(1) Kinnamos, op. cit., p. 188; Niketas, op. cit., pp. 79- 80; cf. also, Phillips, op. cit., p. 250.

(2) ذكر نيكيتاس أن الأميرة فيليبا ماتت كمداً بعد سنوات قليلة من غدر أندرونيقوس بها، فى حين ذكر وليم الصورى أن أندرونيقوس قد تزوج من فيليبا ثم طلقها. عن ذلك انظر:

Niketas, op. cit.,p.79;William of Tyre,op.cit.,Vol.2, pp. 316-3 17.

وعن وصول أندرونيقوس إلى مملكة بيت المقدس. انظر:

Ibid., p. 345, cf. also, lilie, op. cit., p. 194.

بسبب بُعدها النسبي عن مناطق النفوذ البيزنطي إذا ما قورنت بأنطاكية فحسب، بل ليواصل نكايته بالإمبراطور مانويل أيضًا. ولكن إذا كانت هذه هي الأسباب التي حدت بأندرونيقوس أن يلتمس اللجوء لدى مملكة بيت المقدس، فما هي الدوافع التي أدت بالملك عموري إلى استضافته فوق أرضه وإضفاء حمايته عليه ؟ لعل ما جلبه أندرونيقوس معه من ثروة كبيرة من الأموال، فضلاً عن أعداد لا بأس بها من القوات هي التي دفعت الملك عموري إلى قبول لجوئه في المملكة نظراً لحاجته الماسة إلى ذلك خاصة وقد عاد لتوه من حملته على مصر، فضلاً عن استفادة المملكة بما يتمتع به أندرونيقوس من مواهب خاصة في الناحية العسكرية، وسد عجز المملكة من القادة الذين يتولون حكم إقطاعاتها الشاغرة(1).

وبعدما رحب الملك عموري بأندرونيقوس منحه حكم إمارة بيروت كإقطاع له، غير أن أندرونيقوس لم يبد كبير اهتمام بأمور إمارته الجديدة بل كان حكمه لها صورياً، في حين صب كل جهده في كيفية النيل من الإمبراطور مانويل، فنجده يدخل في علاقة غرامية جديدة مع الأميرة ثيودورا Theodora ابنه أخي مانويل وأرملة الملك بلدوين الثالث. ورغم فارق السن الكبير بينهما - حيث كان أندرونيقوس يبلغ السابعة والأربعين من عمره في ذلك الوقت 1167 م/ 562 هـ - وكانت ثيودورا شابة في مقتبل العمر وعلى قسط وافر من

---

(1) ومن الجدير بالذكر أن أندرونيقوس أخذ ما جمعه من ضرائب من قيليقية وقبرص وذهب بها إلى مملكة بيت المقدس وبرفقته أعداد لا بأس بها من فرسان. كما أن إمارة بيروت كانت في ذلك الوقت تحت وصاية الملك عموري. عن ذلك انظر:
Niketas, op. cit., p. 78; Kinnamos, op. cit., p. 188; William of Tyre, loc.

الجمال وتملك في نفس الوقت إقطاعية عكا كميراث لها من زوجها بلدوين الثالث - فإن أندرونيقوس نجح في الإيقاع بها وإقامة علاقة آثمة معها وأصبحت عكا مقر إقامته بدلاً من بيروت فشاعت في أرجاء بيت المقدس تفاصيل تلك العلاقة[1].

وعندما ترامت إلى مسامع الإمبراطور مانويل تفاصيل تلك العلاقة تميز من الغيظ وعيل صبره وأرسل على الفور خطابًا إلى عموري الأول ملك بيت المقدس يحثه فيه على ضرورة القبض على أندرونيقوس وسمل عينيه وإرساله إلى القسطنطينية، ولكن من حسن حظ أندرونيقوس أن وقع هذا الخطاب في أيدي الأميرة ثيودورا بطريقة أو بأخرى، فأطلعته على فحواه[2]؛ لذلك رأى أندرونيقوس أنه من الحكمة مغادرة مملكة بيت المقدس على الفور والبحث عن ملجأ آخر بعيداً عن الملك عموري، نظرًا لأن الأخير لم يكن بوسعه رفض طلب الإمبراطور خاصة وأن الظرف التاريخي يحتم عليه عدم تعكير صفو العلاقات مع الإمبراطور مانويل، لأنه هو القوة الوحيدة التي بوسعها مد يد العون للمملكة الصليبية أمام خطر نور الدين محمود الذي سطع نجمه بالفعل بعدما ضم إليه مدينة دمشق وأصبحت لديه من القوة ما يمكنه من تهديد الكيان الصليبي تهديداً مباشراً.

هكذا يتضح لنا أن نشاط الأمير أندرونيقوس إبان فترة إقامته في الشرق اللاتيني انصبت في المقام الأول على النكاية لابن عمه

---

(1) Ibid. p. 395.

وعن حكم أندرونيقوس لإقطاعية بيروت وتفاصيل علاقته بثيودورا راجع: محمد محمد فرحات: بيروت ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي 1110- 1291م/ 503-690هـ، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد، الإسكندرية، 1994م، ص230- 233.

(2) Niketas, op. cit., p. 80; cf. also, Phillips, op. cit., p. 250.

الإمبراطور مانويل - الذى كان سببًا فى إبعاده عن وطنه كرهاً - عن طريق تلك العلاقات الآثمة التى أقامها مع ذوى قرباه من الأميرات البيزنطيات سواء فى أنطاكية أو فى مملكة بيت المقدس .

لم تعد مملكة بيت المقدس إذاً الملاذ المناسب الذى يأمن أندرونيقوس فيه على حياته ومستقبله، فكان لزاماً عليه أن يلتمس هذا اللجوء لدى القوى الإسلامية المجاورة فتوجه بناظريه صوب دمشق حيث الملك نور الدين محمود الذى أكرم وفادته وأحسن نُزُله[1].

هذا ولم تمدنا المصادر المتاحة بمعلومات توضح لنا ما قام به أندرونيقوس من أعمال إبان إقامته بدمشق ولا المدة التى قضاها هناك . ويبدو أنه قد خشى على نفسه من ملاحقة الإمبراطور مانويل . فأخذ يجوب بلاط أمراء الشرق مع الأميرة ثيودورا حتى انتهى بهما المطاف إلى قلج أرسلان الثانى سلطان قونية 1156 - 1188م/ 551 - 584هـ الذى سمح له بالإقامة فى بلاده واتخاذها قاعدة لشن الغارات على حدود الدولة البيزنطية [2]، مما سبب إزعاجاً كبيراً للإمبراطور مانويل الذى لم يدخر وسعاً فى الإيقاع به والقبض عليه، ونجح فى النهاية فى إجباره على القدوم إلى القسطنطينية والمثول بين يديه طالبًا الصفح والغفران وذلك فى يوليو 1180 م/ ربيع أول 576 هـ [3] منهيًا بذلك فترة لجوئه التى امتدت قرابة أربعة عشر عامًا 1166 - 1180 م/ 561- 576هـ.

---

(1) Niketas, op. cit., p. 81; cf. also, phillips, loc. cit.,

(2) Kinnamos, op. cit., p. 188; Niketas, loc. cit.,

(3) لعل من أهم الأسباب التى دفعت أندرونيقوس إلى العودة إلى القسطنطينية والتماس عفو الإمبراطور مانويل هو نجاح الأخير فى القبض على ثيودورا وأولادها، ورغم عفو الإمبراطور عن أندرونيقوس، إلا أنه لم يبقه معه فى القسطنطينية، بل منحه حكم إقليم بونطس على البحر الأسود. عن ذلك انظر:

Ibid., p. 128; William of Tyre, op. cit., Vol. 2, p. 463.

أما إذا انتقلنا إلى الحديث عن لجوء الماركيز كونراد أوف منتفرات Conrad marquis of Montferrat [1] إلى الشرق اللاتيني، فالثابت أن شقيقه بونيفاس Boniface [2] كان قد أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي إسحق الثاني إنجيلوس Isaakois II Angelos (1185 - 1195م / 581 - 591 هـ) يعرض عليه مصاهرته فوافق الإمبراطور على العرض وأرسل إليه سفارة لإتمام زواجه من شقيقته ثيودورا Theodora، وكانت المفاجأة أن وجد المبعوثون البيزنطيون لدى وصولهم الأمير بونيفاس يحتفل بمراسم زواجه فسقط في أيديهم ولكن خفف من وطأة الموقف عرض الماركيز كونراد - الذي توفيت زوجته حديثاً - على المبعوثين زواجه من شقيقة الإمبراطور فرحبوا بالفكرة ورافقهم لدى عودتهم إلى القسطنطينية حيث تمت مراسم الزواج في إبريل 1187م / صفر 583هـ [3].

---

(1) هو الابن الثاني لوليم أوف مونتفرات William of Montferrat أصبح ماركيزاً بعد موت شقيقه الأكبر وليم ولعب دوراً كبيراً في الحروب الصليبية ولقي حتفه على أيدي الباطنية في مدينة صور. عن ذلك انظر:

Niketas, op. cit., pp. 114, 217; Ambroise, The Crusade of Richard Lion- Heart, Tr. M. Jerome, Columbia University press, 1941, p. 21.

انظر أيضاً: روبرت كلاري: فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة حسن حبشي، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، 1964م، ص68؛ راجع أيضاً: سهيل ذكار: حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس، دار حسان للطباعة والنشر، 1984، ص170.

(2) هو الابن الرابع لوليم أوف مونتفرات قاد الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية عن ذلك انظر: فيلهاردوين: فتح القسطنطينية، ترجمة حسن حبشي، جدة، 1982، ص61.

(3) Niketas, op. cit., p. 210.

انظر أيضاً: سهيل زكار: المرجع السابق، ص170.

ولم يمض وقت طويل على زواج كونراد حتى اندلعت ثورة كبيرة يتزعمها القائد إلكسيوس براناس Alexios Branas للإطاحة بالإمبراطور إسحق إنجيلوس ، وقد بلغت هذه الثورة من خطورتها أن عجز الإمبراطور عن مواجهتها واكتفى بالتحصين خلف أسوار العاصمة وذلك فى مايو 1187 م/ ربيع أول 583 هـ[1] وهذا دليل واضح على مدى ما اعترى الإمبراطورية البيزنطية من ضعف، غير أن الماركيز كونراد - الذي هاله عجز الإمبراطور ووهنه - عرض على صهره الاضطلاع بمهمة التصدى لتلك الثورة، ونجح بالفعل فى القضاء عليها والإطاحة برأس قائدها ألكسيوس براناس التى قدمها هدية لصهره تشكر له جميله وحسن صنيعه[2].

ما كاد الإمبراطور إسحق إنجيلوس يفرغ من ثورة ألكسيوس براناس حتى انقلب على الماركيز كونراد محاولاً التخلص منه ؛ ربما لسطوع نجمه وذيوع صيته بعد نجاحه فى القضاء على ثورة براناس أو لخشية الإمبراطور على نفسه من بقائه معه فى القسطنطينية ؛ لذلك أخذ يحيك المؤامرات ضده، غير أن أنباء تلك المؤامرة تسربت إلى كونراد الذى خشى على نفسه من البقاء فى القسطنطينية فاضطر إلى

---

(1) يعتبر ألكسيوس براناس واحداً من القادة البيزنطيين العظام الذين أحرزوا انتصارات باهرة على النورمان لكنه لم يلق التكريم المناسب من قبل الإمبراطور إسحق إنجيلوس، فتمرد عليه منتهزاً فرصة عجزه عن الإمساك بزمام الأمور فى الإمبراطورية وأعلن الثورة ضده وحاصره فى القسطنطينية. ولمزيد من التفاصيل عن تمرد براناس انظر:

Niketas, op. cit., pp. 207- 209.

انظر أيضاً: روبرت كلارى: المصدر السابق، ص68- 69.

(2) Niketas, op. cit., pp. 210- 211.

مغادرتها فى جنح الظلام ميممًا وجهه صوب مملكة بيت المقدس الصليبية(1).

ولعل سلوك الإمبراطور إسحق إنجيلوس حيال الماركيز كونراد يعتبر أمراً يثير الدهشة ؛ إذ كيف يُتصور أن يكون جزاء من قدم المعروف وأنقذ البلاد من الخطر المتآمر ضده ومحاولة القضاء عليه، ولكن تتلاشى هذه الدهشة عندما نعلم أن هذا السلوك لم يكن يتسم به الإمبراطور إسحق وحده، بل كان هو السمة المميزة لأباطرة الدولة البيزنطية بصفة عامة تقريباً ؛ فالمكر والدهاء والتلون كالحرباء والترغيب والترهيب كلها وسائل اعتاد عليها الأباطرة البيزنطيون فى سياساتهم الميكيافيلية حيال خصومهم وإن كانوا أقرب الناس إليهم.

لا غرو أن تسلل كونراد لواذاً من القسطنطينية ولجوءه إلى مملكة بيت المقدس، يرجع فى المقام الأول إلى عدم شعوره بالأمن وخوفه على حياته، فلم تجد نفعاً مصاهرته للإمبراطور أو حتى تضحيته بنفسه وتصديه لثورة براناس التى كان من الممكن أن يفقد فيها حياته، خاصة إذا علمنا أن الإمبراطور قام بغلق أبواب العاصمة خلف كونراد بعدما خرج للتصدى للثورة . ولم تفتح تلك الأبواب إلا عندما تيقن الإمبراطور من نجاح كونراد فى القضاء عليها .

غادر كونراد ميناء القسطنطينية فى مركبين كبيرين بما استطاع حمله من أموال وما أمكن جمعه من فرسان وتوجه صوب مدينة عكا ظناً منه أن الأمور لا تزال على حالها بالمملكة الصليبية . ولم يدر أن صلاح الدين نجح فى استرداد كل مدن المملكة الصليبية - التى

(1) روبرت كلارى: المصدر السابق، ص70- 71.

جلا عنها أهلها إلى مدينة صور- بعد انتصاره الحاسم على الصليبيين فى حطين 1187 م/ 583هـ. وما كاد يصل إلى ميناء عكا حتى ارتاب فى الأمر فرحل من فوره إلى مدينة صور التى كانت فى طريقها إلى الاستسلام لصلاح الدين، وبمجرد نزوله إلى المدينة التف الناس من حوله، وطالبوه بتولى تصريف شئونها والدفاع عنها ضد خطر صلاح الدين ؛ فانقلبت الموازين رأسًا على عقب، فبدلاً من مناشدة كونراد الصليبيين السماح له باللجوء إليهم ناشدوه هم بضرورة البقاء معهم وتصريف شئون صور إبان تلك الفترة الحرجة من تاريخ المملكة الصليبية . ولم ينجح كونراد فى إنقاذ مدينة صور فحسب، بل نجح أيضًا فى إنقاذ بقاء المملكة الصليبية[1].

أما فيما يتعلق بالفترة التى أقام فيها كونراد فى الشرق اللاتينى 1187 - 1192م / 583 - 588 هـ، فلم يتمتع فيها بالهدوء والأمن الذى كان ينشده من لجوئه، بل اتسمت تلك الفترة بالاضطرابات والمنازعات ؛ إذ احتدم النزاع بينه وبين جى دى لوزينيان Guy de Lusignan (1186 - 1192م / 582 - 588 هـ) ملك بيت المقدس الاسمى - بعد إطلاق صلاح الدين سراحه - حول وراثة

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن كيفية مغادرة كونراد للقسطنطينية ووصوله إلى صور وتولى أمرها راجع: ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق جمال الدين الشيال، الإسكندرية 1964، ص136.

انظر أيضاً:

Eracles, L'Estoire d'Eracles Empereur et de Conquest de la Terre d'Outre mer, ed. (R.H.C; H. Occ.,) T. II., Paris, 1859, pp. 1- 481, p. 74- 78; Ernoul, Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier, ed. M.L.de Mas Latrie, Paris, 1871, pp. 179- 83; cf. also, p. M. Holt, op. cit., p.58- 59; W. Edbury, The Conquest of Jerusalem and the Third Crusade, Ashgate, U.S.A., 1998, p. 295.

عرش مملكة بيت المقدس . وقد اتسعت دائرة هذا النزاع حتى شملت ملوكاً وأمراء وجماعات رهبانية عسكرية وكذلك الجاليات الإيطالية التجارية، مما وضع الصليبيين على شفا جُرف هارٍ كاد أن يهوى بهم جميعاً في غياهب المجهول .

وعلى الرغم من نجاح كونراد في الحصول على تأييد معظم أمراء الصليبيين على ترشيحه ملكاً عليهم وموافقة ريتشارد قلب الأسد Richard Lion Heart ملك إنجلترا (1189 - 1199م / 585 - 595هـ) في نهاية الأمر على ذلك حسماً للنزاع، فإن كونراد لم يهنأ بذلك الأمر، فسرعان ما لقى حتفه على أيدي الباطنية في مدينة صور في إبريل 1192م/ ربيع الآخر 588 هـ قبل أن يضع التاج على مفرق رأسه [1] ليصبح كونراد اللاجئ السياسي الوحيد الذي لقى حتفه أثناء فترة لجوئه إلى الشرق اللاتيني .

---

(1) انقسم الصليبيون في النزاع بين كونراد وجى إلى قسمين، ففي حين أيد جى كل من الملك ريتشارد والبيازنة والداوية، أيد كونراد كل من فيليب أغسطس ملك فرنسا والجنوية ومعظم أمراء المملكة. ولمزيد من التفاصيل عن هذا الصراع راجع: ابن شداد: المصدر السابق ص98، 136، 161؛ العماد الكاتب: الفتح القسى في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح، القاهرة 1965م، ص89، 494، 526- 27؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج2، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1953م، ص284، 288، 359- 60.

راجع أيضاً:

Ambroise, op. cit., passim ; Eracles, op. cit., T. II, Passim ; Ernoule, op. cit., pp. 256- 7, 267- 8.

ولمزيد من التفاصيل عن أعمال كونراد في الشرق ومقتله راجع: إبراهيم خميس: الصراع على عرش مملكة بيت المقدس ومقتل كونراد دى مونتفرات 1188-

هـذا ولم يقتصـر اللجـوء السياسـى فـى الشـرق اللاتينـى علـى الرجال فحسـب، بل شاركتهم النساء ذلك الأمر أيضاً . وتُعد الأميرة جوليانا جارنييه GulianaGrenier سيدة قيسارية 1193 - 1213م / 589 - 610هـ نموذجاً واقعياً لذلك(1)؛ فالثابت أن صلاح الدين نجح فى 1187م / 583 هـ فى استرداد قيسارية من أيدى أميرها جوتييه الثانى Gautier II 1182 - 1187 م/ 578 - 583 هـ الذى لجأ إلى مدينة صور وأقام بها إلى أن جاءت الحملة الصليبية الثالثة فشارك فى حصار مدينة عكا، ولكنه قضى نحبه هناك(2).

وعندما نجح ريتشارد قلب الأسد فى استرداد قيسارية من أيدى المسلمين فى 31 أغسطس 1191 م/ 8 شعبان 587 هـ منحها

=1192م/ 584- 588هـ، "دراسات في تاريخ مصر البيزنطية"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1966، ص63- 81.

Cf. also, Louise and Jonathan Riley- smith, The Crusades Idea and Reality 1095- 1274, Edward Arnold, London, 1981, p. 21.

(1) تعد الأميرة جوليانا إحدى أميرات أسرة جارنييه التي منحها بلدوين حكم إقطاعية قيسارية 1110م/ 503هـ والجدير بالذكر أن الأميرة جوليانا تزوجت مرتين الأولى من جي سيد بيروت Gye of beirut والثانية من إيمار دى لايرون Aymar de Loiron بعد استعادتها لقيسارية 1193م/ 588هـ. ولمزيد من التفاصيل راجع:

Du Cange, op. cit., p. 279; cf. also, La Monte, op. cit., p.152.

انظر أيضاً: حسن عبد الوهاب: تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية 1990، ص76؛ أسامة زكى زيد: صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، الإسكندرية، 1981م، ص134.

(2) Du Cange, Loc. cit.,

ترجع بعض المراجع الغربية وفاة جوتييه الثاني في الفترة ما بين يوليو 1189 ويوليو 1191، عن ذلك انظر: Tibble, Op. Cit., P. 118.

للأمير جودفرى دى لوزينيان Godfrey de Lusignau شقيق جى Guy ملك بيت المقدس مخالفاً بذلك قانون الوراثة المعمول به فى المملكة؛ إذ كان ينبغى على الملك ريتشارد أن يُسلم قيسارية إلى الأميرة جوليانا بدلاً من الأمير جودفرى ؛ حيث أنها الوريثة الشرعية للإقطاعية بعد وفاة شقيقها جوتييه الثانى الذى لم يكن له وريثاً ذكراً يخلفه[1]. ولعل الملك ريتشارد رأى أن الظروف السياسية الراهنة لا تحتمل وجود سيدة على رأس الحكم، إذ لا تزال المعارك الضارية تدور رحاها بينه وبين صلاح الدين، ولم تضع الحرب أوزارها بعد، وليس بوسع جوليانا خوض غمار المعارك الحربية والتصدى لصلاح الدين ؛ لذلك آثر إسناد حكم قيسارية إلى الأمير جودفرى بدلاً منها لحاجة الإقطاعية الماسة لرجل يتولى حكمها وقيادتها فى تلك الفترة العصيبة .

لا جرم أن ما قام به الملك ريتشارد مهمًا كان مُبررًا يُعد انتهاكاً لقوانين الوراثة فى المملكة الصليبية، ولا شك أنه أثار حنق الأميرة جوليانا وغضبها مما دفعها إلى اللجوء إلى صلاح الدين طالبة حمايتها ومساعدتها فى استعادة إرثها . وقد رحب صلاح الدين بهذا اللجوء واعتبره فرصة لتعميق الخلافات بين الصليبيين بعضهم بعضاً. ومما يؤسف له حقاً أن المصادر المتاحة لم تمدنا بمعلومات توضح لنا أعمال الأميرة جوليانا إبان الفترة التى لجأت فيها للمسلمين - التى لا تقل بحال من الأحوال عن عام بأكمله- واكتفت بالإشارة إلى نجاح صلاح

---

(1) Ambroise, op. cit., p. 486.

ولمزيد من التفاصيل عن قوانين الوراثة ومشكلاتها فى بيت المقدس راجع: عبد الحفيظ محمد على: مشكلات الوراثة فى مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية 1131-1187 م، دار النهضة العربية للنشر والطبع، القاهرة، 1984، ص7- 14.

الدين فى إعادتها إلى حكم قيسارية ، ولعل ذلك تم أثناء المفاوضات التى جرت بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد وانتهت بصلح الرملة سبتمبر 1192م / شعبان 588 هـ ، وبذلك استعادت جوليانا حقها وعادت ثانية لحكم إقطاعيتها[1].

ومن العرض السابق يمكننا القول أن مصطلح "اللجوء السياسى" رغم أنه يبدو حديثًا نسبيًا فإن مدلولاته تنطبق تماماً على هذا النوع من اللجوء إبان الفترة موضوع الدراسة . وقد تركز فى الأغلب فى مملكة بيت المقدس دون غيرها من الإمارات الصليبية ؛ ولعل هذا أمر طبيعى نظراً لأن المملكة تُعد الأكبر والأقوى فى المنطقة التى بوسعها توفير الملجأ والحماية للاجئين السياسيين لما تتمتع به من نفوذ وقوة مقارنة بغيرها من الإمارات الصليبية . كما يمكننا القول أن دوافع اللجوء السياسى التى أوضحتها هذه الدراسة تكاد تكون هى نفسها فى عالمنا المعاصر.

---

(1) Eracles, Op. Cit., T. II, P. 138

الفصل الخامس

الدور السياسي للكردينال بلاجيوس في الحملة الصليبية الخامسة على مصر

1218 - 1221م / 615 - 618هـ

الحقيقة أن الحروب الصليبية ما هي إلا فكرة من بنات أفكار البابوية، فقد ولدت من رحمها، وهي التي دعت إليها وأعلنت عنها وتكفلت برعايتها، وبثت رجالها في أرجاء الغرب الأوربي يدعون إليها ليلاً ونهاراً . كما تأسست جماعات الرهبان العسكرية التي لعبت دوراً هاماً وخطيراً على مسرح الأحداث السياسية في الشرق اللاتيني إبان تلك الفترة . ولم تكن الشئون الدينية هي وحدها المهمة التي أضطلع بها رجال الدين في الحروب الصليبية فحسب، بل اضطلعوا كذلك بالشئون السياسية والعسكرية وكان لهم باع طويل في هذا المجال أيضاً، فقد اشترك العديد من رجال الدين والأساقفة في المعارك الحربية التي دارت رحاها في الشرق وخاضوا غمار حروبها واكتووا بنيرانها وقتل منهم من قتل، وأسر منهم من أسر [1]. ولعل ما قام به الكردينال بلاجيوس Cardinal Pelagius يعد نموذجاً حياً وتجسيداً حقيقياً لما اضطلع به رجال الدين من مهام .

---

(1) الجدير بالذكر أن رجال الدين على اختلاف رتبهم اشتركوا في كثير من المعارك التي دارت رحاها بين الصليبيين والمسلمين ، ومن تلك المعارك : معركة حران مايو 1104م / شعبان 497هـ حيث اشترك فيها كل من إبرمار بطريرق بيت المقدس و بندكت رئيس أساقفة الرها و برنارد بطريرق أنطاكية . ولمزيد من التفاصيل عن تلك المعركة ودور رجال الدين فيها راجع :

Matthieu d'Edesse ,op.cit., pp. 1 – 150, p. 72 ; Albert d'AIX,op.cit , pp. 265 – 713, pp. 614- 15 ; A.S.C. pp. 69 – 101, p. 80

انظر أيضاً : محمد محمد فرحات : معاقل أهالي الفرات بين المسلمين والصليبيين 1097 – 1151م / 491 – 546هـ ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، الإسكندرية ، 1988، ص 155 – 163.

واعتباراً من القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري، أخذ الغرب الأوربي يوجه ناظريه إلى مصر ويرسل إليها الحملات العسكرية الواحدة تلو الأخرى، لإدراكه أن مفاتيح بيت المقدس موجودة في هذه البلاد، وأن صلاح الدين لم يكن بوسعه تحقيق ما حققه من انتصارات إلا بعد استحواذه على مصر وتسخيره كافة إمكاناتها المادية والبشرية لصالح مشروعه الكبير. فلا عجب إذاً أن نرى الأساطيل الصليبية تمخر عباب البحر في طريقها إلى الأراضي المصرية في محاولة منها للاستيلاء عليها وانتزاعها من أيدي أهلها. وخير دليل على ذلك قيام الحملة الصليبية الخامسة وتوجهها أولاً إلى بلاد الشام ثم انتقالها بعد ذلك إلى الأراضي المصرية بقيادة جان دي برين الملك الإسمي لبيت المقدس، ثم لحاق الكردينال بلاجيوس وبقية القوات بالحملة فيما بعد[1]. فمن هو الكردينال بلاجيوس؟ وما هي ملامح شخصيته ؟ وما طبيعة الدور السياسي الذي اضطلع به إبان تلك الحملة ؟.

ولد بلاجيو جالفاني Pelagio Galvani - بلاجيوس - في مدينة صغيرة تدعى جماريز Guimaraes, بالقرب من براجا Braga بالبرتغال Portugal حوالي سنة 1165م. وهو ابن بدرو جالفيو Pedro

(1) ابن المقفع : تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة ، تحقيق : عبد العزيز جمال الدين ،10 ج، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، بدون تاريخ ، ج8، ص 99- 110ولمزيد من التفاصيل عن الحملة الصليبية الخامسة وأسباب قيامها والنتائج التي تمخضت عنها راجع : محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، حملة جان دي برين على مصر 1218 – 1221م / 615 – 618 هـ ، دار المعارف ، الإسكندرية ، 1985؛ محمد الشيخ : عصر الحروب الصليبية في الشرق ، الإسكندرية ، 1997، ص 445 – 469.

Galvão وماريا بيرس Maria Pires [1]. ونحن لا نعرف الكثير من حياته الأولى، بيد أنه التحق بالنظام البندكتي في دير القديس جريتا في سانتا مارينا دا كوستا Santa Marinha da Costa حوالي عام 1178 وهو في الثالثة عشرة من عمره[2]، ودرس اللاهوت في جامعة باريس، حيث كان زميلاً للدراسة لبابا المستقبل إنوسنت الثالث Innocent III (1198 – 1216م) [3]، ثم عاد بعد ذلك إلى البرتغال

---

(1) بلاجيو جلفاني هي الصيغة اللاتينية لاسم الكردينال بلاجيوس . وهناك عدة مسميات أخرى أوردتها المراجع منها : بلاجيو جلفاو Pelagio Galvao، بلايو جيتان Pelayo Gaytan، بلاجيو دي سانتا لوشيا Pelagio di Santa Lucia، بلاجيوس أوف ألبانو Pelagius of Albano، بلاجيوس أوف القديس لوشيا Pelagius of St. Lucia و بلاجيوس ألباسيس Pelagius Albanensis . انظر:

Holt, op. cit., p. 63 ; Antony Leopold,How to Recover the Holy Land ,Ashgate, Englad, 2000, p. 64.

(2) اختلفت المصادر في تحديد أصل الكردينال بلاجيوس ، فمنها من أرجعه إلى البرتغال، ومنها من ارجعه إلى أسبانيا ومنها من أرجعه إلى مدينة ليون بفرنسا . وللمزيد راجع :

Antonio García, La canonística ibérica (1150–1250) en la investigación reciente, (Bulletin of Medieval Canon Law), II, 1981, pp. 41–75, pp. 54–55.

انظر أيضاً : ريمون ستانتلوي : مفاتيح أورشليم القدس حملتان صليبيتان على مصر 1200 – 1250، ترجمة عايدة الباجوري ، مراجعة وتقديم : إسحق عبيد، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2004، ص101 – 102 ؛ رانسيمان : تاريخ الحملات الصليبية ، ترجمة : نور الدين خليل ، 3 ج، مكتبة الشروق ، القاهرة ، 1998،ج 3 ، ص 200.

(3) تبوأ منصب البابوية واحد من ألمع البابوات الذين تولوا هذا المنصب في العصور الوسطى وهو لوثر أوف سيجني Lother of segni الذي عرف باسم البابا=

حيث عمل محاضراً للاهوت. وقد أرسله الملك سانشو الأول Sancho I ليقدم فروض الطاعة للبابا إنوسنت الثالث، الذي أبقاه معه في روما، وظل يعمل بالبلاط البابوي Curia طوال الفترة الممتدة من 4 مايو 1207 إلى 26 يناير 1230م . وفي 1213 م ارسله البابا إنوسنت الثالث في مهمة دبلوماسية لمدة عامين لتسوية مسألة الكنائس اليونانية - الأرثوذكسية - في إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية، بيد أنه لم يصب نجاحاً إلا في إثارة المزيد من العداوة المريرة لروما . وبعد مضي ثلاث سنوات انتخب بطريرق لكنيسة أنطاكية، إلا أن الكنيسة المقدسة لم تصدق على انتخابه لهذا المنصب . وفي 1227 أشرف على انتخابات البابا جريجوري التاسع[1] . كما كان أحد قادة الجيش البابوي إبان الصراع مع الإمبراطور فردريك الثاني Fredrik II في

=إنوسنت الثالث . وهو ينحدر من عائلة رومانية عريقة هي عائلة كونتي Conti سادة مقاطعة سيجني ، وكان يبلغ السابعة والثلاثين من العمر حين تولي منصب البابوية ولمزيد من التفاصيل عن حياة البابا إنوسنت الثالث وشخصيته وأهم أعماله راجع :

Jane Sayers, InnocentIII , leader of Europ 1198 - 1216 , U . K . , 1994 , P. 16; Jacob E, InnocentIII, in C.M.H. ed . Hussey , London , 1975 , Vol . VI , P.P. 1-6; Scala Florance, Pope Innocent III, ed, Jonthan Riley Smith, in " The Oxford Illustrated History of the Crusades" Oxford University Press, 1995, pp. 116 – 117.

أنظر أيضا : محمد محمد فرحات : العلاقات بين البابوية والكنيسة الإنجليزية في ضوء خطابات البابا إنوسنت الثالث 1198 – 1216م ، الإنسانيات ، العدد 18، كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، فرع دمنهور ، 2004، ص 111 – 153.

(1) لمزيد من التفاصيل عن شخصية البابا جريجوري التاسع وأهم اعماله راجع :

Popes of Rome from Saint Peter , the First Bishop, to Pius the Ninth, the Present Pope , tr. From French of , L. Marie de Cormenin, vol, I, Philadelphia, 1851, pp. 467 – 72.

الفترة من 1229 – 1230م، وتوفي في مونت كاسينو Mounte Cassino في الثلاثين من يناير سنة 1230 م ، عن عمر يناهز الخامسة والستين ودفن هناك[1].

كان بلاجيوس رجلاً ذا شخصية قوية وإرادة صلبة، وكان متبحراً في العلوم اللاهوتية مثقفاً وعلى درجة عالية من الكفاءة الإدارية، بيد أنه كان مغروراً معتداً بنفسه متكبراً ومتشبثاً برأيه. وكان محباً للترف والبذخ، مفضلاً اللون الأحمر على سائر الألوان، فكان يحب إرتداء الملابس ذات اللون الأحمر من رأسه إلى أخمص قدميه، حتى أن سرج حصانه كان هو أيضاً من ذات اللون[2].

وفي سنة 1218م / 615هـ، قام البابا هونوريوس الثالث Honorius III. 1216 – 1227م بتعيين الكردينال بلاجيوس مندوباً بابوياً للحملة الصليبية الخامسة[3]، وكتب في 18 مايو 1218م / 20 صفر 615هـ إلى جان دي برين الملك الإسمي لبيت المقدس وجميع رجال الدين والأمراء الصليبيين بالشرق يخبرهم بذلك الأمر، ويطلب منهم طاعته وامتثال أوامره[4]. وفي 9 سبتمبر 1218 / 15 جماد الآخرة

---

(1) ولمزيد من التفاصيل عن شخصية الكردينال بلاجيوس ونشاطه راجع :

Peter Linehan, The Spanish Church and the Papacy in the 13th Century, Cambridge Uneversity Press, 1971.pp. 276 – 321.

(2) ريمون ستانبلوي : المرجع السابق ص101 – 02 ؛ رانسيمان : المرجع السابق ، ج3، ص 200.

(3) لمزيد من التفاصيل عن شخصية البابا هونوريوس الثالث راجع :

Popes of Rome , pp. 464 – 467.

(4) Oliver of Padenborn, The Capture of Damietta , tr. John J. Cavigan, Philadelphia, 1968, p. 29

615هـ وصل المندوب البابوي إلى جيزة دمياط مع إمدادات كبيرة من الصليبيين محمولة بحراً بعد قيام البابا بدفع مبلغ 20 ألف مارك فضي نظير نقلهم من برنديزي بجنوب إيطاليا حيث كانوا مجتمعين هناك منذ عام تقريباً(1).

وما أن وطأت أقدام الكردينال بلاجيوس أرض مصر حتى دخل في صراع مرير مع جان دي برين Jane de Brienne ملك بيت المقدس والقائد العسكري للحملة حول زعامة القوات الصليبية الأمر الذي أنذر بأوخم العواقب وألحق بالحملة الصليبية أبلغ الضرر إذ كان بلاجيوس متغطرساً بطبعه متعصباً لرأيه، وقد أعطى لنفسه سلطة تفوق بكثير السلطة التي خولها له البابا هونوريوس الثالث، وتعالى على الملك جان وأعلن أن الصليبيين جنود الرب ويجب ألا يخضعوا إلا لسلطة الكنيسة، وبالتالي فهم خاضعون له باعتباره ممثل البابا في الحملة. كما أنه لم يتقبل الملك جان دي برين قائداً للصليبيين، ولم ير فيه الشخصية التي بوسعها أن تجذب القوات الصليبية المتعددة الجنسيات حولها وليس ذلك فحسب، بل كان يرى أن جان دي برين ليس ملكاً حقيقياً بل مجرد وصي على ابنته الملكة إيزابيلا – يولاند – من زوجته الراحلة ماريا(2).

= انظر أيضاً: كلود كاهن: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، ط1، القاهرة، 1995، ص 236.

(1) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 29. cf. also, Robert Jones, A Brief History 1095 – 1291, 2004, p. 21; Proctor, History of the Crusades, Philadelphia, pp. 367 – 68.

وعن وصول الصليبيين إلى مصر وإقامتهم بجيزة دمياط راجع: الخريطة رقم (2)

(2) والجدير بالذكر أن جان دي برين حضر إلى عكا سنة 1210م، حيث تزوج من ماري ابنة الملكة إيزابيل، وبذا أصبح ملكاً على بيت المقدس. وكانت ماري=

وعلى ضوء هذه التفسيرات اعتبر بلاجيوس نفسه قائداً للحملة كلها ، وأعلن أنه عندما يأتي الإمبراطور فردريك الثاني – الذي وعد باللحاق بالحملة – ستسند إليه القيادة . وظل هذا الصراع قائماً طوال مدة بقاء الصليبيين في مصر ، وزاد من هذه المشكلة إنحياز رجال الدين والجماعات العسكرية الرهبانية والإيطاليين إلى جانب بلاجيوس ، وانضمام فرسان بيت المقدس والفرنسيين والإنجليز والألمان إلى صف الملك مما جعل الجبهة الصليبية تبدو وقد انقسمت إلى قسمين ، يخضع كل منهما لطرف من طرفي الصراع [1].

أخذ الصراع بين بلاجيوس والملك جان دي برين في التصاعد يوماً بعد يوم ، وزاد من حدته حالة الخمول النسبي التي سادت المعسكر الصليبي بعد استيلائهم على برج السلسلة في 24 أغسطس 1218م / 29 جماد الآخر 615هـ ، بالإضافة إلى فشل كافة العمليات العسكرية

=حين تزوجها جان دي برين في السابعة عشر من عمرها ، بيد إن المنية سرعان ما وافتها بعد وضعها لابنتها إيزابيل أو يولاند سنة 1212م ، فتولى جان الوصاية على ابنته لحين بلوغها سن الرشد وزواجها . وللمزيد راجع :

Eracles, op.cit., p. 407.

(1) والجدير بالذكر أن الإيطاليين إنحازوا إلى جانب بلاجيوس لأنهم كانوا يطمعون في احتكار التجارة مع مصر ، أما الداوية والاسبتارية فقد إنحازوا أيضاً إلى جانب بلاجيوس لأنهم كانوا يعلمون أن لا جدوى من اخذ القدس بدون الكرك والشوبك اللذين تتحكمان في الطريق التجاري الصحراوي إلى الأراضي المقدسة في مكة والمدينة . فضلاً عن أن بيت المقدس كانت خراب وأرض مفتوحة لا يمكن الدفاع عنها . وللمزيد راجع : محمود عمران : المرجع السابق ، ص210. محمد الشيخ : المرجع السابق ، ص 457. انظر أيضاً :

Proctor, op. cit., p. 369.

للعبور إلى الضفة الشرقية للنيل حيث تقع مدينة دمياط[1]. وقد أدى هذا الفشل إلى المناداة بزعامة جديدة تتولى قيادة الحملة، واستغل بلاجيوس هذه الحالة النفسية التي تسيطر على المعسكر الصليبي وتمكن من السيطرة على الموقف، وتولى أمر القيادة يسانده في ذلك كافة رجال الدين والجماعات العسكرية، وأعلن الصيام لمدة ثلاثة أيام متتالية داخل المعسكر الصليبي وأمر رجال الدين بالوقوف حفاة أمام الصليب مبتهلين للرب طالبين العون للقوات الصليبية[2].

لم تقف المصاعب التي واجهت الكردينال بلاجيوس عند فشل الصليبيين في الاستيلاء على مدينة دمياط فحسب، بل تعدى الأمر إلى تعرض الصليبيين أثناء مقامهم بمصر إلى عدة كوارث منها تلك العاصفة الهوجاء التي هبت في ليلة 29 نوفمبر 1218 دفعت بمياه البحر إلى المنطقة المنخفضة حيث يوجد المعسكر الصليبي، فاغرقت المياه كل الخيام، وأتلفت المؤن، ونفقت الخيول، وتحطمت سفن كثيرة، ودفعت المياه بسفن أخرى عبر النهر إلى معسكر المسلمين. وإزاء هذا

---

(1) ولمزيد من التفاصيل حول نجاح الصليبيين في الاستيلاء على برج السلسلة راجع: جاك دي فيتري: رسائل جاك دي فيتري دراسة وثائقية في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب 1200 – 1240، ترجمة وتعليق ودراسة: عبد اللطيف عبد الهادي السيد، بدون تاريخ، ص 103.- 104؛ ابن المقفع: المصدر السابق، ج8، ص 112 – 115، 117 – 20. انظر أيضاً: ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق: عماد الدين غانم، تقديم، نجاح صلاح الدين القابسي، منشورات الفاتح للجامعات، ليبيا، 1990، ص 314 – 315. انظر أيضاً صورة البرج في آخر البحث.

(2) جاك دي فيتري: المصدر السابق، ص 106. انظر أيضاً:
Louise and Jonathan Riley Smith, op. cit., p. 166.

الموقف العصيب أمر بلاجيوس ببناء حاجز على وجه السرعة واستخدم في بنائه كافة أنواع الحطام الذي نجم عن تلك العاصفة، سواء أكانت أشرعة سفن محطمة أوجثث خيول نافقة وغيرهما لزيادة تعلية الحاجز(1).

وقبل أن يكتمل إصلاح المعسكر تفشى في الجيش وباء خطير، فكان الصليبيون يعانون من حمى مرتفعة وتحولت جلودهم إلى اللون الأسود وحصد الوباء أرواح سدس الجنود على أقل تقدير، وبات الناجون من الوباء في حالة من الضعف والاكتئاب. وكان من حسن حظ الصليبيين أن عان المسلمون من مثل ما عان الصليبيون منه(2).

وفي الأول من فبراير 1219 م / 24 ذي القعدة 615هـ لاحظ بلاجيوس ارتفاع الروح المعنوية للجيش الصليبي وأن هناك نشاطاً ملحوظاً بين قواته، فأخذ يستعد للهجوم على المعسكر الإسلامي، وأعد لهذا الغرض قلعة عائمة أطلق عليها " الأم المقدسة "Holy Mother"، وهي عبارة عن ست سفن مثبتة مع بعضها البعض في شكل ثلاث صنوف متوازية. ثم ثبتوا عليها الصواري و زودوها بالآلات والرجال(3). وبدأ الهجوم على المعسكر الإسلامي عن طريق الخليج الأزرق يوم السبت الموافق 2 فبراير 1219م / 25 ذي القعدة 615هـ وتصدت لهم القوات الإسلامية وأجبرتهم على العودة من حيث أتوا. وعندما حاول الصليبيون

---

(1) ابن المقفع : المصدر السابق، ج8، ص 130 – 131؛جاك دي فيتري : المصدر السابق، ص 105.

(2) Oliver of Padenborn, op. cit., pp. 32 – 3 ; Roger of Wondover, op. cit., p. 413. Louise and Jonathan Riley Smith, op. cit., p.167.

(3) ابن المقفع : المصدر السابق، ج8،ص 132.

إعادة الكرة مرة أخرى، عملت الرياح العاتية التي هبت والأمطار الغزيرة التي هطلت على إرجاء الهجوم لوقت لاحق تكون فيه الظروف المناخية أكثر مواتاة [1].

ونتيجة لسقوط برج السلسلة في أيدي الصليبيين، وأمام محاولاتهم المتكررة ضد دمياط، وخشية أن تسقط المدينة في أيديهم، تقدم الملك الكامل محمد (1218- 1238م / 615 – 635هـ) بعرض الصلح على الصليبيين، فعرض عليهم التنازل عن كل ما فتحه صلاح الدين من مدن بما فيها بيت المقدس باستثناء قلعتي الكرك والشوبك، مقابل الرحيل عن دمياط [2] بيد أن الكردينال بلاجيوس رفض هذا العرض، في حين قبله جان دي برين ملك بيت المقدس [3].

---

(1) Oliver of Padenborn, op. cit., pp. 33 – 4 ; Roger of Wondover, op. cit., vol. 2, p. 415 .

انظر أيضاً : ماير : المرجع السابق ، ص 315 – 16.

(2) ولعل من أهم الأسباب التي حدت بالكامل محمد لعرض الصلح على الصليبيين أنه كان على علم بما عليه دمياط من وضع حرج خاصة بعد عجزه عن توصيل النجدات العسكرية إليها وقطع الإمدادات عنها منذ عدة أشهر . وكان يأمل في إمكانية التفاوض والانتهاء إلى حل قبل سقوط المدينة التي سوف يزيد استلامها من مطامع الفرنجة . ولمزيد من التفاصيل عن أوضاع دمياط أثناء حصار الصليبيين راجع : جاك دي فيتري : المصدر السابق ، ص 108 – 109؛ ابن المقفع : المصدر السابق ، ج8، ص160. انظر أيضاً : عبد اللطيف عبد الهادي: الحروب الصليبية من خلال كتابات جاك دي فيتري خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر 1201 – 1240م ، المكتب الجامعي الحديث، 2006، ص 172.

(3) Eracles, op. Cit., pp. 338 -39; Cf. also, Holt, op. cit., p. 63.

انظر أيضاً : محمود عمران : المرجع السابق ، ص239.

أخذت القوات الصليبية المرابطة أمام دمياط تتململ من طول مقامها قبالة المدينة دون أن تتمكن من إقتحامها وأبدوا تذمرهم من طول فترة الحصار التي امتدت لخمسة عشر شهراً، مما دفع بأعداد كبيرة من الصليبيين إلى التفكير بالعودة إلى بلادهم معتقدين أنهم بروا بقسمهم الصليبي بعد استيلائهم على برج السلسلة، إلا أن المندوب البابوي بلاجيوس عمل على منع رحيل هذه القوات، واستعمل كل سلطاته للحيلولة دون ذلك أو على الأقل تأجيل رحيلهم، ولكن ذهبت جهوده أدراج الرياح ولم تفلح في تخويف أو إقناع الصليبيين بالعدول عن الرحيل إلى أوطانهم(1).

كان على قادة الحملة أن يهدئوا من روع الصليبيين، ويمتصوا غضبهم عن طريق القيام بعمل حربي ضد المسلمين. ففي 26 مايو 1219 / 10 ربيع أول سنة 616هـ، اقترح جان دي برين شن هجوم كبير على دمياط والمعسكر الإسلامي في وقت واحد، بيد أن المندوب البابوي رفض الإقتراح، وبدلاً من ذلك شن الصليبيون هجوماً برياً عنيفاً على دمياط، بيد أن الحامية الإسلامية الموجودة بها تمكنت من التصدي له، الأمر الذي دفع بالكردينال بلاجيوس أن يقود حملة بحرية ضد المدينة بعد فشل الهجوم البري عليها، ولكن تمكنت الحامية الإسلامية المرابطة في دمياط من صد هذا الهجوم أيضاً مستعينة في ذلك بالنار الإغريقية التي كبدت الصليبيين خسائر فادحة، وعادت السفن الصليبية خائبة من حيث أتت(2).

---

(1) جاك دي فيتري: المصدر السابق، ص 112. انظر أيضاً: ماير: المرجع السابق، ص 316.

(2) ابن المقفع: المصدر السابق، ج8،ص155. انظر أيضاً:
Antony Leopold, op. cit., p. 93.

استغل المسلمون سوء الأوضاع التي تدور داخل المعسكر الصليبي، وأخذوا يشددون من هجماتهم عليه منزلين بالصليبيين قاصم ضرباتهم[1]، وأمام ازدياد الهجمات الإسلامية، اقترح الملك جان دي برين تشديد الهجوم على دمياط، في حين أقترح الكردينال بلاجيوس مهاجمة معسكر المسلمين في فرسكور، وانقسم الصليبيون إلى حزبين، حزب يؤيد بلاجيوس، وحزب يؤيد جان دي برين، وقد انتصر رأي بلاجيوس، وتم الزحف على المعسكر الإسلامي في فرسكور، الذي تركه المسلمون خالياً خدعة للصليبيين . وعندما وصل الصليبيون إلى المعسكر وجدوه خالياً تماماً من المسلمين فاستولوا عليه في 29 أغسطس 1219 / 16 جماد ثان 616هـ . وبينما كان الصليبيون يتداولون في أمر البقاء في المعسكر تلك الليلة أو العودة ثانية إلى معسكرهم، إذا بالمسلمين يباغتونهم وينزلون بهم أشد الهزيمة . وقد أسهبت المصادر الغربية في ذكر تفاصيل تلك المعركة مثل تاريخ هرقل وروجر أوف وندوفر[2].

ورغم الانتصار الكبير الذي أحرزه المسلمون على الصليبيين في فارسكور إلا أن الملك الكامل جدد عرض الصلح السابق عليهم، إلا أن بلاجيوس رفض هذا العرض أيضاً، بينما قبله الملك جان دي برين[3].

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن تلك العمليات العسكرية راجع : جاك دي فيتري : المصدر السابق ، ص110 – 12؛ ابن المقفع : المصدر السابق ، ج8،ص157 – 158.

(2) Roger of Wondover, op. cit., vol. 2, p. 418; Eracles, op. Cit., p.340.

(3) Oliver of Padenborn, op. cit., p341; Letter of Hermann of Salza , Annales Melrosenes, in (M.G.H., SS.,) vol. 27, p. 439; Eracles, op. Cit., p. 34.

=

وعلى الرغم من المحاولات الفاشلة التي شنها الصليبيون على دمياط للاستيلاء عليها، إلا أن اليأس لم يتسرب إلى قلب الكردينال بلاجيوس، بل أصر في عناد على ضرورة إسقاط المدينة مهما كانت التضحيات. والحقيقة أن الفضل يرجع إليه في استيلاء الصليبيين على دمياط، فقد قاد في 5 نوفمبر 1219 / 25 شعبان 616هـ فرقة مختارة من الصليبيين، واستطاع أن يجتاز بهم الخندق الذي كان يحيط بدمياط ويصل إلى أسوار المدينة ويدخلها دون مقاومة من أهلها، الذين كان قد أصابهم الوهن بسبب تفشي الطاعون في أرجاء المدينة، وقضى على معظم أهلها ولم يبق منهم سوى عدة ألوف لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة بعد أن كان عددهم عند بداية الحصار يبلغ 60 ألف مقاتل[1].

وعندما دخل الصليبيون دمياط وجدوها مدينة للأشباح؛ فجثث الموتى غصت بها الشوارع والطرقات، وقد انبعثت منها روائح كريهة لعدم وجود من يقوم بدفنها، كما وجدوا الأطفال في أحضان أمهاتهم يطلبون منهن الطعام ولا يعرفون أنهن فارقن الحياة، وغير ذلك من مناظر تتفطر من قسوتها القلوب، وقد ضربنا عن ذكرها صفحاً لقسوة بشاعتها، ومع ذلك لم يرقب الصليبيون في أهالي دمياط الذين بقوا على

= انظر أيضاً: حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة حوالي 1190 – 1291م / 586 – 690هـ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989، ص 167.

(1) جاك دي فيتري: المصدر السابق، ص110 – 112؛ ابن المقفع: المصدر السابق، ج8،ص160، 165. انظر أيضاً: Holt, op. cit., p. 63

قيد الحياة إلاً ولا ذمة، ولم يرعوا صغيراً ولا كبيراً، بل بذلوا سيوفهم في كل ما كان يتحرك داخل المدينة [1].

ويا ليت الأمر توقف عند ذلك فحسب، بل قام الصليبيون بتحويل مسجد دمياط الكبير إلى كنيسة، واقترفوا أبشع الجرائم داخله، فاغتصبوا النساء المسلمات، ودنسوا بأقدامهم الكتب الدينية ومزقوا المصاحف، كما قاموا بتعميد أكثر من 400 طفل من أطفال المسلمين وغير ذلك من جرائم يندى لها الجبين [2].

والسؤال الذي يطرح نفسه على بساط البحث أين كان رجال الدين الصليبيين وما كان موقفهم من تلك الجرائم التي أرتكبت في حق مسلمي دمياط ؟ الحقيقة إن تلك الجرائم التي ارتكبها الصليبيون تحت سمع و بصر رجال الدين وعلى رأسهم المندوب البابوي بلاجيوس بل بمباركة منه، رغم أنه لا يوجد دين وضعي ولا سماوي يقر بهذه الجرائم الشنيعة التي تعد في أيامنا هذه بمثابة جرائم حرب ضد الإنسانية وتطهير عرقي.

ومهما يكن من أمر، تجدد الخلاف مرة أخرى بين بلاجيوس والملك جان دي برين حول ملكية مدينة دمياط. فرأى جان

---

(1) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان : ج8، ق. 2،حيدر أباد، الدكن، 1951، ص 603 ؛ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، 2ج في مجلد واحد، القاهرة، مطبعة وادي النيل، 1287 – 1288هـ، ج1، ص 117؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، نشره وعلق عليه : محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1934، ج1، ق.1، ص 202.

(2) Oliver of Padenborn, op. cit., pp48 – 54

انظر أيضاً : ريمون ستانلوي : المرجع السابق، ص 135 – 136.

دي بـرين أنها تئول إلى مملكة بيت المقدس بينما رأى بلاجيوس أنها تئول إلى الكنيسـة الغربيـة علـى اعتبـار أنـه هـو السبب الرئيسـي في الاستيلاء عليها . إلا أن البابا قضى بأن تئول ملكيتها إلى مملكـة بيت المقدس، مما أوغـر صـدر الكردينـال بلاجيوس ضـد الملـك جـان دي برين[1] . وزاد من حنق المندوب البابوي أيضاً، الاختلاف حول ما ينبغـي عمله بعد الاستيلاء على دمياط : ففـي حـين رأى بلاجيوس أن تواصل القوات الصليبية الزحف مباشرة صوب القاهرة دون إبطاء، مستغلة حالة الفوضى والارتبـاك الـتي تسـود المعسـكر الإسـلامي، رأى الملـك جـان ضرورة البقـاء في دمياط وتحصينها ريثما يحضـر الإمبراطـور فردريـك الثـاني . وقد تغلب رأي الملك على رأي بلاجيوس الـذي كـن لـه الحقـد والكراهية[2].

أخذ الكردينـال بلاجيوس يكيـد للملـك جـان كيداً، وعمـل بشتى الوسـائل للهيمنـة علـى مقـدرات الحملـة، والجمـع بـين السـلطتين الروحية والزمنية، مما أحرج كثيراً من موقف الملك جان، الـذي قـرر مغـادرة المعسـكر الصليبي بـدمياط والعـودة إلى عكـا حتـى يتجنـب الدخول في نـزاع جديـد مـع بلاجيوس . وبـذا تمكـن الأخير مـن فـرض سيطرته على القوات الصليبية وأصبحت كلمته هي العليا[3].

---

(1) Eracles, op. Cit., pp. 348-49; Oliver of Padchborn, op. cit., p55.

(2) Chronique de Tours, d'Auteur Inconnu et se Terminant en1227, Cf, Y.Kamal, Mon. Carn. T.III. fasc. IV, 1934, p. 938.

انظر أيضاً : محمود عمران : المرجع السابق ، ص 296.

(3) والجدير بالذكر أن الملك جان دي برين رحل عن دمياط للمطالبة بحق زوجتـه الأرمينية في وراثة عرش أبيها ففي أوائل صيف 1219 مات ليو الثـاني ملـك أرمينيا تاركاً بنتين كانت كبراهما ستيفاني زوجـة جـان دي بـرين ، وكانـت الصغرى إيزابيلا ابنة الأميرة سيبلا أميرة قبرص والقدس ، كانت في الرابعة=

لم يعن انسحاب الملك جان دي برين وعودته إلى عكا صفاء الجو للكردينال بلاجيوس، وأن الأمور أخذت تسير في صالحه، بل على العكس تماماً فقد واجه صعوبات كثيرة منها رغبة العديد من الصليبيين العودة إلى بلادهم ومغادرة المعسكر الصليبي بدمياط، ولم تفلح جهوده في الحد من تلك الرغبة، وذهبت جهوده أدراج الرياح، وأضرت القيود التي فرضها على حركة السفن اللاتينية بالبحرية الصليبية أكثر مما أفادتها، بل حرمت القوات الصليبية في دمياط من الإمدادات التي كانت تأتي إليها من قبرص، كما أن تلك القيود لم تأت بالنتيجة المرجوة التي أرادها بلاجيوس. ورغم ما قام به من مجهودات للمحافظة على تماسك الحملة، إلا أن أعداداً كبيرة من الصليبيين أخذت تشق طريق العودة إلى الغرب، مما أثر سلباً على معنويات الجنود[1]. كما أثر سلباً على الموارد المالية حيث لم يبق

من عمرها، وحين لبي وهو على فراش الموت ابنته الصغرى ووريثة له. وعلى الفور تقدم جان بالمطالبة بالعرش باسم زوجته وابنهما الرضيع. وفي فبراير 1220 تسلم إذن من البابا بمغادرة الحملة وزيارة أرمينيا، وكانت علاقته ببلاجيوس سيئة ولم يكن هناك مغزى لبقائه في المعسكر الصليبي، ومن ثم منح البابا الآن صراحة كامل القيادة لبلاجيوس، ورحل جان إلى عكا، وبينما هو يتأهب للإبحار لقليقيا ماتت زوجته الأرمينية، وراجت الشائعات أن موتها جاء نتيجة لسوء معاملته لها وبعد أسابيع قليلة مات ابنهما الصغير ومن ثم لم يعد لجان أي مطالبات بالعرش الأرميني، ومع ذلك لم يعد إلى مصر بل ظل في عكا.وللمزيد انظر :

Eracles, op. Cit., p. 347; Olivet of Padenborn, op. cit., p.63.

انظر أيضاً : حسن عبد الوهاب : المرجع السابق، ص 168.

(1) انظر أيضاً : جاك دي فيتري : المصدر السابق، ص 112.

بدمياط سوى أعداد قليلة ممن يستطيعون الإنفاق على متطلبات الحملة . وقد قام بلاجيوس إنقاذاً للموقف بتقديم كل ما في وسعه من أموال للإنفاق على القوات الصليبية [1].

ورغم أن أعداداً كبيرة من الصليبيين آثرت العودة إلى بلادهم، إلا أنه في المقابل لم تنقطع الإمدادات التي كانت تأتي من الغرب، إذ أخذت أعداد غفيرة من الصليبيين تفد تباعاً على دمياط، وحاول بلاجيوس أن يستفيد من تلك الإمدادات للقيام بالزحف صوب القاهرة . ففي مارس 1220/ محرم 617هـ، أراد المندوب البابوي استغلال ما وصل إلى معسكره من قوات جديدة من الغرب والزحف بهم صوب القاهرة، بيد أن جهوده لم تكلل بالنجاح نتيجة اختلاف الآراء في المعسكر الصليبي، وامتناع القوات التابعة للملك جان دي برين عن الامتثال لأوامره، وإصرارهم على أنهم جنود الملك ولا يأتمرون إلا بأمره، ولا يمكنهم القيام بأي عمل عسكري أثناء غيابه بعكا، بل قام عدد كبير منهم بمغادرة المعسكر الصليبي والعودة إلى بلادهم[2] .

وفي يوليو 1220 / جماد الأولى 617هـ وصلت بعض الإمدادات الجديدة إلى دمياط وعلى رأسهم متى كونت أبوليا ومعه ثمان سفن أرسلها الإمبراطور فردريك الثاني، وحاول بلاجيوس مرة أخرى الاستفادة من تلك القوات في الزحف تجاه القاهرة، إلا أن القوات الفرنسية

= Roger of Wondover, op. cit., vol. 2, p. 426.cf. also, Louise and Jonathan Riley Smith, op. cit., p. 167.

(1) Oliver of Padenborn, op. cit., p.67 – 8 Roger of Wondover, op. cit., vol. 2, p. 426

(2) Roger of Wondover, op. cit., vol. 2, pp. 436 – 439; Oliver of Padenborn, op. cit., p.61

انظر أيضاً : ابن المقفع : المصدر السابق ، ج8،ص186.

والإنجليزية والألمانية لم توافقه على ذلك، بل وتمردت عليه وهددت بترك المعسكر الصليبي والعودة إلى بلادها . وأمام عناد تلك القوات، اقترح بلاجيوس تشكيل حملة فرعية من القوات الموالية له يتولى هو قيادتها بنفسه ويتجه بها صوب القاهرة، بيد أن محاولته تلك لم تكتب لها النجاح لتزمر القوات المناوئة له [1]، فعمد إلى الهجوم على مدينة البرلس عوضاً عن ذلك، فقام فرسان الجماعات العسكرية في نفس الشهر بالزحف عليها واقتحامها وعاثوا خلال ديارها ينهبون ويسلبون كل ما يقع تحت أيديهم، ولكنهم وقعوا في كمين نصبته لهم القوات الإسلامية لدى عودتهم وهم محملون بالغنائم والأسلاب، فوقع عدد كبير منهم في الأسر بينما قتل عدد آخر [2].

على أية حال، أصبح المعسكر الصليبي في حاجة ماسة إلى إعادة تنظيم خاصة بعدما عمت فيه الفوضى وانتشرت الموبقات واقترفت الرذائل. وحتى يمكن المحافظة على هيبة الصليبيين والهدف الذي خرجوا من أجله، قام الكردينال بلاجيوس بإعادة تنظيم قوات الحملة من جديد؛ فأصدر الأوامر الصارمة التي تحظر على أي فرد ارتياد حانات الشراب أو ممارسة لعب الميسر وفرض العقوبات المالية على مرتكبي هذه الأعمال [3]. كما عين 12 قاضياً لمحاكمة اللصوص

---

(1) Oliver of Padenborn, op. cit., pp.62-3

(2) ابن العماد شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 8ج، القاهرة، 1340 – 1351هـ، ج5، ص 71؛ الذهبي : دول الإسلام 3ج، حيدر أباد، الدكن، 1337هـ، ج3، ص 90. انظر أيضاً : حسن عبد الوهاب : المرجع السابق، ص 169.

(3) جاك دي فيتري : المصدر السابق ، ص 107. انظر أيضاً :
Eracles, op. Cit., p. 348; Oliver of Padenborn, op. cit., pp.64 – 5.

والسفاحين وغيرهم من سفلة الصليبيين . ونجح بلاجيوس في إعادة النظام إلى المعسكر الصليبي، واستجابت القوات الصليبية لتعليماته استجابة كاملة واضطرت العاهرات إلى ترك المعسكر الصليبي في المدة التي حددت لهن، وكان الصليبيون يعاقبون بالجلد كل من يلقى عليهما القبض داخل المعسكر، ووضع علامات معينة على جباههن مستعملين في ذلك قضبان الحديد المحمي . وبدأ الصليبيون في التوبة والاعتراف بخطاياهم وتحولوا إلى نوع آخر من الرجال، وأحاط الجلال والوقار بالجيش الصليبي وفق رواية جاك دي فتري . وحتى لا يعود الصليبيون إلى ممارسة رذائلهم السابقة، فقد شغلهم الكردينال بلاجيوس بإصلاح وتوسيع شوارع المدينة(1).

وواكب إعادة تنظيم المعسكر الصليبي، إعلان البابا هونوريوس الثالث عن حضور الإمبراطور فردريك الثاني إلى روما في نوفمبر 1220م / رمضان 617هـ وقيام البابا بتتويجه مع زوجته كونستانس إمبراطوراً على ألمانيا، وأكد فردريك وعده بالتوجه إلى الشرق في ربيع 1221م / 618هـ، مما رفع كثيراً من معنويات القوات الصليبية . ورغم ذلك فإن البابا أمر بلاجيوس بعدم رفض أي عرض للصلح يتقدم به الكامل إلا بعد عرضه عليه(2).

وفي يونيو 1221م / جمادى الأولى 618هـ وبعد وصول إمدادات كبيرة من الغرب ومملكة بيت المقدس قرر بلاجيوس الزحف صوب القاهرة، وأيده في ذلك الصليبيون الجدد وعلى رأسهم لويس دوق بافاريا

---

(1) جاك دي فيتري : المصدر السابق ، ص 107،انظر أيضاً :
Louise and Jonathan Riley Smith, op. cit., p. 168.
(2) Roger of Wondover, op. cit., vol. 2, p. 436
انظر أيضاً : ابن المقفع : المصدر السابق ، ج8، ص 162

الذي كان يرى الإسراع في مهاجمة القوات الإسلامية قبل حلول موعد الفيضان متجاهلا في ذلك تعليمات الإمبراطور فردريك التي كانت تقضي بعدم شن هجوم كبير على المسلمين حتى يلحق بهم، وكذلك أيده رجال الدين الذين بالمعسكر الصليبي . واتخذ هذا القرار أثناء غياب الملك جان دي برين في عكا، ولعل بلاجيوس قصد من وراء ذلك أن ينسب إليه النصر – الذي افترضه مقدماً للحملة – ليعلي به من شأنه وشأن الكنيسة اللاتينية باعتباره ممثلا لها، ولكن القادة العسكرين عارضوا هذا الرأي وأصروا على إرجاء الزحف على القاهرة حتى حضور الملك جان من عكا، وإزاء إصرار القادة على رأيهم إنصاع بلاجيوس لطلبهم وأرسل سفارة رسمية إلى الملك في عكا ليثبت حسن نواياه تجاه الحملة والكنيسة معا، ولم يوافق الملك على الحضور إلا بعد أن وعده بلاجيوس بمزيد من السلطة على الجيش الصليبي في دمياط [1].

لم ينتظر بلاجيوس مجيء الملك جان من عكا، بل أمر الجيش بالاستعداد للزحف على القوات الإسلامية المرابطة في المنصورة، وفي 29 يونيو 1221م / 7 جماد الأولى 618هـ، أصبح الجيش الفرنجي على أهبة الاستعداد، وانتقل من دمياط إلى معسكره الكائن خارج المدينة – العادلية – استعدادا للتقدم صوب المنصورة بحذاء النيل . واستعمل بلاجيوس سلطته الروحية وهدد بإنزال قرار الحرمان ضد من يعارض تنفيذ هذه التعليمات، وظل الجيش الصليبي خارج دمياط أربعة أيام في

(1) Eracles, op. Cit., p. 349; Roger of Wondover, op. cit., vol. 2, p.437; Oliver of Padenborn, op. cit., pp.67 - 8; Chronique de Tours, op. cit., P.938.

انظر أيضاً : ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج4، تحقيق حسنين ربيع ، دار الكتب، القاهرة ، 1972، ج4 ، ص 92 .

انتظار وصول الملك جان دي برين [1]. ولكي يعد المندوب البابوي الجيش روحيا للمعركة المرتقبة؛ أمر في 6 يوليو 1221 / 14 جماد الأولى 618 بالصيام لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم التالي وصل الملك جان من عكا [2].

ما كادت أقدام جان دي برين تطأ أرض المعسكر الصليبي؛ حتى تجدد النزاع مرة أخرى بينه وبين بلاجيوس، الذي رأى ضرورة الإسراع بالزحف صوب القاهرة خاصة بعد الهزائم المتتالية التي ألمت بالمسلمين . بينما رأى الملك ضرورة الانتظار حتى مجيء الإمبراطور فردريك الثاني وبقية القوات وعدم الزحف صوب القاهرة في ذلك الوقت نظرا لقرب موعد فيضان النيل؛ لأنه سيصعب على الجيش الصليبي في تلك الحالة الاتصال بقاعدته في دمياط برا أو بحراً . إلا أن بلاجيوس أصر على رأيه ومعارضة الملك جان دي برين . ولكي يلزم الجميع بالانصياع إلى أوامره هدد المندوب البابوي بإنزال قرار الحرمان ضد أي إنسان يخالف أوامره، ولهذا رضخ الملك في نهاية المطاف إلى رأي بلاجيوس [3].

على أية حال، زحف الصليبيون من دمياط صوب المنصورة التي تبعد مسيرة يوم واحد، وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة شارمساح، وهناك ألح الملك جان دي برين على بلاجيوس بعدم التقدم أكثر من

(1) Felix Fabri, The Book of Wandering 1480 – 1483, tr. Stewart , 2vols., 4 parts, London, 1893, vol.2, part 1, p 390; Eracles, op. Cit., p. 349; Roger of Wondover, op. cit., vol. 2, p. 437.
(2) Eracles, op. Cit., p. 350
انظر أيضاً : محمد الشيخ : المرجع السابق ؛ ص 464 – 465.
(3) Oliver of Padenborn, op. cit ., pp.70- 71 ; Felix Fabri, Op. cit., vol. 2 part 1,p. 306.

ذلك، لحلول وقت الفيضان، كما أشار عليه بضرورة حراسة بحر المحلة بعدد من السفن لحماية الأسطول الصليبي من خطر مباغتة الأسطول الإسلامي، إلا أن بلاجيوس لم يعر نصيحة الملك أية اهتمام، واضطر الصليبيون أمام صلف وتعجرف المندوب البابوي إلى التقدم حتى وصلوا إلى طرف جزيرة دمياط، حيث أقاموا معسكرهم هناك دون مقاومة تذكر من قبل المسلمين وذلك في 24 يوليو / 2 جماد الآخرة[1]. وفي المقابل جمع الكامل القوات من كل مكان في مصر، كما وصلت إليه النجدات من إخوته ببلاد الشام المعظم عيسى والأشرف موسى وغيرهما[2].

وعقب استيلاء الصليبيين على شارمساح، تقدم الكامل محمد للمرة الثالثة بعرض للصلح على الصليبيين، وكان سخياً هذه المرة في عرضه ؛ فاقترح عليهم التنازل عن كل فتوحات صلاح الدين باستثناء قلعتي الكرك والشوبك ووافق أن يدفع عنهما مبلغ 15 ألف دينار، وأبدى استعداده لدفع تكاليف إعادة ترميم بيت المقدس والقلاع الصليبية الأخرى التي خربت في بلاد الشام، وأن يترك احتساب تلك التكاليف إلى لجنة رباعية تتألف من اثنين من المسلمين وآخرين من الصليبيين، كما اقترح أن تعقد هدنة مدتها 30 سنة وذلك مقابل جلاء

---

(1) ابن المقفع : المصدر السابق ، ج8ص201

(2) Oliver of Padenborn, op. cit., p.81 Roger of Wondover, op. cit., vol. 2, p. 437.

انظر أيضاً : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، 12 ج، ليدن ، 1853 ، ج12، ص 214؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج1، ق. 1، ص 208؛ سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج8، ق. 2، ص 619 – 620؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج4، ص 93 .

الصليبيين عن دمياط، وضماناً لتنفيذ ذلك تعهد الكامل بتقديم عشرين رهينة من أقاربه ليحتفظ بها الصليبيون مدة سنتين يتم خلالها تحصين القلاع التي خربت. كما عرض عليهم أيضاً إعادة صليب الصلبوت وكذلك جميع الأسرى الفرنج الذين لا يزالون في حوزة المسلمين. وفي حين قبل الملك جان دي برين العرض، رفضه بلاجيوس– كما رفض العرضين السابقين – معتمدا على موقف الصليبيين الحربي وقرب وصول الإمبراطور فردريك الثاني، وبذا خالف أوامر البابا هونوريوس التي تقضي بعدم رفض أية مبادرة للصلح إلا بعد عرضها عليه [1].

ومهما يكن من أمر، ظل الصليبيون قرابة شهر في معسكرهم دون أن يجرؤوا على مهاجمة المسلمين، مما أدى إلى تململ أعداد كبيرة منهم فقررت العودة ثانية إلى دمياط، وقدر عددهم بنحو 10 آلاف مقاتل مما أوهن كثيرا من عزيمة الجيش الصليبي [2] هذا من جهة، ومن جهة أخرى استعد المسلمون استعداداً كاملاً للمعركة المرتقبة مع الصليبيين، وقام الكامل بوضع قوات إسلامية خلف خطوط الصليبيين كما أرسل عدداً من السفن إلى بحر المحلة، وتمكنت من قطع خطوط العودة إلى دمياط وأنزلت بالبحرية الصليبية أبلغ الضرر [3]. كما استغل

---

(1) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج12، ص 214؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج1، ق. 1، ص 208. انظر أيضاً:

Oliver of Padenborn, op. cit., p.83. cf. also, Holt, op. cit., p. 64.

(2) Roger of Wondover, op. cit., vol. 2, p. 437; Eracles, op. Cit., p.350. cf., Robert Jones, op. cit., p. 21; Holt, op. cit., p. 63.

(3) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج12، ص 214؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج1، ق. 1، ص 206؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج4، ص 95؛ ابن المقفع: المصدر السابق، ج3، ص190. انظر أيضاً: ماير : المرجع السابق، ص317.

الكامل فيضان النيل وارتفاع منسوب المياه فأمر بعض من عساكره بقطع الجسور والقنوات فاندفعت المياه بكميات هائلة إلى داخل المعسكر الصليبي فأحالته إلى بركة من المياه والطمي . ولم يكن أمام الصليبيين سوى أحد أمرين إما الاستسلام للكامل محمد وإما المغامرة والالتحام مع المسلمين الذين سدوا عليهم طريق العودة إلى دمياط، فاختاروا الأمر الأخير، إلا أنهم لم يتمكنوا من الوقوف في وجه القوات الإسلامية وتعذر عليهم المناورة لأن الأرض تحولت إلى وحل . وفي النهاية لم يكن أمام الكردينال بلاجيوس سوى الاستسلام للكامل محمد، وطلب الأمان منه [1].

شاور الكامل محمد إخوته في طلب الصليبيين الاستسلام، فرفضوا ذلك الطلب لحرج موقف الصليبيين العسكري [2]، إلا أن الكامل وافق على عقد الصلح معهم في نهاية المطاف وكانت حجته في ذلك أن الغرب الأوربي لن يتقبل إبادة الجيش الصليبي في مصر، وسيعمل جاهداً على الثأر لتلك الهزيمة بإرساله حملات أخرى ربما تفوق في عددها وعدتها تلك الحملة، وهذا أمر لا طاقة له به، زد على ذلك أن الأخبار ترامت إلى الملك الكامل بخروج جانكيز خان المغولي بقوات

(1) Oliver of Padenborn, op. cit., p.85; Roger of Wendover, op. cit., vol. 2, p. 438; Eracles, op. Cit., p. 351.

انظر أيضاً : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج12، ص 215؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج4، ص 96.وعن وضع الصليبيين الحرج انظر : الخريطة في آخر البحث .

(2) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، 4ج ، دار الطباعة الشاهنية ، الأستانة ، 1286، ج3، ص 136 ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج4، ص 97؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج1، ق.1، ص 208

لا تحصى متوجهاً إلى الشرق، فخشي أن يقع بين نارين، نار الصليبيين بالداخل، ونار المغول بالخارج [1]. كما كانت الأخبار ترد إليه تباعاً بقرب وصول الإمبراطور فردريك الثاني إلى دمياط، وبذا تقوى شوكة الفرنج . وعليه قبل عرض الصليبيين للصلح [2] .

وتم الاتفاق على تسليم الصليبيين دمياط ورحيل الحملة عن مصر وتبادل الأسرى بين الجانبين وعقد هدنة مدتها ثمان سنوات، وأن يقوم الكامل بمد الصليبيين بالمؤن التي يحتاجونها حتى يتمكنوا من العودة إلى بلادهم، كما اتفق على تسليم الرهائن من الجانبين، وكان من بين رهائن الصليبيين، الكردينال بلاجيوس والملك جان دي برين [3]. وفي يوم الخميس الموافق 8 سبتمبر 1221م / 29 رجب 618هـ تسلم المسلمون دمياط، وتم إطلاق سراح الأسرى من الجانبين [4]. وبذا يسدل الستار على أحداث الحملة الصليبية الخامسة على مصر .

---

(1) ابن المقفع : المصدر السابق ، ج3،ص184.

(2) ابن واصل : المصدر السابق ، ج4، ص 98 ؛سبط بن الجوزي : المصدر السابق، ج8، ق. 2، ص .620. انظر أيضاً:

Oliver of Padenborn, op. cit., p.90; Eracles, op. cit., p. 351.

(3) Oliver of Padenborn, op. cit., pp.90; Eracles, op. cit., p. 351; Felix Fabri, op. cit.,vol.2, part 1, p.361.

انظر أيضاً : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج12، ص 216؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج1، ق. 1، ص 207؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج4، ص 697. سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج8، ق. 2، ص 620 ؛

(4) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج12، ص 216؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج4، ص 99 ،105؛ سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج8، ق.2، ص620؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج1، ق. 1، ص209 ، انظر أيضاً :

Eracles, op. cit., p. 351 ; Roger of Wondover, op. cit., vol. 2, p.439; Oliver of Padenborn, op. cit., p.91.

أما إذا حاولنا أن نقيم الدور السياسي الذي قام به الكردينال بلاجيوس إبان الحملة الصليبية الخامسة على مصر، فيمكن أن نقسمه إلى عدة نقاط نبدأها بدوره في قيادة الحملة ؛ فرغم ما كان يتمتع به جان دي برين ملك بيت المقدس من شجاعة إلا أنه لم يكن بالشخصية القوية التي بوسعها أن تجذب حولها مختلف العناصر التي تألفت منها الجيوش الصليبية بأجناسها المختلفة، فضلاً عن أنه كان طاعناً في السن، إذ كان في السبعينات من عمره . بينما تمتع الكردينال بلاجيوس بشخصية قوية وكان في أوائل الستينات من عمره ؛ وإذا كانت تعوزه الحنكة العسكرية، فقد استعان بخبرة الجماعات العسكرية من داوية وإسبتارية وهم الذين خبروا الحروب وحنكتهم التجارب؛ وكانت لهم صولات وجولات مع المسلمين . هذا فضلاً عن أنه كان ينظر إلى القوات الصليبية على أنها جنود الرب، ولا بد أن تكون تحت إمرته باعتباره ممثل البابا في الحملة . لكل هذه الأسباب وغيرها رأى الكردينال بلاجيوس أنه هو الأجدر بتولي قيادة الحملة .

أما بخصوص القرارات التي اتخذها الكردينال بلاجيوس أثناء وجوده في مصر فكانت معظمها صائبة تنم عن بعد نظر، فبالنسبة إلى قراره بشأن ضرورة الزحف مباشرة على القاهرة بعد استيلاء الصليبيين على دمياط في الخامس من نوفمبر 1219، فكان رأياً صائباً، ولو استجاب له الملك جان لربما تغير مصير الحملة الخامسة تماماً . فقد رأى بلاجيوس ضرورة استغلال حالة الإرتباك التي أصبح عليها المعسكر الإسلامي، والاستفادة من ارتفاع الروح المعنوية للقوات الصليبية، هذا فضلاً عن أن سرعة الزحف صوب القاهرة سيجنب القوات الصليبية التعرض لمخاطر فيضان النيل . ولما كان شهر أغسطس هو وقت

الفيضان، يصبح أمام القوات الصليبية القيام بأية عمليات عسكرية بحرية تامة طيلة عشرة أشهر على الأقل دون أن تخشى خطر الفيضان .

والأمر نفسه يقال بالنسبة لقراره بشأن الزحف صوب المعسكر الإسلامي في المنصورة في يوليو 1221م، فرغم قصر المدة الزمنية المتبقية على موعد فيضان النيل، وهي قرابة شهرين، إلا أن الكردينال بلاجيوس كان متكرهاً على اتخاذ هذا القرار والإصرار على تنفيذه . إذ كانت الأخبار ترد إليه تباعاً من قبرص وبلاد الشام تخبره باستعدادات المعظم عيسى والأشرف موسى وحشدهما القوات نجدة لأخيهما الكامل محمد بمصر، فأراد أن يستغل الوضع العسكري الراهن لصالحه، قبل أن تصل الإمدادات العسكرية من بلاد الشام فتتغير موازين القوة بمصر لغير صالحه [1]. أما إذا أرجئ الزحف صوب المنصورة، فكان على الصليبيين انتظار عدة أشهر أخرى في دمياط لحين انتهاء موعد الفيضان، وتصبح الأرض ممهدة أمام القوات الصليبية للقيام بأي أعمال عسكرية، كما يعني إرجاء الزحف أيضاً ضرورة تدبير مزيد من النفقات المالية، وهذا أمر تعاني منه الحملة خاصة بعد رحيل عدد غير قليل من الأمراء – الذين كانوا يتولون الإنفاق على الحملة – إلى الغرب، كما يعني كذلك أن القوات الصليبية ستظل

---

(1) والجدير بالذكر أن الملكة أليس Alice الوصية على قبرص كانت تبلغ المندوب البابوي بلاجيوس بأخبار تحركات شقيقي الملك الكامل في بلاد الشام المعظم والأشرف ، وما يقومان به من جمع القوات نجدة لأخيهم بمصر ، كما كانت الأخبار تصل تباعاً من صليبيي الشام إلى بلاجيوس تؤكد هذه التحركات .عن ذلك انظر.: Oliver of Padenborn, op. cit., pp.82 –83

طيلة هذه الفترة في حالة من السكون والدعة، وهي أمور ليست في صالح الجيش الصليبي.

أما بالنسبة لعروض الصلح: فالثابت أن الملك الكامل محمد تقدم بثلاثة عروض رفضها جميعاً الكردينال بلاجيوس، لأنها كانت فارغة من مضمونها: صحيح أن الصليبيين سيحصلون على بيت المقدس وكل ما فتحه صلاح الدين بعد حطين، بيد أن المسلمين سيحتفظون بقلعتي الكرك والشوبك، وبيت المقدس بدونهما لا تساوي شيئاً، خاصة بعد قيام المعظم عيسى بتخريب أسوار بيت المقدس والقلاع المحيطة، مما سيجعل منها منطقة مكشوفة يصعب على الصليبيين الدفاع عنها أو الإقامة بها[1]كما أن الصليبيين لا يحبذون أيضاً مواجهة المسلمين في معارك مفتوحة، ويفضلون الحرب من وراء تحصينات واستحكامات دفاعية، وصدق الله العظيم حيث يقول بسم الله الرحمن الرحيم "لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر" وآية ذلك استرداد الخوارزمية للمدينة المقدسة بسهولة من أيدي الصليبيين 1244 ولم يمض على تسليمها لهم سوى عدة سنوات قليلة، نظراً لأن بنود معاهدة يافا – التي أبرمها الكامل محمد مع الإمبراطور فردريك الثاني سنة 1229 م – كانت تقضي بألا يقوم

---

(1) والجدير بالذكر أن المعظم عيسى قام بتخريب بيت المقدس في مارس 1219م / محرم 616هـ، ولمزيد من التفاصيل عن تخريب المدينة وموقف أهلها راجع: ابن المقفع: المصدر السابق، ج8، ص 153 – 154؛ سبط بن الجوزي: المصدر السابق: ج8، ق2، ص 601؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج12، ص 216؛ انظر أيضاً: ماير: المرجع السابق، ص 318.

الصليبيون بإعادة تحصين المدينة المقدسة، مما سهل على الخوارزمية استعادتها منهم بسهولة ودون عناء [1].

هذا ولم يكن هدف الحملة الصليبية الخامسة من وجهة نظر الكردينال بلاجيوس مقصوراً على إعادة إحياء مملكة بيت المقدس فحسب، وإنما الأمر اكبر من ذلك بكثير، فالاستيلاء على مصر يعد خطوة أولى في طريق تحقيق المشروع الصليبي الكبير وهو مملكة الشرق بأسره، وتسخير كل إمكانيات مصر المادية والبشرية لتحقيق ذلك الهدف. هذا فضلاً عن أن الاستيلاء على مصر سيمكن الصليبيين من استعادة كل ما استرده صلاح الدين عقب معركة حطين 1187م [2].

أما عن نشاط الكردينال بلاجيوس الحربي إبان الحملة، فهو دور فعال لا يمكن إنكاره، فرغم أنه لم يكن قائداً عسكرياً في الأساس، إلا أنه كان يستعين بأولي الخبرة في هذا المجال وهم كثر، فيكفيه فخراً أنه صاحب الفضل الأكبر في استيلاء الصليبيين على مدينة دمياط، فضلاً عن القيام بالعديد من الهجمات العسكرية ضد المسلمين، بالإضافة إلى قدرته على ضبط المعسكر الصليبي والقضاء

---

(1) المقريزي : المصدر السابق ، ج1، ق1، ص 316. وعن دور الخوارزمية في الصراع الصليبي الإسلامي راجع : أسامة زيد : الخوارزمية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي في عصر بني أيوب 1225 – 1246م / 622 – 644هـ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، العدد 30، 1983؛ كلود كاهن : المرجع السابق ، ص 237 – 38.

(2) Felix Fabri, , op. cit.,vol.2, part 1, p 358.

انظر أيضاً : محمود عمران : المرجع السابق ، ص 240.

على الفوضى والتدهور الخلقي الذي كان قد تفشى فيه ، وتسخيره سلطاته الروحية لصالح دوره السياسي ، وقيامه بالإنفاق على الحملة بعد رحيل عدد كبير من أمراء الصليبيين إلى الغرب . ومع ذلك فإننا لا يمكن أن ننكر مطلقاً وقوع الكردينال بلاجيوس في بعض الأخطاء العسكرية والقرارات السياسية .

الفصل السادس

وفود آل أبلين ببيروت إلى سلاطين المماليك

تقع مدينة بيروت على الساحل الشام يحدها شمالاً مدينة جبيل وجنوباً مدينة صيدا بينما يحدها شرقاً مدينة دمشق وغرباً البحر المتوسط[1] وهي تعتبر أقصى حدود مملكة بيت المقدس الصليبية من جهة الشمال ، وبذلك تعتبر همزة الوصل بين مملكة بيت المقدس من جهة وإمارتي الشمال طرابلس وانطاكية من جهة أخرى ، وقد وفر لها هذا الموقع أهمية استراتيجية وتجارية كبيرة[2].

والجدير بالذكر أن صلاح الدين نجح في استرداد بيروت من أيدي الصليبيين بعد انتصاره الكبير عليهم في معركة حطين 1187م / 583هـ ، في حين تمكن الصليبيون من استعادتها مرة أخرى في غضون عقد من الزمان 1197م / 593هـ[3]. وقام عموري Amalric

---

(1) بيروت مدينة مشهورة علي بحر الشام . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، 5ج ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1984، ج1 ، ص525 ؛ البغدادي : مراصد الإطلاع علي أسماء الأمكنة والبقاع : تحقيق وتعليق ، علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، 1954، ج1 ، ص 240 ؛ الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، مكتبة المثنى ببغداد ، ليبزج ، 1923 ، ص201؛ الاصطخري : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، ليدن، 1937 ، ص 48

(2) Poloner S., Description of the Holy Land, Tr. Aubery Stewrt, ed. In P.P.T.S.,vol.VI P.35; Burcherd of Mount Sion, A Description of the Holy Land in P.P.T.S., vol. XII, P. 6; cf. also, Steven Tibble, Monarchy and the Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1099 -1291, Clarendon Press, Oxford, 1989, p. 26

(3) والجدير بالذكر أن الصليبيين تمكنوا من استعادة بيروت دون إراقة دماء ، وذلك بعد هروب أميرها عز الدين أسامة . ولمزيد من التفاصيل انظر : =

ملك بيت المقدس بمنحها إلي الأمير يوحنا دي إبلين john d'Ibelin كإقطاع له ، فأسس بها بيتاً توارث حكمها طيلة القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري حتى تمكن السلطان الأشرف خليل (1289 - 1293م / 688 – 692هـ) من استردادها و استئصال شأفة الوجود الصليبي من الشرق تماماً وقطع دابره وذلك في 1291م / 690هـ[1].

وينتسب آل إبلين إلي إقطاعية يبنا Iblin التي تقع جنوب غرب بيت المقدس ، وقد قام الملك فولك الأنجوي Fulk d'ANJOU (1131 – 1143م / 526 – 538هـ) بمنحها إلي الأمير باليان Balian الابن الأصغر للفيكونت شارتر Viconte de Chartres حين أتى إلي الشرق وقد منحت اسمها إلي سلالته من بعده[2]. وعلي الرغم من أن هذا البيت يعتبر مغموراً ومجهولاً نسبياً في الغرب الأوربي إبان القرن الثاني

= ابن الأثير : المصدر السابق، ج9، ص 237 ؛ ابن واصل : المصدر السابق، جـ3 ، ص74 ؛ صالح بن يحيى : المصدر السابق، ص 38-9 ؛ المقريزي : المصدر السابق، ج1، ق2،ص 140

(1) يعتبر الأمير يوحنا العضو البارز في بيت إبلين ، وقد أشتهر بلقب سيد بيروت الكبير ، وقد أشير إليه لأول مرة مرتبطاً بحصار بيت المقدس 1187م / 583هـ ، وإن لم يذكر باسمه ، ذلك عندما أخذ والده باليان الثاني وعداً من صلاح الدين بخروج زوجته وأولاده آمنين إلي طرابلس ، وبعد موت والده 1194م / 591هـ أخذ نجم يوحنا يسطع في الأفق ، ورغم صغر سنه وقتئذ إلا أنه أظهر مقدرة وكفاءة عالية لأداء جميع المسئوليات الملقاة علي كاهله ، ولأنه أخ غير شقيق الملكة إزابيل فقد ساعده ذلك بلا شك في تقدمه السريع وحصوله علي وظيفة كوندسطبل المملكة ثم تخلى عنها لحكم إمارة بيروت . ولمزيد من التفاصيل عن نشأته وأهم أعماله انظر :

Ernoul, op. cit., pp.186-87; Eracles, op. cit., pp. 321-22; cf. also, La Monte, op. cit., pp.417- 47.

(2) Idem, pp. 418-19

عشر الميلادي / السادس الهجري إلا أنه لعب دوراً كبيراً في منطقة الشرق اللاتيني إبان القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري حيث سيطر أفراده علي معظم الإقطاعيات اللاتينية في المملكة الصليبية لأجيال عديدة ، وبالقدرات الشخصية والزيجات الثرية تزايدت أملاك ومركز هذا البيت حتى أصبح من أبرز الأسر الإقطاعية في الشرق ، وواحدة من أهم الأسر التي كان يختار منها ملوك بيت لوزجنان Lusignan بقبرص زوجاتهم وكبار قادتهم وموظفيهم ونوابهم ، ولأن التزاوج والمناورات السياسية كان لها أكبر الأثر في بناء ثروة البيت ، فقد ساهما أيضًا في انهياره[1].

وقد تعاقب علي حكم بيروت خمسة أمراء من بيت إبلين هم : يوحنا الأول دإبلين John d'Ibelin (1205 – 1236م / 602-633 م) باليان دإبلين Baliand'Ibelin (1236 – 1247م / 633 - 645هـ) يوحنا الثاني دإبلين John II d'Ibelin (1247– 1264م / 645- 662هـ) إزابيل Isabelle ابنة يوحنا الثاني (1264 – 1282م / 662- 681هـ) إشيف Eschive ابنة يوحنا الثاني (1282 – 1291م / 681- 690هـ) وسوف تقتصر الدراسة فقط علي الأمراء الثلاثة الأواخر الذين عاصروا الفترة المملوكية وهم الأمير يوحنا الثاني وابنتيه ايزابيل وأشيف . وقد عاصر كل من السلطان بيبرس البندقداري والمنصور قلاوون والأشرف خليل فترة حكم هؤلاء الأمراء الثلاثة .

هذا وقد شهد النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري تغيراً كبيراً في موازين القوى بين المسلمين والصليبيين في

(1) Makhairas, Recital concerning the sweet land of Cyprus entitled "Chronicle" op. cit., p. 423 ; cf. also, R.J. Lile, op. cit., pp.216-217.

منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ؛ ففي الوقت الذي أخذ فيه المماليك يوطدون دعائم حكمهم في مصر والشام ، كان الصليبيون في المقابل يعانون الضعف والتشرذم ، وبينما كان المماليك يبذلون قصارى جهدهم لطرد الصليبيين واستئصال شأفتهم من المنطقة ، كان جل اهتمام الصليبيين الاحتفاظ فقط بما تحت أيديهم من ممتلكات ، لذلك حرص الصليبيون علي خطب ود المماليك والعيش معهم في أمن وسلام ، ولكي ينالوا ذلك سعوا حثيثاً إلي عقد الصلح معهم وإبرام المعاهدات والهدن التي تكفل لهم عدم تعرض بلادهم للهجوم من قبل المسلمين ، وكان سادة بيروت من آل إبلين بطبيعة الحال من بين هؤلاء الفرنج الذين نهجوا هذا السبيل[1].

فعندما علم يوحنا الثاني سيد بيروت بقدوم السلطان بيبرس إلي الشام ووصوله إلي دمشق ، أسرع بإرسال وفد من قبله لخطب وده والتفاوض معه بشأن عقد هدنة بين الجانبين . والواقع أن الأمير يوحنا لم يكن هو وحده الذي بادر بإرسال وفد إلي السلطان بيبرس ، بل شاركه في ذلك الأمر كل بيوت الفرنج تقريباً ، وكان هدفهم جميعاً واحداً وهو إلتماس الهدنة من السلطان[2]. وقد إلتقى وفد بيروت ببيبرس

---

(1) الجدير بالذكر أن الصليبيين نجحوا في عقد عدة معاهدات مع سلاطين المماليك عن ذلك انظر :

P.M.Holt, the Treaties of the Early Mamluk Sultans with Frankish States, (B.S.O.A.S.) vol. xliii, 1980, pp. 67-76.

(2) ذكرت الرواية العربية " ولما استقرت الأبار عند الفرنجية بقدوم الركب الشريف بعثوا الإقامات العظيمة ، وبعثوا رسلهم يهنئون السلطان بالسلامة ، ولما وصل إلي دمشق حضر رسول من قل عكا يسأله أماناً للرسل المتوجهين من البيوت كلها فكتب إلي والي بانياس بتمكينهم ، فحضر أكابر الفرنج والتوا الصلح ..." ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر : ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في=

والتمس منه إبرام هدنة بين الجانبين ، فوافق السلطان علي ملتمسهم ، وعاد الوفد إلي بيروت، " وتوجهت رسل السلطان معهم لأخذ العهود عليهم "، وذلك في 1262م / 660هـ[1].

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه لماذا قبل السلطان بيبرس عقد هدنة مع فرنج بيروت - وكذا مع بقية الصليبيين رغم إدراكه التام بضعف موقفهم وتدهور أحوالهم ؟ لعل من أهم الأسباب التي دفعته إلي ذلك هو مراعاة الظروف الإقتصادية الصعبة التي كان يمر بها مسلمو بلاد الشام في تلك الفترة عامة ، وأهل دمشق خاصة : " فقد أصاب البلاد جدب شديد وغلاء في الأسعار وهلك خلق كثير من جراء ذلك. وإلي ذلك تشير الرواية العربية فتذكر " واشتد الغلاء بدمشق ، وبلغت غرار القمح 450 درهماً فضة ، وهلك خلق كثير من الجوع ."[2] ولما كانت إمارة بيروت قريبة نسبياً من دمشق ، فلعل السلطان بيبرس أراد - بموافقته علي عقد الهدنة معها - أن يخفف عن أهل دمشق ما كانوا

سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، 1976 ، ص117-119 ؛ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ أهل الهجرة، تحقيق: زبيدة محمد عطا ، ج9، القاهرة، بدون تاريخ ، ص85 ؛ العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – عصر سلاطين المماليك – حققه ووضع حواشيه محمد أمين، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1988، ص 316 ؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفى زيادة، ج1، ق2، دار الكتب المصرية ، القاهرة، 1936م ، ص 463-464 .

(1) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص 118 ؛ شافع بن علي : حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ، جامعة الملك عبد العزيز ، المكتبة المركزية ، جدة ، بدون تاريخ ، ص 47.

(2) المقريزي : السلوك ، ج1، ق 2 ص 466

يعانون منه ، خاصة وأن كثير من السلع والبضائع التي كان يحتجها المسلمون كانت تأتي من بلاد الفرنج على حد قول الرواية العربية [1].

هذا وقد ترتب علي إبرام الهدنة بين آل إبليم ببيروت والسلطان بيبرس نتائج طيبة لكلا الطرفين فمن جهة نعم صليبيو بيروت بقسط وافر من الأمن والسلام ومن جهة أخرى خفت حدة الأزمة الإقتصادية التي كان يعاني منها مسلمو بلاد الشام ، وأمنت السبل وأخذت التجارة تنتقل عبر الحدود وتنقل الأفراد بحرية تامة بين الجانبين [2].

ظلت العلاقات الودية قائمة بين يوحنا الثاني سيد بيروت والسلطان بيبرس حتى وفاة الأول في 1264م / 662هـ [3]، ولما لم يكن ليوحنا الثاني وريثاً ذكراً ، فقد خلفته ابنته الكبرى ايزابيل 1264 – 1282م / 662- 681هـ [4]. وكانت الأميرة ايزابيل حين تولت حكم إمارة بيروت طفلة في مقتبل العمر ، وكانت متزوجة من الطفل هيو الثاني ملك قبرص وبيت المقدس (1253- 1267م / 651 – 666هـ) وقد مات عنها في ديسمبر(1267م / ربيع آخر 666هـ) ، ولم يعقد عليها بعد . وتزوجت من بعده ثلاث مرات [5] . وقد عرفتها بعض

---

(1) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص 118

(2) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ص 85 ؛ العيني : عقد الجمان ، ص 316

(3) Eracles, op. cit., pp. 447-48 ; Amadi, op. cit., p. 206 ; Les Gestes des Chiprois,Ed. R.H.C. Doc. Arm. vol. II, Paris,1906, p. 758 .

(4) Du Cange, op. cit., p.235 .

(5) Makhairas, op. cit., p. 43 ; Du Cange, op. cit., loc.cit. ; cf.also , La Monte, Feudal Monarchy op. cit., p. 45.

المصادر العربية باسم زابين ولعل ذلك تحريف لاسمها ايزابيل ، في حين عرفتها بعض المصادر الأخرى باسم الدبونة ولعله تحريف لبيت إبلين[1].

علي أية حال لم يمض وقت طويل علي تولي ايزابيل حكم بيروت حتى تعكر صفو العلاقات بينها وبين السلطان بيبرس فذكر ابن عبد الظاهر أن إحدى السفن الإسلامية أثناء إبحارها إلي قبرص احتاجت إلي إصلاح فأمنها " أخو صاحبة بيروت ثم غدر بهم " واستولى علي السفينة وما كانت تحمله من أموال فضلاً عن أسر من كان علي ظهرها من المسلمين[2].

ومع إقرارنا بوقوع حادث الإعتداء علي السفينة الإسلامية قبالة ساحل بيروت، فإننا لا نقر بما أورده ابن عبد الظاهر بأن شقيق صاحبة بيروت هو الذي نفذ ذلك الإعتداء علي اعتبار أن يوحنا الثاني دإبلين سيد بيروت لم يكن له وريثاً ذكراً يخلفه علي حكم الإمارة وإنما كان له ابنتان فقط هما ايزابيل وأشيف ولو كان له وريثاً ذكراً لكان من الأولى أن يتولى هو حكم بيروت ، وعليه فإن ما أورده ابن عبد الظاهر في هذا الصدد هو أمر يجانبه الصواب .

وإذا سلمنا بأن سيدة بيروت لم يكن لها شقيقاً ذكراً ليقوم بتنفيذ ذلك الإعتداء علي السفينة الإسلامية ، فمن يكون إذن منفذ هذا

---

(1) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق، ص 358 ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، تحقيق قسطنطين زريق ، ج7، المطبعة الأمريكانية ، بيروت ، 1942، ص 35 ؛ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، 14 ج ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة 1963م، ج14 ، ص 39-42.

(2) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص 283-84.

الإعتداء ؟ الحقيقة أن ما أورده المقريزي يكشف لنا الغموض الذي اكتنف تلك الحادثة ، فيشير في معرض حديثه عن لقاء السلطان بيبرس بوفود الفرنج الذين أمر باستدعائهم ، ووبخهم علي سوء تصرفاتهم فذكر أن السلطان " أمر بإحضار بيوت الفرنجية وقال : ...ثم إنا سيرنا رسلاً إلي بلاد السلاجقة الروم ، وكتبنا إليكم بتسفيرهم في البحر ، فأشرتم عليهم بالسفر إلي قبرس فسافروا بكتابكم وأمانكم ، فأخذوا وقيدوا وضيق عليهم وأتلف أحدهم علي ما ذكر . .. فإن كان هذا بغير رضاكم فإنه نقص في حرمتكم ، وإذا كان صاحب جزيرة قبرس من أهل ملتكم ، يخرق حرمتكم ولا يفي بعهدكم ولا يحفظ ذمامكم ولا يقبل شفاعتكم ، فأي حرمة تبقى لكم وأي ذمام يوثق به منكم ، وأي شفاعة تقبل عند المسلمين والفرنجية ؟ [1]...."

ويستشف من الرواية السابقة أن السلطان بيبرس أراد إرسال وفد من قبله إلي سلاجقة الروم، فأشار عليه الفرنج بأن يذهب الرسل عن طريق قبرص ، فوافق السلطان علي ذلك ، وأثناء إبحار السفن إلي قبرص ، وعند قبالة سحل بيروت إحتاجت إحداها إلي إصلاح ، فأمنها الفرنج ثم غدروا بها ، وقد حدث ذلك تحت سمع وبصر صاحب قبرص . وإن كنا نتفق مع كل ما جاء في رواية المقريزي لواقعيتها وتماشيها مع الأحداث ، إلا إننا نتحفظ علي أن هيو الثاني Hugh II ملك قبرص هو الذي أمر رجاله بالقيام بذلك العمل ، علي اعتبار أن هيو الثاني كان لا يزال قاصراً حتى ذلك الحين و في الثالثة عشر من عمره و تحت و صاية هيو الأنطاكي Hugh of Antioch (1254- 1267م / 652 –

---

(1) المقريزي : المصدر السابق ، ص 485.

666م)[1] ، والأرجح أن الذي قام بهذا العمل هو الوصي وليس الملك . وأغلب الظن أن السفينة وما كانت تحمله من أموال ومن كان علي ظهرها من المسلمين تم نقلهم إلي قبرص .

كانت الأميرة ايزابيل سيدة بيروت علي قناعة تامة بضعفها ، وإنها لا قبل لها ببيبرس وقواته ، لذلك أسرعت بإرسال وفد من قبلها لرأب الصدع الذي وقع بينها وبين السلطان وأدي بطبيعة الحال إلي تدهور في العلاقات بين الجانبين . وغادر الوفد بيروت للقاء السلطان بيبرس الذي كان يحاصر في ذلك الوقت قلعة صفد التابعة لجماعة الداوية . وعندما إلتقى به قدم له الهدايا وسأله الإبقاء علي الهدنة التي كانت بينه وبين فرنج بيروت ، غير أن السلطان أنكر علي الوفد ما حدث للسفينة الإسلامية وأوضح لهم أن الأمير يوحنا الثاني سيد بيروت – الذي كان يرتبط معه بالهدنة - قد مات - وعليه فهو في حل منها ، وطالبهم بأمور ثلاثة قبل الخوض في حديث الصلح، وتمثلت هذه الشروط في : رد كل ما سلب من أموال، إطلاق سراح أسرى المسلمين وأخيراً دفع تعويض مناسب عن السفينة الإسلامية . وانصرف الوفد من

---

(1) والجدير بالذكر أن الملك هيو الثاني تولى حكم قبرص 1253م ولم يتجاوز عمره بضعة أشهر ، وقامت الملكة الوالدة بلاكتيا بالوصاية عليه حتى العام التالي عندما ذهبت إلي فلسطين حيث تزوجت من باليان دي إبلين صاحب أرسوف ؛ فأسندت الوصاية إلي هيو الأنطاكي الذي أصبح فيما بعد ملكاً علي بيت المقدس وقبرص ولقب باسم هيو الثالث . ولمزيد من التفاصيل انظر :

P.M.HOLT , The Age of The op. cit., pp.32,102-3; La Monte, op. cit., p. 74.

عنده " ولم يحصل الرضى عن ملكتهم " وذلك في (1266م / 665هـ)[1].

وعندما عاد الوفد إلي بيروت ، وأطلع الأميرة إزابيل علي تفاصيل ما دار من مفاوضات مع السلطان بيبرس ، لم يكن أمام إزابيل من بد سوى التسليم بكل مطالب بيبرس إن أرادت العيش معه في سلام . لذلك أعادت إليه وفدها يحمل موافقتها علي شروط الصلح التي حددها ، وسأله فسحة من الوقت لكي تتمكن الأميرة من تنفيذ كل مطالبه فوافق السلطان علي ذلك ولكنه أرجأ إبرام الصلح معهم لحين الوفاء بكل ما التزموا به [2].

عملت الأميرة إزابيل جاهدة علي الوفاء بتعهداتها للسلطان بيبرس ؛ ففي عام (1267م / 666هـ) توجه وفد من فرنج بيروت للقاء السلطان بيبرس يحمل الهدايا ومعه بعض أسرى المسلمين الذين كانوا علي ظهر السفينة وكذلك الأموال التي كانت قد سلبت منهم ، وبعد أن أطلقوا الأسرى وسلموا الأموال عادوا أدراجهم مرة أخرى إلي بيروت[3]. وفي إبريل (1268م / شعبان 666هـ) ، أرسلت ايزابيل وفداً

---

(1)ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص 256

(2) المقريزي : السلوك ، ج1، ق2، ص 546 ؛ العيني : المصدر السابق ، ج2، ص9

(3) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص 299 ؛ المقريزي : المصدر السابق ، ج1، ق2، ص 566

آخر إلي الأبواب السلطانية ومعهم مجموعة أخرى من الأسرى ، والمبلغ الذي أتفق عليه كتعويض عن السفينة[1].

وفي مايو (1269م / رمضان 667هـ) أرسلت الأميرة ايزابيل وفداً آخر من قبلها يحمل هداياها إلي الأعتاب السلطانية ومعه آخر مجموعة من الأسرى . وبذا تكون الأميرة إزابيل قد لبت الشروط الثلاثة التي حددها بيبرس لعقد الصلح معها ، وعليه تم إبرام هدنة بين الجانبين وذلك في 9 مايو (1269م / 6 رمضان 667هـ)[2].

والتساؤل الذي يطرح نفسه هل كان هناك من علة لتأجيل إبرام الهدنة بين ايزابيل سيدة بيروت والسلطان بيبرس لمدة عامين كاملين ؟ الحقيقة أن الأميرة ايزابيل كان لابد لها من إجراء مفاوضات مع السلطات في قبرص لرد ما سلب من أموال وإعادة أسرى المسلمين ولا شك أن هذه الأمور استغرقت وقتاً طويلاً خاصة وقد مات عنها زوجها الذي كان بوسعه أن ييسر لها مثل هذه الأمور ، ولعل ذلك يفسر لنا قيام ايزابيل بإرسال الأموال والأسرى المسلمين علي مراحل ، ولو كان فرنج بيروت هم الذين استولوا علي الأموال وأسروا من كان علي ظهر السفينة الإسلامية لتمكنت ايزابيل من رد كل ذلك مرة واحدة وما استلزم ذلك عامينكاملين ، خاصة وهي تعلم علم اليقين أن المماطلة لا تجدي نفعاً.

---

(1) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص 358 ؛ المقريزي : السلوك ، ج1، ق2، ص 580

(2) شافع بن علي : المصدر السابق ، ص 148 ؛ المقريزي : نفس المصدر والصفحة انظر أيضاً :

P.M.Holt, Baybars's Treaty with the lady of Beirut in 667/1267, in Crusade & Settlement, University College Cardiff Press, 1985, pp. 243-245

مع بيبرس وأنها أضعف من أن تلعب مثل ذلك الدور ، وهذا يؤكد صدق ما ذهب إليه الباحث من أن السفينة الإسلامية التي اختطفت قد اقتيدت إلي قبرص . هذا عن الجانب الصليبي ، أما عن الجانب الإسلامي فلعل السلطان بيبرس أراد أن يتأكد من استعداد سيدة بيروت لتلبية شروطه ويقف بنفسه علي تنفيذها ، وإلي ذلك تشير الرواية العربية فتذكر " وما زال السلطان يجتهد حتى خلصهم (أسرى السفينة) وخلص أموالهم " وعندما تم له ما أراد وافق علي عقد الهدنة [1].

كما أن إهتمام السلطان بيبرس لم يكن مكرساً أثناء الفترة المذكورة - التي قامت بها وفود الأميرة إزابيل - علي مسألة الهدنة بل كان منهمكاً في أمور أكثر أهمية منها كاسترداده يافا ، شقيف أرنون ، قيسارية ، حيفا ، أرسوف وأنطاكية ، ولعل هذا هو سبب آخر جعل السلطان بيبرس يصبر علي الأميرة إزابيل طيلة تلك المدة [2].

والجدير بالذكر أن المؤرخ القلقشندي انفرد دون غيره من المصادر العربية والغربية بذكر نصوص تلك الهدنة وأوردها لنا كاملة في موسوعته " صبح الأعشي في صناعة الإنشاء [3] " مما يعكس لنا مدى ما لهذه الهدنة من أهمية ؛ فقد أبقت علي العلاقات الدبلوماسية

---

(1) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص 299 .

انظر أيضاً : Steven Tibble, op. cit., pp. 26-7.

(2) لمزيد من التفاصيل عن فتوحات بيبرس للمدن الصليبية انظر : بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج9، ص 113-14 ؛ العيني : عقد الجمان ، ج1، ص 396-397؛ ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ص 230-235 ؛ شافع بن علي : حسن المناقب ، ص 88-90.

(3) القلقشندي : صبح الأعشي ، ج14، ص 39-42 .

والسياسية جيدة بين الجانبين ، وآية ذلك أن السلطان بيبرس لم يعاقب سيدة بيروت علي جريمة خطف السفينة الإسلامية أمام سواحلها ؛ فلم تفقد من حدود بلادها شيئاً ولم يصل أي منها إلي وضع المناصفات . وإن كفلت تلك الهدنة لبيبرس نوع من الوصاية علي سيدة بيروت وبلادها .

ففي سنة (1273م / 671هـ) مات إدموند لسترنج Edmond l'Estrange زوج ايزابيل الثاني[1] ، فقام هيو الثالث لوزيجنان ملك قبرص وبيت المقدس (1269- 1276م / 668- 675هـ) بنقل ايزابيل إلي قبرص لكي يرتب لها زواجاً آخر يعينه علي تنفيذ مشاريعه في الشرق مما أثار حفيظة السلطان بيبرس الذي كتب علي الفور إلي السلطات الفرنجية بعكا قائلا :" هذه الملكة بيني وبينها هدنة ، وما سافر زوجها حتى أودعها عند جاهي وعادتها إذا سافرت تستود علي بلادها ، وفي هذه المرة ما سيرت لي رسولاً ، ولابد من حضورها وأن تتوجه رسلي وتشاهدها وإلا أنا أحق ببلادها فلما بلغهم ذلك انزعجوا له"[2].

حاول الملك هيو أن يبرر مسلكه إزاء خطفه سيدة بيروت تارة بقوله أن زوجها كان عليه دين وهي مطالبة بسداده ، وتارة أخرى بقوله

(1) تزوجت الأميرة إزابيل من إدموند لسترنج Edmond l'Estrange حين أتى إلي الشرق مع حملة الأمير إدوارد، ولما كان الأمير إدموند لا يأمن جانب الملك هيو الثالث فقد وضع نفسه وزوجته وإمارته تحت وصاية بيبرس ثم رحل إلى الغرب حيث مات في العام التالي مباشرة 1273م . ولمزيد من التفاصيل انظر :
Eracles, op. cit., p.462 ; Annales de Terre Sainte, in A.O.L., T.II, p.455 ; Du Cange, op. cit., p. 235 ; cf. also, Antony Leopold, How to Recover the Holy Land op. cit., p.183.

(2) ابن عبد الظاهر الروض الزاهر ، ص 447 ؛ شافع بن علي : المصدر السابق : ص157 ؛ ابن الفرات : المصدر السابق ، ج7، ص 35 .

أن بيروت داخلة في إطار الهدنة التي عقدها مع السلطان بيبرس في إبريل (1272م / رمضان 760هـ) ، ولكن باءت محاولته بالفشل[1]. وأمام إصرار بيبرس علي مطلبه بضرورة عودة ايزابيل ثانية إلي بيروت ، وأمام تدهور الأوضاع الداخلية للمملكة اللاتينية اضطر الملك هيو في نهاية الأمر إلي الانصياع لمطالب السلطان بيبرس ، وعادت ايزابيل بالفعل إلي بيروت حيث قام السلطان بوضع حامية مملوكية لحراستها[2].

ظلت إزابيل تنعم بالأمن والسلام ما تبقى من عمرها إلي أن قضت نحبها في 1282م / 681هـ دون أن ترزق بذرية من أزواجها الأربعة ، فخلفتها أختها الصغرى الأميرة آشيف علي حكم إمارة بيروت (1282 – 1291م / 681 - 690هـ) وقد تزوجت للمرة الأولي من الأمير همفري دي منفور Humphrey de Monfort الذي نجح في ضم حكم مدينة صور إليه بعد موت سيدها وشقيقه يوحنا دي مونفور دون وريث في (1283م / 682هـ)[3].

لم تستمر العلاقات الودية قائمة بين آل إبلين ببيروت والسلطات المملوكية ، إذ سرعان ما تعكر صفوها ويرجع ذلك إلي تعرض إحدى السفن المملوكية للإعتداء عليها ونهب ما كان علي ظهرها من أموال وبضائع علي أيدي فرنج بيروت وذلك في 1283م / 682هـ ، مما أغضب

---

(1) شافع بن علي : نفس المصدر والصفحة.

(2) Eracles, op. cit., p. 462

(3) يعتبر همفري دي مونفور الابن الثاني لفليب دي مونفور سيد صور ، وأثمر زواجه من إشيف عن ولدين هما عموري وروبان وبنت ماتت في ريعان شبابها ولمزيد من التفاصيل انظر : Du Cange, op. cit., p. 236.

ولمزيد من التفاصيل عن ضم همفري لمدينة صور راجع :

Amadi, op. cit., pp. 214-15.

السلطان قلاوون ودفعه إلي الموافقة علي عقد هدنة مع فرنج عكا شملت كل مدن المملكة اللاتينية باستثناء مدينتي بيروت وصور نكاية في الأميرة إشيف وذلك في يوليو / ربيع أول من نفس ذلك العام (1).

توجست الأميرة إشيف خيفة من نوايا السلطان قلاون خاصة بعد استثنائه مدينتي بيروت وصور من الهدنة التي عقدها مع فرنج عكا ، وأدركت أن سبب تدهور العلاقات معه إنما يرجع في المقام الأول إلي ما تعرضت له السفينة المملوكية من إعتداء علي أيدي رجالها أمام سواحل بيروت ، لذلك رأت أن الحكمة تقتضي تدارك الأمر والعمل علي رأب الصدع الذي ألم بالعلاقات بين الجانبين ، وبناء عليه أرسلت وفداً من قبلها إلي السلطان قلاون لاسترضائه والتفاوض معه لحل الخلاف الذي نشب بين الجانبين ، وإبرام هدنة مماثلة مع بيروت أسوة ببقية مدن المملكة اللاتينية .

علي أية حال توجه وفد الأميرة إشيف للقاء السلطان قلاون والتفاوض معه لوضع حد لتدهور العلاقات بين الجانبين ، ومما لا شك فيه أن السلطان وجه إليهم لوماً شديداً وعاتبهم علي سوء مسلكهم معه ، وكيف أن إحدى سفنه تتعرض للاعتداء علي أيدي رجال الأميرة إشيف ، ورفض التفاوض معهم في أي أمر يتعلق بالصلح إلا بعد تسوية

---

(1) المقريزي : السلوك ، ج1، ق3، ص 713 ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج9، ص 212 ، ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص 34-43 . انظر أيضاً :
P.M. Holt, Qalawun's Treaty with Acre , in (E. H. R.) vol. xci, 1976, pp. 802-12.

مشكلة السفينة ، وطالبهم بدفع تعويض مناسب عنها قدر بنيف وتسعين الف درهم [1].

وما أن عاد الوفد إلي بيروت وأطلع الأميرة أشيف علي ما دار من مفاوضات مع السلطان قلاون ، وما حدده من مطالب لعقد الصلح معها حتى سقط في يديها ورأت أن الظروف جميعها تجري في غير صالحها فمن جهة مات عنها زوجها في فبراير(1284م / ذي القعدة 682هـ) ومن جهة ثانية كانت مدن المملكة اللاتينية بأسرها في صلح مع قلاون وليس بوسعها الاستنصار بهم ، ومن جهة ثالثة لم يكن بمقدورها معارضته أو الوقوف في وجهه ، لذا أعادت وفدها مرة أخرى إلي الأعتاب السلطانية يحمل هدايا ها وموافقتها علي شروط الصلح وجزء من التعويض المحدد قدر بمبلغ 30 ألف درهم كدفعة أولى علي أن تسدد بقية المبلغ في غضون ثلاثة أشهر، وعليه وافق المنصور قلاون علي عقد هدنة معها وذلك في (1285م / 684هـ) كما نجحت مدينة صور في عقد هدنة مماثلة في نفس ذلك العام [2].

وعلي الرغم من أن المصادر المتاحة لم تمدنا بمعلومات توضح لنا بنود هذه الهدنة التي توصل إليها وفد بيروت مع السلطان قلاون والمدى الزمني لها ، فإن الباحث يرجح أن تكون تلك الهدنة مماثلة للهدنة التي عقدتها صور مع قلاون ، علي إعتبار أن كلا المدينتين كانتا تحت حكم سيد بيروت وأن الهدنتين عقدتا في عام واحد (1285م / 684هـ)

---

(1) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، حققه مراد كامل، راجعه محمد علي النجار، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1961م، ص 103 .

(2) ابن عبد الظاهر : نفس المصدر والصفحة.

ولما كانت مدة الهدنة مع صور هي عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام تكون مدة الهدنة التي عقدتها بيروت مماثلة لهدنة صور السابقة [1].

هذا وقد ترتب علي إبرام الهدنة بين الجانبين نتائج إيجابية علي كلا الطرفين الصليبي والإسلامي ؛ فمن جهة وفرت قسطاً كبيراً من الأمن والاستقرار لفرنج بيروت نعم خلالها السكان بحرية الحركة إلي المدن الإسلامية خاصة دمشق القريبة منها ، ومن جهة أخرى انتعشت الحياة الإقتصادية في كلا الجانبين وغمرت الأسواق بمختلف ألوان البضائع والسلع .

ظل فرنج بيروت يرفلون في أمن وسلام طيلة فترة حكم السلطان قلاون . وما أن تولى الأشرف خليل الحكم (1289 - 1293م / 689 – 693هـ) خلفاً لأبيه حتى عمد إلي استئصال شأفة الوجود الصليبي واجتثاث جذوره من المنطقة ، وقد أدركت الأميرة إشيف سيدة بيروت ما عزم عليه السلطان ، فبعثت إليه وفداً من قبلها إلتقى به عند عكا أثناء حصاره لها حيث إلتمسوا منه الأمان لمدينتهم فوعدهم السلطان بذلك ، وعاد الوفد بعدها إلي بيروت[2].

يبدو أن الأميرة إشيف غرها ما وعدها به السلطان الأشرف خليل من أمان لإمارتها عند عكا ، فطمعت في مهادنته وخطب وده ؛ فما أن علمت بوصوله إلي دمشق حتى بادرت بإرسال وفد من قبلها محملاً بالتحف والهدايا لتهنئته علي ما حققه من انتصارات علي الفرنج ، إلا أن الأشرف خليل – الذي فرغ من انتزاع عكا من أيدي الفرنج – كان قد وطد العزم علي استرداد بيروت فكلف الأمير علم الدين سنجر

(1) ابن عبد الظاهر : نفس المصدر ص 103-107.

(2) صالح بن يحيى : المصدر السابق ، ص 42 .

الشجاعي – نائب السلطنة بدمشق – بتنفيذ تلك المهمة[1]، وفي الطريق قابل الشجاعي الوفد فقبض عليهم وأرسلهم إلى دمشق مكبلين بالأغلال ، ثم مضي في طريقه صوب بيروت ، وعندما وصل إلي أبوابها طالعته حامية المدينة أحسن ملتقى " ونزل في القلعة وأمرهم أن ينقلوا أولادهم وحريمهم وأثقالهم إلي القلعة ففعلوا وظنوا أنه يفعلو ذلك شفقة عليهم ، فلما صاروا في القلعة قبض علي الرجال وقيدهم وألقاهم في الخندق ". وعندما علمت حامية المدينة بالقبض علي قادتها لم تفكر في المقاومة إدراكاً منها بعدم جدوى ذلك أمام هذا الجيش الكبير ، لذلك هرعوا إلي سفنهم ولاذوا بالفرار[2].

وهكذا تمكن الأمير علم الدين الشجاعي من استرداد بيروت وذلك يوم الأحد الموافق 22 يوليو (1291م / 23 رجب-690هـ) وقام بدك حصونها وهدم أسوارها وتركها قاعاً صفصفاً وأثراً بعد عين[3]. وكانت تلك سياسة اتبعها المماليك في كل مدينة تمكنوا من استعادتها من أيدي الصليبيين حتى لا يرى فيها الصليبيون فيما بعد مطمعاً إن سولت لهم أنفسهم مرة أخرى العودة إلي المنطقة .

---

(1) هو الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الشجاعي ، كان من مماليك الملك المنصور قلاون . وللمزيد انظر : الحريري : الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، دار الدعوة، الإسكندرية ، 1984م، ص 72 .

(2) صالح بن يحيى : المصدر السابق ، ص 42–4 . انظر أيضاً :
Amadi, op. cit., p. 207 ; cf. also, Mas Latrie, Histoire de l'Ile de Chypre, Sous le Regne des Princes de la Maison de Lusignan, vols., Paris, 1861. vol. 1 , p. 498.

(3) صالح بن يحيى:المصدر السابق، ص 44 ؛ الحريري : المصدر السابق، ص 72.

من العرض السابق يتضح لنا أن آل إبلين ببيروت هم الذين كانوا يبادرون بإرسال وفودهم إلى سلاطين المماليك لخطب ودهم ، ولم نر في المقابل سلاطين المماليك يفعلون ذلك ، فلم نلحظ وصول وفودهم إلى آل إبلين ببيروت مما يعكس لنا مدى ما كان عليه المماليك من قوة حتى يسعى إليهم آل إبلين لخطب ودهم . كما يستشف أيضاً أن غاية جميع الوفود التي خرجت من بيروت للقاء سلاطين المماليك كان هدفها الأساسي الفوز بإبرام الصلح معهم ، كما تبين لنا أيضاً أن سادة بيروت من آل إبلين لم يعترضوا مطلقاً على جميع مطالب سلاطين المماليك وشروطهم التي حددوها للصلح؛ بل وافقوا عليها جميعاً دون إبطاء ، وهذا يعكس لنا مدى ما اعتري فرنج بيروت من ضعف ووهن وأن أمارات الشيخوخة قد بدت جلية عليهم وآذنت بأفول نجمهم وقطع دابرهم وتصفية وجودهم نهائياً من الشرق ، وتلك هي سنة التاريخ فلا بقاء إلا للأقوى .

ولا يخامرنا أدنى شك في أن ما قام به وفود آل إبليم ببيروت من جهود يعد دوراً هامً وعلى قدر كبير من الأهمية ، إذ نجحت تلك الوفود في المهام التي كلفت بها ، وكانت سبباً في منح آل إبلين فترة غير قصيرة من الزمان ينعمون فيها بقسط وافر من الأمن والاستقرار دون أن يخشوا غدر المماليك وبطشهم ، في الوقت الذي كان فيه إخوانهم الفرنج في المدن المجاورة يتخطفهم المماليك ويفتكون بهم ، وهذا دليل واضح على ما يمكن أن تلعبه الدبلوماسية من دور لنشر السلام والأمن بين الشعوب .

الفصل السابع

العلاقات السياسية بين الصليبيين والبحتريين

فى عصر الحروب الصليبية

كان على الصليبيين بعدما نجحوا فى تأسيس إماراتهم الأربع فى بلاد الشام – بعد الحملة الصليبية الأولى[1] – أن يتعاملوا مع جيرانهم المسلمين المحيطين بهم ؛ إذ لم يكن بوسعهم العيش بمعزل عنهم، كما كان على المسلمين أيضاً أن يتعاملوا مع الوضع الجديد ويقيموا علاقات مع الصليبيين وفقاً لما تمليه عليهم مقتضيات الأمر؛ لذا فقد قامت بين الجانبين علاقات مختلفة اتسمت بالعداء حيناً والسلم حيناً آخر. وقد أقام الصليبيون علاقات مع جيرانهم المسلمين سواء كانوا دولاً أو مدناً كبيرة أو حتى كيانات صغيرة حيثما وجدوا مصلحتهم . ومن أمثلة تلك الكيانات الصغيرة التى ارتبطت بعلاقات مع الصليبيين، البحتريون[2] الذين لعبوا دوراً هاماً على مسرح الأحداث السياسية فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى إبان فترة الحروب الصليبية وأغفلته المصادر – سواء كانت عربية أو غربية – إغفالاً يكاد يكون

---

(1) تعتبر الرها هي أول الإمارات الصليبية التي أسسها الصليبيون فى الشرق الإسلامي 1097م/491هـ، تليها إمارة أنطاكية في نفس العام، ثم إمارة بيت المقدس 1099م/ 492هـ، وأخيراً طرابلس 1109م/503هـ.

(2) بحتر: بضم الباء وسكون الحاء المهملة وضم التاء المثناة من فوق: بطن من طيء من القحطانية، وهم بنو بحتر بن عتود بن عنين بن سلامان بن ثُعل، والبحتر في اللغة القصير المجتمع الخلق. ولمزيد من التفاصيل عن نسبة البحتريين راجع: القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، الطبعة الثانية 1980م، ص 173؛ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء جـ1، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، 1963م، ص 321؛ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، ط 4، دار المعارف، بدون تاريخ، ص 476،401؛ السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، بيروت 1986م، ط1، ص 240.

تاماً ، كما أنه لا يوجد بحث قائم بذاته يتناول بالدراسة والتحليل العلاقات الصليبية البحترية إبان تلك الفترة ؛ لذا فقد وقع اختيار الباحث على هذا الموضوع ليكون هدفاً لهذه الدراسة التي جعلت عنوانها "العلاقات السياسية بين الصليبيين والبحتريين إبان عصر الحروب الصليبية".

والجدير بالذكر أن المصادر العربية والغربية على حد سواء كانت ضنينة للغاية على الباحث بتزويده بمادة تتعلق بهذا الموضوع، فنجد بعض المصادر أغفلت ذكر البحتريين تماماً سواء كان ذلك تصريحاً أم تلميحاً، والبعض الآخر نجده يشير إليهم مجرد إشارات سريعة مقتضبة، مما جعل مهمة الباحث جد عسيرة، ولعل صمت المصادر هذا يرجع إلى جهلها بالبحتريين أو لصغر كيانهم بالمقارنة بغيرهم من الكيانات الكبيرة المحيطة بهم، أو لأنها استقلت الدور الذي قاموا به في تلك الحقبة رغم أن البحتريين قاموا بدور هام إبان فترة الحروب الصليبية .

ويعتبر كتاب صالح بن يحيى الموسوم بـ" تاريخ بيروت وأمراء بني الغرب البحتريين" (1) من أهم المصادر العربية التي حوت مادة تاريخية عن هذا الكيان على قدر كبير من الأهمية لا نجد معظم مادتها في سواه من المصادر سواء كانت عربية أو غربية، ولذلك فهو يعتبر المصدر الأساسي الذي استمدت منه تلك المصادر معظم ما كتبته عن البحتريين . ولم يكن قصد صالح بن يحيى عندما وضع كتابه هذا سرد الأحداث

---

(1) صالح بن يحيى: كتاب تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، نشر وتعليق لويس شيخو، بيروت في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، 1898م.

التاريخية وكتابة تاريخ عام بقدر ما كان يهدف إلى تسجيل مآثر أسلافه وأمجادهم حتى يقف عليها الخَلَف وتتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل . وقد أوضح ذلك في مقدمة كتابه ، وذكر أنه قصر هذه المذكرات على أهل بيته فقط «لا تخرج عن الخَلَف ولا تعار لغيرهم » على حد قوله[1] .

وبما أن كتاب صالح بن يحيى يعتبر المصدر الرئيسي لهذه الدراسة لاحتوائه على كثير من المادة التاريخية الخاصة بالبحتريين ؛ لذا كان عليَّ أن أتعامل معه بحرص وحذر شديدين . فرغم أن الكاتب كان ثقة دقيقاً لا يروي شيئاً إلا شفعه بأسانيده وحججه ، إلا أنه يلاحظ مع ذلك ميله أحياناً إلى أسلافه وإغفاله أيضاً لبعض الأحداث التاريخية التي قد تشوه ذكرهم[2] ، ومع هذا فإن مؤلفه يعد مصدراً أساسياً لهذه الدراسة وقد استقى صالح بن يحيى معلومات عن أسلافه من خلال الوثائق الرسمية والمكاتبات المتبادلة بين الأمراء البحتريين من جهة ؛ وبين أمراء دمشق - الذين يتولون الإشراف عليهم - وحكام القاهرة من جهة أخرى[3] . ومن أمثلة تلك المكاتبات المناشير الخاصة بتولية

---

(1) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص7.

(2) ومن أمثلة ذلك إغفاله الإشارة إلى الهجوم الصليبي على إقليم الغرب 1110م/ 504هـ، وكذلك تشييد الصليبيين لقلعة مونت جلانون في جبال بيروت 1125م/519هـ وتنبه لوجود خطابات متبادلة بين البحتريين وكل من أمراء انطاكية وصيدا وعكا. عن ذلك راجع ص 6، 16، 17 من هذا البحث.

(3) راجع نصوص هذه الوثائق والمناشير في صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 259-264، وانظر أيضاً

C. Clermont, Deux Chartes des Croisés dans les Archives Arabes, in (R.A.O.), Vol. VI, 1905, (pp. 1-30), p. 1.

البحتريين الإمارة على إقطاعاتهم والرسائل التى توضح المهام المكلفين بها وغيرها من الأمور المختلفة التى تتعلق بتصريف شئونهم، وبين ثنايا هذه المكاتبات نجد المادة التى تهمنا والخاصة بالعلاقات بين الأمراء البحتريين والصليبيين مبعثرة هنا وهناك، وهى تلقى الضوء على طبيعة هذه العلاقات وماهيتها. وقد اتسمت تلك العلاقات بروح العداء تارة والوفاق تارة أخرى تبعًا للظروف التى كان يمر بها كلا الجانبين، فنجد الهجمات المتبادلة بين الطرفين حيناً والسلم والمعاهدات حينًا آخر، وذلك وفقاً لما تمليه ظروف كلا الطرفين(1).

ولنفهم طبيعة تلك العلاقات يجدر بنا العودة قليلاً إلى الوراء للتعرف على البحتريين، من هم؟ وما هى الظروف التى مروا بها منذ نزوحهم إلى بلاد الشام فى القرن السابع الميلادى / الأول الهجرى، وحتى مجئ الصليبيين إلى المنطقة ودخولهم فى علاقات معهم؟

ينتسب البحتريون إلى جدهم الأكبر الأمير بُحتر الملقب بناهض الدولة أبى العشائر بُحتر بن شرف الدولة على بن الحسين، والذى ينتهى نسبه إلى تنوخ، ومنه إلى المناذرة ملوك الحيرة اللخميين(2).كان

---

(1) Nikerson,The Seigneury of Beirut in the Twelfth Century and The Brisebarre Family of Beirut -Blanche-Garde, in Byzantion, 1949 (pp. 141-185), p. 149, Jean Richard, op.cit.,, Vol I, p. 28.

(2) تنوخ: بفتح الهاء وضم النون ثم خاء معجمة، هى حى من اليمن من القحطانية، والتنخ المقام، وينسبون إلى الأمير تنوخ بن قحطان بن كندة بن جندب الذى يرتفع نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام. وإنما سموا تنوخاً لتنوخهم بالشام وقيل بالحيرة. ولمزيد من التفاصيل عن نسبهم راجع: القلقشندى: نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، ص 189، ابن حزم: المصدر السابق، ص215، 453، 461، الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، دار المعارف 1979م، جـ1، ص 612، جـ2، ص 42.

التنوخيون أجداد البحتريين قبائل نصرانية قبل الإسلام وبقوا على دينهم زمناً بعد الهجرة النبوية الشريفة إلى أن غلب عليهم الدين الإسلامي لاختلاطهم بالمسلمين(1)، واستوطنت تنوخ بعد الإسلام البرية الواقعة بين حلب ومعرة النعمان(2)، وإلى عربها ينتسب الأمراء البحتريون الذين خضعوا في تلك الفترة المبكرة لإشراف نائب حلب الذي ولى عليهم من قبله مشداً(3) يرعى شؤونهم، وعندما تعرض هذا المشد لبعض حريمهم،

---

(1) عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، جـ1، مؤسسة الرسالة، ط5، بيروت 1985، ص 69؛ فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، 2ج، دار الثقافة، بيروت 1958م، جـ2، ص170

(2) وعلى الرغم من أن صالح بن يحيى ذكر في كثير من المناسبات أن أجداده كانوا من المسلمين السنة، إلا أن هناك من الآراء ما يشير إلى أنهم كانوا من الدروز، وأنهم تظاهروا بالإسلام لاتقاء شر السلطات الإسلامية الخاضعين لنفوذهم من جهة، وكسب ودهم من جهة أخرى. عن ذلك انظر:

H. Lammens, La Syrie, Précis Historique, 2 vols, Beyrouth 1921, Vol II, p.10.

الطبري: المصدر السابق، جـ2، ص 42، جـ4، ص 51. انظر أيضاً:

Churchill, Mount Lebanon, London 1853, Vol I, p. 226; Lammens, Op. Cit., Vol II, p. 9.

ومعرة النعمان هي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة ماؤها من الآبار وعندهم الزيتون الكثير والتين. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ5، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1957، ص 156.

(3) المشد: ويقال له أيضاً الشاد، كان يتولى الدواوين وغيرها من الوظائف. فكان هناك شاد للأسواق وللملاح والمراكب وغير ذلك من الوظائف المفردة. انظر: ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بنشره بولس راويس، طبع في مدينة باريس المحروسة بالمطبعة الجمهورية سنة 1892م، ص 114.

قام رجل منهم يدعى نبا بقتله وفر مع حريمه إلى منطقة كسروان[1]، حيث عمر له قرية هناك سميت برج نبا، ولما طلب نائب حلب القاتل من عشيرته خافوا منه فرحل بعضهم إلى إقليم الجزيرة وأعالي الفرات، بينما توجه البعض الآخر إلى موضع نبا حيث استقروا هناك، وذلك عام 820م/205هـ[2]، وفيما بعد استوطنوا المنطقة الجبلية بصيدا وإقليم الغرب ببيروت الذي يشمل المنحدرات الجبلية الواقعة بين بيروت ونهر الدامور[3] وظلوا بها حتى مجئ الصليبيين إلى المنطقة.

ذكر صالح بن يحيى أنه في عام 1027 م / 418هـ كان أحد أجداده، ويدعى أبا إسحق إبراهيم أميراً بالبيرة[4] من قبل خلفاء مصر

---

(1) كسروان: مقاطعة ببيروت، صالح بن يحيى: المصدر السابق، جـ2، ص 13.

(2) الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان، بيروت 1859م، جـ1، ص 223، فيليب حتى: المرجع السابق، جـ2، ص 170.

(3) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 72. انظر أيضاً:

Claude Cahen, La Chronique de Kittay et les Franc de Syrie, op. cit., p. 244.

ونهر الدامور: عبارة عن مجموعة أنهار هي: نهر الجابون، نهر الصفا، نبع التـاع، ونبع دارة، ويبلغ طوله 40 كيلومتراً، ويصب في البحر المتوسط. انظر:

Rey, Les Colonies Franques de Syrie aux XIe et XIIIe siècles, Paris 1883, p. 521.

(4) وهي تقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات جنوب غرب الرها بحوالي 80 كـم، وهذا الاسم يطلق على عدة مواضع، فأما الموضع الذي يعنينا فذكر ياقوت أن البيرة «بلدة قرب سميساط بين حلب والثغور، وهي حصينة ولها رستاق واسع...» ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ1، ص 526، 1373هـ/1954م. ولمزيد من التفاصيل عن أهمية موقع البيرة وما تشتهر به، راجع: محمد محمد فرحات: معاقل أعالي الفرات بين المسلمين والصليبيين، ص 49 وما بعدها.

الفاطميين[1]، في حين تولى ابنه الأمير إبراهيم الملقب بمجد الدولة حكم مدينة صيدا وظل بها إلى أن استولى عليها الفرنج عام 1110م/ 504هـ[2]، فانتقل إلى إقليم الغرب الذي كان قد خربه الفرنج قبل استيلائهم مباشرة على مدينة صيدا وتركوه قاعاً صفصفاً بعد أن قتلوا من طائفة أيديهم ولاذ بالفرار كل من تمكن من الهرب، ومن بين هؤلاء الذين نجوا الأمير أبو العشائر بحتر الذي كان لا يزال صغيراً في ذلك الوقت[3] فتولى الأمير مجد الدولة إبراهيم حكم الإقليم - من قبل طغتكين أتابك دمشق 1104- 1128م/498- 522هـ - فقام بتنظيمه وإعادة إعماره مرة أخرى بعد أن عاد إليه كل من اضطر إلى الهرب إبان الهجوم الفرنجي على الإقليم[4].

---

(1) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 69، انظر أيضًا: فيليب حتي: المرجع السابق، ص 170، ج2.

(2) تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة صيدا بالأمان بعد حصار دام سبعة وأربعين يومًا وذلك في الرابع من ديسمبر 1110م/ العشرين من جمادى الأولى 504هـ. عن ذلك انظر:

Albert d'aix, op.cit.,p. 679; Mattieu d'Edesse, op.cit., T.1, p. 17; William of Tyre, op.cit., Vol, I, pp. 487-488.

انظر أيضاً: ابن القلانسي: الذيل، ص 171؛ ابن الأثير: الكامل، جـ8، ص 260.

ولمزيد من التفاصيل عن سقوط المدينة في أيدي الصليبيين انظر: أسامة زكي زيد: صيدا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981م، ص 91-99.

(3) Clermont, Op. Cit., p. 26.

(4) Idem.

ومهما يكن من أمر فقد تمتع البحتريون بقدر وافر من الحرية إبان فترة حكم الأمير مجد الدولة إبراهيم 1110- 1126م/504- 520هـ ؛ نظراً لقصر يد الفرنج عليهم، وساعدهم في ذلك طبيعة بلادهم الجبلية . ونظراً لعدم انضوائهم للنفوذ الصليبي بالمنطقة ورفضهم دفع الضرائب لهم، فضلاً عن انحيازهم لحكام دمشق المسلمين[1] ، أوجس الصليبيون منهم خيفة واستشعروا منهم الخطر؛ مما دفع بالملك بلدوين الثاني (1118- 1131م / 512- 526هـ) إلى الحضور بنفسه للإشراف على تشييد قلعة منيعة في جبال بيروت لكبح جماح البحتريين وإجبارهم على الطاعة، وقد أطلق عليها اسم قلعة مونت جلانين Mont Glainen أو مونت جلافيانوس Mont Glavianus، وهي تبعد حوالى ستة أميال عن مدينة بيروت، وذلك في أكتوبر عام 1125م / 519هـ[2] مما يعكس لنا مدى ما كان يشكله البحتريون من خطر على حدود مملكة بيت المقدس الصليبية في تلك المنطقة .

أدى تشييد الصليبيين لقلعة مونت جلانين إلى الحد من حرية البحتريين في مزاولة أنشطتهم اليومية من زراعة وغيرها وسبب لهم أضراراً بالغة وألحق بممتلكاتهم خسائر مادية فادحة، فضلاً عن أن الصليبيين تمكنوا - بفضل موقع القلعة - من تحسس أخبار البحتريين ونجحوا في إلقاء القبض على ستة من ذوي الشأن منهم[3]؛ لذلك اضطر البحتريون إلى الرضوخ لمطالب الصليبيين فقدموا لهم

---

(1) صالح بن يحيى: المصدر السابق، جـ1، ص 69. انظر أيضاً:
Clermont, Op. Cit., p. 25.

(2) Fulcher of Chartres op. cit., p. 226; cf. also: Nickerson, Op. Cit., pp. 156-157.

(3) Fulcher, Op. Cit., Loc. Cit.

الضرائب نظير عدم التعرض لهم ولممتلكاتهم والسماح لهم بمزاولة أنشطتهم اليومية [1].

والعجيب أن صالح بن يحيى قد صمت عن ذكر هذا الحدث الذي لم يشر إليه سوى المؤرخ اللاتيني فولشر أوف شارتر Fulcher of Charter، كما صمت عن ذكر غيره من الأحداث الأخرى، إلا أننا نلتمس له العذر في ذلك؛ إذ أنه وكما ذكر في مقدمة كتابه قد أوقف هذا العمل على أهل بيته فقط لإبراز مآثر أجداده ليتوارثها الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل و ذلك من خلال ما ورد في مناشيرهم الرسمية التي لم يكن الهدف منها الإشارة إلى الأحداث التاريخية وذكر تفاصيلها بقدر ما كانت تُعنى بإبراز العلاقة بين البحتريين وبين كل من دمشق والقاهرة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أول منشور خاص بالبحتريين أورده صالح بن يحيى في كتابه يرجع تاريخه إلى عام 1147م/542هـ [2] وقد بعث به مجير الدين آبق أمير دمشق [3]، وتاريخ هذا المنشور يلي تاريخ تشييد قلعة مونت جلافين بنحو اثنين وعشرين سنة.

وعلى أي حال، خلف الأمير أبو العشائر بحتر بن عليّ الأمير مجد الدولة إبراهيم في حكم إقليم الغرب وذلك في الفترة من 1126-

---

(1) Nickerson, Op. Cit., p. 149, n.1.

(2) راجع نسخة هذا المنشور في صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 67.

(3) تولى حكم دمشق في الفترة من 1140-1156م / 534-549هـ، ونظراً لحداثة سنه قام معين الدين أنر بتدبير شئون البلاد، واستمر مجير الدين ابق في الحكم حتى سنة 1156م عندما عزله نور الدين عن دمشق وضمها إليه فرحل بعدها إلى بغداد حيث توفي هناك. وللمزيد راجع: ابن الأثير: الكامل، جـ9، ص45-46.

1157م/ 520- 552هـ وقد اتسمت العلاقات الصليبية البحترية إبان عهد هذا الأمير بنوع من الهدوء والاستقرار[1]؛ إذ أدرك البحتريون أنه ليس من الحكمة معاداة الصليبيين؛ نظراً لعدم وجود القوة الإسلامية التي بوسعها حمايتهم والدفاع عنهم إذا ما تعرضوا للخطر الصليبي هذا من جهة، كما أدرك الصليبيون أن من مصلحتهم الإبقاء على علاقات ودية مع البحتريين إذا ما أرادوا لحدودهم الشرقية أن تنعم بالأمن والاستقرار من جهة أخرى، ولأن الإبقاء على البحتريين موالين لهم يعود عليهم بالمنفعة أكثر من معاداتهم حتى وإن كان ميزان القوى في صالحهم؛ لذلك اتسمت العلاقات الصليبية البحترية إبان تلك الفترة بالسلام والاستقرار، ولم يعكر صفوها سوى بعض الغارات القليلة ضد الصليبيين في المنطقة، إلا أنها كانت غارات خاطفة ولم تكن مؤثرة بأي حال من الأحوال ومثال ذلك ما حدث في عام 1151م/546هـ عندما قام الأمير أبو العشائر بُحتر بالهجوم على بعض الفرنج عند نهر الغدير[2] بالقرب من بيروت وتمكن من قتل عدد منهم بينما فر الباقون إلى بيروت للاحتماء بها[3]، وأغلب الظن أن هؤلاء الفرنج كانوا عابرين المنطقة ولم يكونوا من صليبيّي صيدا أو بيروت التي تتاخم حدودهما أملاك البحتريين، والدليل على ذلك أننا لم نسمع عن رد فعل صليبي إزاء هذا الهجوم. ومن العجيب أيضًا أن المصادر المعاصرة وغير المعاصرة من غربية

---

(1) Lammens, Op. Cit., p., 11.

(2) نهر صغير جنوب بيروت. انظر: Clermont, Op. Cit., p. 25, n. 4.

(3) ابن سباط: صدق الأخبار في نسبة آل تنوخ، نشر ضمن كتاب حيدر أحمد الشهابي، ص 566. انظر أيضًا: Churchill, Op. Cit., p. 238.

وإسلامية باستثناء ابن سباط[1] لم تُشر البتة إلى هذا الهجوم ؛ مما يوضح لنا أن البحتريين كانوا على قناعة تامة بضرورة ممالئة الصليبيين في تلك الفترة وعدم معاداتهم حتى يتمكنوا من العيش في سلام دون أن يتعرضوا لخطرهم .

ومهما يكن من أمر فقد خلف الأمير شمس الدولة أبو العز كرامة بن بحتر والده في حكم إقليم الغرب وذلك في سنة 1157م / 352هـ[2]. وقد ظلت العلاقات الصليبية البحترية على صفائها السابق طوال فترة حكمه رغم تغير موازين القوى بالمنطقة ؛ إذ أخذ ميزان القوى تعتدل كفتيه خاصة بعدما تمكن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي 1146- 1174م/541- 569هـ من ضم دمشق إلى ممتلكاته سنة 1156م/549هـ فوحد بذلك بين بلاد الشام جميعها تقريباً ؛ وأصبحت الجبهة الإسلامية قوة كبيرة لها وزنها بمقدورها التصدي للخطر الصليبي وإضفاء حمايتها على رعاياها أمثال البحتريين وغيرهم .

وقد ذكر صالح بن يحيى أن "الأمير كرامة مال إلى جانب الملك العادل نور الدين وأهمل الفرنج"[3]. ويستشف من هذه العبارة أن

---

(1) والجدير بالذكر أن ابن سباط كان يعمل في خدمة الأمراء البحتريين، فليس من الغريب أن ينفرد بذكر هذه الحادثة وغيرها لقربه من البحتريين.

(2) لمزيد من التفاصيل عن شخصية هذا الأمير وأهم أعماله راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 71.

(3) الجدير بالذكر أن الأمير كرامة قدم دمشق حيث مَثُل بين يدي الملك العادل نور الدين الذي شمله بإنعامه، وأعطاه منشوراً يثبت ملكيته لإقليم الغرب وأغدق عليه منحا كثيرة منها عدة قرى في البقاع ووادي التيم، كما كتب للأمير كرامة مرسومًا يحثه فيه على جهاد الفرنج ويأمر رعاياه بطاعته ويحذرهم من مخالفته في هذا الأمر. لمزيد من التفاصيل عن هذه المناشير راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 71-73.

البحتريين قبل ذلك كانوا ممالئين للفرنج ومنحازين إليهم تماماً ثم مالوا إلى جانب نور الدين بعدما قويت شوكته وأصبحت لديه القوة التي تمكنه من الدفاع عن رعاياه . ورغم ما أبداه البحتريون من ميل تجاه نور الدين محمود ، إلا أنهم تمتعوا بنوع من الاستقلال الذاتي فلم يخضعوا لأي من القوتين الصليبية أو الإسلامية وتأرجح ولاؤهم بين هؤلاء وأولئك وفقاً لما تقتضيه مصلحتهم الشخصية وقدموا خدماتهم المختلفة لمن يدفع المقابل[1] وكأنهم ورثوا الدور الذي كانت تلعبه دمشق قبل ضم نور الدين لها[2]؛ لذا حرص كل من الصليبيين والمسلمين على كسب ودهم واستقطابهم إلى جانبهم لما يشكلونه من أهمية لمتاخمتهم لحدود الطرف الآخر[3]. وقد نجح البحتريون في القيام بهذا الدور إلى حد بعيد، الأمر الذي جعل كلاً من المسلمين والصليبيين يشكون في صدق ولائهم من جهة، ولا يثقون في وعودهم قط من جهة أخرى لهذا قام البحتريون

---

(1) Nickerson, Op. Cit., p. 149.

(2) لمزيد من التفاصيل عن سياسة دمشق المزدوجة راجع: ابن القلانسي: الذيل، ص 271-73، 298، ابن الأثير: الكامل، جـ8، ص 367، جـ9، ص 20، 21، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ1، تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة 1960م، ص 88، 113. انظر أيضاً:

William of Tyre, Op. Cit., pp. 190-92.

(3) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 71-72، 83-84، ابن سباط: المصدر السابق، ص 569، شافع بن علي: حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق ونشر عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، جامعة الملك عبد العزيز، المكتبة المركزية، جدة، بدون تاريخ، ص 77. انظر أيضاً:

Jean Richard, op. Cit., p. 396; Claude Cahen, Op. Cit., p. 244.

بإنشاء عدد من الحصون والقلاع المنيعة ليحتموا بها إذا ما دارت عليهم الدوائر، ولعل أشهر هذه الحصون حصن عرامون ومرحمول [1].

ويبدو أن الصليبيين قد عز عليهم ميل البحتريين لنور الدين لما كان بينهما من مودة من قبل ؛ لذا أسر سيد بيروت الصليبي هذا الأمر في نفسه ولم يبده لهم تحيناً للفرصة المواتية التي يثأر فيها منهم، واعتماداً على الهدنة المبرمة بينهم [2] أظهر مشاعر ودية كاذبة حيال أبناء الأمير كرامة - الذين خلفوا أباهم في حكم الإقليم [3] - وحرص على الاجتماع بهم مراراً للصيد حتى اطمئنوا لجانبه . وعندما أحس سيد بيروت بهذا دعاهم ذات ليلة لحضور عُرس ولده، فلبى الثلاثة الكبار هذه الدعوة وحضروا إلى بيروت وبرفقتهم عدد قليل من أتباعهم، ولما دخلوا القلعة لم يخرجوا منها فكان هذا هو آخر العهد بهم . وفي صبيحة اليوم التالي قام سيد بيروت ومن معه من قوات بالإغارة على الإقليم وجالوا خلال دياره ناشرين الرعب والفزع بين أهله وقتلوا عدداً كبيراً منهم بينما فر العديد من سكانه للاحتماء بالأودية المجاورة خوفاً من بطش الصليبيين، ومن بين هؤلاء الذين نجوا زوجة الأمير كرامة وولدها الصغير حجي شقيق الإخوة الثلاثة الذين قتلهم سيد بيروت [4] .

(1) Clermont, Op. Cit., p. 1; cf. also: Lammens, Op. Cit., p. 12.
ويقع كل من حصن مرحمول وعرامون في مقاطعة الغرب الأسفل، انظر: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 70 ج2،ص71 ج2.

(2) Clermont, Op. Cit., p. 1; cf. also: Lammens, Op. Cit., p. 12.

(3) Clermont, Op. Cit., p. 29; cf. also: Churchill, Op. Cit., p. 237.

(4) لم تمدنا المصادر المتاحة بمعلومات تحدد تاريخ وفاة الأمير كرامة بن بحتر، وكل ما نعلمه انه ترك من بعده أربعة أبناء ذكور أصغرهم يدعى جمال الدين حجي، صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 74.

ومهما يكن من أمر فإن هناك سؤالين يطرحان نفسيهما على بساط البحث: أولهما متى تمت هذه الواقعة ؟ والآخر مَن من أمراء الفرنج الذي قام بهذا العمل ؟ يذكر صالح بن يحيى أن هذه الواقعة وقعت في أواخر أيام الملك العادل نور الدين محمود دون تحديد تاريخ محدد لها[1]، بينما ذكر ابن سباط أنها وقعت في 570هـ/ 1174- 1175م[2]. وقد أشار أحد المؤرخين المحدثين إلى أن نور الدين منح قرية جبعة للأمير حجي بعد عدة أيام من هذه الواقعة[3]. وبالرجوع إلى ما ذكره صالح بن يحيى نجده يحدد تاريخ تلك المحنة في مايو 1170م/ رمضان 565هـ[4] . وبناء عليه يثبت للباحث أن هذه الحادثة وقعت في 1170م / 565هـ . هذا ولم تمدنا المصادر المتاحة بمعلومات توضح شخصية سيد بيروت الذي قام بتلك المؤامرة، وإن أشار أحد المؤرخين المحدثين إلى أن جوتييه الثالث بريسبار Gautier III هو الذي قام بتلك المؤامرة[5] وهذا الرأي لا يمكن قبوله على اعتبار أنه تولى حكم بيروت خلال الفترة من 1157م / 552هـ إلى 1166م / 561هـ، وهي فترة تسبق وقوع تلك الحادثة .

---

(1) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 74، ابن سباط: المصدر السابق، ص566، انظر أيضاً: Clermont, op. Cit., p. 29.

(2) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 75.

(3) ابن سباط: المصدر السابق، ص 566.

(4) الشدياق: أخبار الأعيان، ص 255، ولعل نور الدين منح الأمير حجي هذه القرية تعويضاً له عما لحق بأشلائه. هذا ولم نتعرف على موضع قرية جبعة.

(5) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 76. وقد أشار تشرشل إلى أن هذه الكائنة وقعت في 1160م، وهذا خطأ تاريخي واضح. انظر:

Churchill, Op. Cit., p. 238.

على أي حال بعدما انجلت الغارة الصليبية على إقليم الغرب وعاد المغيرون من حيث أتوا ، أخذ سكان الإقليم في العودة ثانية إلى ديارهم ، ولما كان الأمير حجىّ لا يزال صغيراً - لم يتجاوز بعد العاشرة من عمره وقتئذ - لذا لم يكن بمقدوره القيام بهجوم مضاد للثأر من الصليبيين لما ارتكبوه في حق أشقائه الثلاثة وغيرهم من سكان الإقليم، وفضل أن ينتظر الفرصة المواتية لذلك .

ومهما يكن من أمر، أدى غدر الصليبيين بالأمراء البحتريين 1170م/ 565هـ إلى توتر العلاقات بين الجانبين ودفع البحتريين إلى الانحياز التام للجانب الإسلامي ليثأروا مما ألحقه الصليبيون بهم، فقدموا خدمات كبيرة لصلاح الدين، فأطلعوه على دروب المنطقة لمعرفتهم التامة بخباياها وشاركوه في غاراته التي شنها على مدينتي صيدا وبيروت 1179م / 575هـ، وإن لم تشر المصادر إليهم صراحة واكتفت فقط بالإشارة إلى أن صلاح الدين قد استعان في غاراته تلك بالقبائل العربية القاطنة في مجاورات بيروت[1]، ولما كان البحتريون هم سكان تلك المنطقة ولديهم الدافع للانتقام من الصليبيين ؛ لذا فمن المرجح أنهم هم الذين قاموا بشن تلك الغارات .

---

(1) لويس شيخو: تاريخ بيروت، ص 68-69، وجوتيه الثالث هو الابن الأكبر لجي الثاني Guy II سيد بيروت. ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته وأهم أعماله انظر:

Lignage d'Outre-mer, op. cit., p.459; Rohricht Regesta, op. cit., doc. 325.

بينما ذكر جين ريتشارد أن وولتر الثاني بريسبار هو الذي قام بتلك المؤامرة

The Latin Kingdom, 1, p. 28.

وفى سنة 1182م / 578هـ عندما أراد صلاح الدين غزو بيروت عسكرت قواته فى منطقة البقاع التى تعد من ممتلكات البحتريين[1]، وظل بها ينتظر ظهور الأسطول المصرى ليتم حصار المدينة براً وبحراً ؛ لذا بث عيونه وكشافته فى جبال بيروت ليترقبوا لحظة وصول الأسطول ويخبروه بذلك ليبدأ الهجوم البرى والبحرى على المدينة[2]. ومن المرجح أن يكون هؤلاء العيون والكشافة من البحتريين أنفسهم لأنهم سكان تلك المنطقة وهم أدرى بشعابها ودروبها من سواهم، ولاشك أيضاً أنهم قدموا خدماتهم لصلاح الدين أثناء فترة انتظاره بقواته فى سهل البقاع، مما يعكس لنا استمرار تدهور العلاقات بين الصليبيين والبحتريين وانحياز البحتريين التام إلى جانب صلاح الدين، وخير دليل على ذلك أن البحتريين بقيادة الأمير حجىّ قاموا عام 1187م / 583هـ - بعد معركة حطين - بالانضمام إلى قوات صلاح الدين الزاحفة لفتح بيروت وشاركوا فى العمليات العسكرية ضد الصليبيين . واعترافاً بجميلهم قام السلطان صلاح الدين بعد فتح بيروت بتقريب الأمير حجىّ إليه وقال

---

(1) William of Tyre, Op. Cit., p. 447, cf. also Grousset, Op.Cit.,vol II, p. 671.

انظر أيضاً: المقريزى: السلوك،جـ1، ق3، ص 67، أبو شامة: الروضتين ،جـ2، ص 8-11؛ ولمزيد من التفاصيل عن تلك الغارات وموقف رينالد صاحب صيدا انظر: أسامة زكى: المرجع السابق، ص 162-164.

(2) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p. 475, cf. also, Grousset, Op. Cit., Vol. II., p. 710; Churchill, Op. Cit., p. 237

انظر أيضاً: أبو شامة: الروضتين، جـ2، ص 29، الحنبلى: شفاء القلوب فى تاريخ بنى أيوب، تحقيق ناظم رشيد، بغداد 1979م، ص 98، أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، 4ج فى مجلدين، بيروت بدون تاريخ، جـ3، ص 64، البندارى: سنا البرق الشامى، اختصار كتاب البرق الشامى للعماد الكاتب الأصفهانى، تحقيق د. فتحية النبراوى، القاهرة 1979م، ص 200-201.

له:"ها نحن قد أخذنا ثأرك من الفرنج فطيب قلبك وأنت مستمر مكان أبيك وإخوتك " وكتب لـه منشوراً يقره فيه على إقطاعه[1] واعترف بنفوذه على المنطقة الجبلية لصيدا وبيروت[2].

على أي حال، بعدما تمكن الصليبيون من إعادة استيلائهم على ساحل بيروت 1197م/593 هـ لم ينسوا موقف البحتريين السابق منهم بعد حطين وانحيازهم التام لصلاح الدين وما قدموه له من خدمات، فضلاً عن احتفاظهم بالمناطق الداخلية التي كانت تابعة لهم قبل فتح صلاح الدين لها 1187م / 583هـ[3]، فتعمدوا مضايقة البحتريين وإلحاق الأذى بهم وبممتلكاتهم ؛ مما أعاقهم عن مزاولة أنشطتهم اليومية التي اعتادوا عليها من قبل ؛ لذا أرسل الأمير جمال الدين حجيّ رسالة إلى الملك العادل شقيق الناصر صلاح الدين[4] 1196 - 1218م/ 592- 615هـ يشكو فيها من مضايقة الفرنج لهم وما يعانونه من

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن هجوم صلاح الدين على بيروت وما آل إليه، انظر:
William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 475-80, cf. also Grousset, Op. Cit., Vol. II, p. 710.

انظر أيضاً: ابن الاثير: المصدر السابق، جـ9، ص 156، أبو شامة: المصدر السابق، جـ2، ص 29، البنداري: المصدر السابق، ص 200–201.

(2) راجع تفاصيل هذا المنشور في صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 75-76، ابن سباط: المصدر السابق، ص 566.

(3) Clermont, Op. Cit., p. 29.

(4) Richard of Cornwall, Letter to Baldwin of Rierers and Robert Clerck Rome 1. July, 1241 in Mattew, Paris, Vol. I, p. 142.

انظر أيضاً: المقريزي: السلوك، جـ 1، ق2، ص 303–304، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، قام على نشره أنطون خاطر وأزولد بورمستر، المجلد الرابع، جـ2، القاهرة 1974، ص 107.

متاعب بسبب تلك المضايقات . وقد طلب الملك العادل من الفرنج - اعتماداً على الهدنة المبرمة بينهما[1] - حُسن معاملة البحتريين وأرسل خطاباً للبحتريين يحمل هذا المعنى[2]. ويبدو أن الفرنج لم يلتزموا تماماً بوعودهم تجاه البحتريين، والدليل على ذلك أن الأمير جمال الدين حجىّ أرسل خطاباً آخر إلى العزيز عثمان ملك مصر 1193- 1198م / 589- 595 هـ في ذلك الوقت يشرح فيه الحالة التي باتوا عليها وما يسببه الفرنج لهم من مضايقات، ويبدو أن العزيز عثمان تمكن من إقناع الصليبيين بضرورة التوقف عن مضايقة البحتريين، كما حثهم على حُسن معاملتهم، وأرسل خطاباً يحمل هذا المعنى إلى الأمير جمال الدين حجى[3].

---

(1) أخطأ صالح بن يحيى عندما ذكر أن الأمير جمال الدين حجى أرسل خطابه إلى الملك الأفضل على بن صلاح الدين 1197م/ 593هـ، فالثابت أن الملك العادل هو الذى كان يتولى حكم دمشق فى ذلك العام، راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 77.

(2) عقدت هذه الهدنة بين الملك العادل والملك عمورى الثانى بسنة 1198م/ 594هـ، وهى تماثل الهدنة التى عقدها صلاح الدين مع الملك ريتشارد قلب الأسد قبل ذلك بسنوات وإن زيد عليها أن يحتفظ الصليبيون ببيروت وجبيل فى مقابل بقاء يافا فى أيدى المسلمين. وللمزيد انظر:

Eracles, op. cit., p.228; Ernoul, op. cit., pp. 316-17.

انظر أيضاً: ابن الأثير: المصدر السابق، جـ9، ص 238، أبو الفداء: المصدر السابق، جـ3، ص 94، أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 13، ابن واصل: المصدر السابق، نشر الشيال، مصر 1953م، جـ3، ص 78.

(3) ابن سباط: المصدر السابق، ص 566. انظر أيضاً: الشدياق: المرجع السابق، ص 226.

مهما يكن من أمر فقد أخذت العلاقات الصليبية البحترية تشهد بداية مرحلة جديدة من تاريخها اتسمت بروح التعاون والوئام وإن ظل البحتريون خلالها يمارسون سياستهم المعهودة والتى ترتكز على ضرورة وجود علاقات طبيعية بينهم وبين القوتين الصليبية والإسلامية مع عدم الانحياز التام لأى منها بقدرما أمكنهم ذلك . وخير دليل يبين لنا تحسن تلك العلاقات ما حدث فى 1240م/ 638هـ من عودة الأجزاء الداخلية من بيروت - والتى كان يحتفظ بها البحتريون منذ 1187م/ 583 هـ - إلى الصليبيين إثر الاتفاق الذى أُبرم بين الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر 1240- 1249م/ 637- 647 هـ وريتشارد أوف كورنويل Richard of Cornwall قائد الحملة الإنجليزية . وفى العام التالى عام 1241م/639هـ استعان باليان دى إبلين Balian d'Iblin سيد بيروت 1236- 1243 م/ 633- 641 هـ بأعداد كبيرة من البحتريين للتصدى لريتشارد فيلانجيرى Richard Filangieri المندوب الإمبراطورى فى الشرق وإفشال مخططه لضرب الحزب المعارض للإمبراطور فريدريك الثانى Frederich II 1212- 1250م / 609- 648 هـ . فذكرت المصادر الغربية أن باليان دى إبلين قد حشد قواته العسكرية واستعان بأعداد كبيرة من سكان المناطق الجبلية لبيروت من " الكفار والمسيحيين". وبما أن البحتريين هم الذين يقطنون جبال بيروت فمن المرجح أنهم هم المقصودون بكلمة الكفار التى أوردتها المصادر السابقة ، ويعد هذا دليلاً قوياً على تحسن العلاقات الصليبية البحترية ولعل المقصود بكلمة "المسيحيين" الموارنة .

مهما يكن من أمر فقد أخذت العلاقات الصليبية البحترية تشهد بداية مرحلة جديدة من تاريخها اتسمت بروح التعاون والوئام وإن

ظل البحتريون خلالها يمارسون سياستهم المعهودة والتى ترتكز على ضرورة وجود علاقات طبيعية بينهم وبين القوتين الصليبي والإسلامية مع عدم الانحياز التام لأى منها بقدرما أمكنهم ذلك . وخير دليل يبين لنا تحسن تلك العلاقات ما حدث فى 1240م/ 638 هـ من عودة الأجزاء الداخلية من بيروت - والتى كان يحتفظ بها البحتريون منذ 1187م /583 هـ - إلى الصليبيين[1] إثر الاتفاق الذى أبرم بين الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر 1240- 1249م/ 637- 647 هـ وريتشارد أوف كورنويل Richard of Cornwall قائد الحملة الإنجليزية[2]

وفى العام التالى عام 1241م/ 639هـ استعان باليان دى إبلين Balian d'Iblin سيد بيروت 1236 - 1243م / 633- 641هـ[3] بإعداد

---

(1) فى الخطاب الذى أرسله الأمير ريتشارد كورنويل قائد الحملة الإنجليزية 1240م/638هـ الذى أرسله إلى أصدقائه فى الغرب ذكر الإنجازات التى حصل عليها والمدن التى استردها الصليبيون ومن جملتها المنطقة الداخلية لبيروت وغيرها من المدن، عن ذلك انظر:

Richard of Cornwall, Op. Cit., Vol. I, p. 142; Eracles, Op. Cit., T. II, pp. 420-23.

انظر أيضاً: المقريزى: المصدر السابق، جـ1، ق2، ص 303-304، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، م4، جـ2، 107.

(2) لمزيد من التفاصيل عن حملة ريتشارد أوف كورنويل انظر:

Annales de Terre Sainte, Publiées par Rohericht et G. Raynoud, in (A.O.L.) T. II, p. 440; Eracles, Op. Cit., pp. 413-15; William of Nangi, Gesta Sanctae Memoriae Ludovici Regis, in R.H.G.F. Vol. XX, ppp. 328-29.

(3) هو الابن الأكبر ليوحنا دى إبلين سيد بيروت، وقد تولى حكم المدينة بعد وفاة أبيه سنة 1236م/633هـ، وتمكن من إلحاق الهزيمة بأنصار الإمبراطور فريدريك فى الشرق وطردهم من مدينة صور. للمزيد عن ذلك انظر:

Philip of Novar, The Wars of Frederick II Against the Ibelins in Syria and Cyprus, Trans. by J.L. La Monte and M.J. Hubert, New York 1936, pp. 171-184; Annales de Terres Sainte, p. 441; Amadi, pp. 189-194.

كبيرة من البحتريين للتصدي لريتشارد فيلانجيري Richard Filangieri المندوب الإمبراطوري في الشرق وإفشال مخططه لضرب الحزب المعارض للإمبراطور فريدريك الثاني Frederich II 1212-1250م/ 609- 648هـ[1]. فذكرت المصادر الغربية أن باليان دي إبلين قد حشد قواته العسكرية واستعان بأعداد كبيرة من سكان المناطق الجبلية لبيروت من "الكفار والمسيحيين"[2]. وبما أن البحتريين هم الذين يقطنون جبال بيروت فمن المرجح أنهم هم المقصودون بكلمة الكفار التي أوردتها المصادر السابقة، ويعد هذا دليلاً قوياً على تحسن العلاقات الصليبية البحترية ولعل المقصود بكلمة "المسيحيين" الموارنة .

ومهما يكن من أمر فقد ظلت العلاقات الصليبية البحترية تشهد تحسناً مضطرداً بينهما حتى اعتلاء السلطان بيبرس البندقداري عرش مصر 1260- 1277م/ 658- 676 هـ الذي أخذ على عاتقه مهمة تصفية الوجود الصليبي وقطع دابره من المنطقة ؛ لذلك لم يأل جهداً في الاستعانة بكل وسيلة تعينه على تحقيق هذا الهدف . وإدراكاً منه لأهمية الدور الذي يلعبه البحتريون عمد إلى استقطابهم إلى جانبه لإبعادهم عن الصليبيين ليحرمهم مما يقدمه البحتريون لهم من خدمات

---

(1) حاول ريتشارد فيلانجيري ممثل الإمبراطور فريدريك في الشرق ضرب الحزب المعارض للإمبراطور الذي كان يتزعمه باليان دي إبلين سيد بيروت بعضهم البعض واستمالة بعضهم إلى تأييد السلطة مع يوحنا فالان John Vallian ووليم دي كونش William de Conches اللذين انشقا عن حزب الإبلين وكلفهما بالعمل على جذب نبلاء آخرين لحزب الإمبراطور، ولما علم ريتشارد فيلانجيري بقدوم سيد بيروت وأنصاره انسحب على الفور إلى صور. وللمزيد انظر:
Amadi, Op. Cit., pp. 188-89; Philip of Novar, Op. Cit., pp. 171-73; Annales de Terre Sainte, p. 441.

(2) Amadi, Op. Cit., p. 188.

هذا من جهة، والاستفادة منهم فى تحقيق هدفه من جهة أخرى، فطلب من البحتريين مد يد العون له وإطلاعه على أخبار الفرنج المجاورين لهم[1]، فأبدى البحتريون استجابة كبيرة لهذا الأمر ورحبوا به خاصة وأن ذلك لا يتعارض مع السياسة التى رسموها لأنفسهم من قبل. وقد تبادل الجانبان العديد من الرسائل التى تحمل فى طياتها أخبار الفرنج المجاورين فى صيدا وبيروت وورد السلطات المملوكية على ذلك بالشكر والتقدير والحث على مداومة المراسلات بينهما، ومن أمثلة ذلك الخطاب الذى أرسله السلطان بيبرس إلى جمال الدين حجىّ وزين الدين بن على[2] يشكرهما فيه على حسن تعاونهما معه و إطلاعه على أخبار العدو " و يطلب منهما أن يستمرا على ذلك و يهتما به و ليطيب قلبهما وليشرحا صدرهما فسوف يجنيان وأخاهما ثمرة خدماتهما ومجهودهما وليطالعنا بالأخبار والمتحذرات والله يوفقهما"[3]. وهناك أيضاً خطاب من أقوش النجيبى – نائب الشام – عن السلطان بيبرس إلى الأمير جمال

---

(1) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 86،98، انظر أيضاً:
Clermont, Op. Cit., p. 21, n. 1.

(2) كان معاصراً لجمال الدين حجى وأخيه سعد الدين خضر ولدى نجم الدين محمد بن جمال الدين حجىّ بن كرامة، وهو ابن عم جدهما وكان من أشجع أهل زمانه وأشدهم بأساً، وكان أكرم وأوفر مروءة. ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 72–73، 92–93. راجع أيضاً جدول نسب بنى بحتر فى آخر الكتاب.

(3) راجع نص هذا الخطاب فى: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 97–98، انظر أيضاً: Clermont, op. Cit., p. 21.

الدين حجيّ يطلب منه ضرورة جمع العساكر التي لديه وتوجيهها إلى مدينة صيدا[1] مما يعكس لنا مدى التعاون الحقيقي بين الجانبين .

أدرك الصليبيون عظم الخطر الذي يأتي من جراء ما ينقله البحتريون من معلومات عنهم للسلطات المملوكية وإطلاعهم على ما يجرى داخل بلادهم مما يتيح للمماليك فرصة أكبر للتعرف على أحوالهم وما يجري بينهم، لذا فقد حاول جوليان Julien سيد صيدا الصليبي[2] 1239- 1261م / 637- 659 هـ ثني البحتريين عن الاستمرار بالقيام بهذا الدور عن طريق إغرائهم بالمنح والوعود الكثيرة التي يسيل لها لعابهم، فتذكر الرواية العربية أن جوليان قام بمنح الأمير جمال الدين حجيّ بن نجم الدين محمد بن حجي[3] ضيعة بقرية الدامور التي على الساحل لتكون ملكاً له ولولده ولمن يقوم مقامه على أن يكف الأمير عن نقل أخبارهم إلى السلطات المملوكية[4]، مما يعكس لنا خطورة

---

(1) راجع أيضا نص هذا الخطاب في: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص96-97، انظر أيضاً: Clermont, Op. Cit., p. 21.

(2) هو ابن باليان جارنييه وآخر بارونات صيدا، وكان فارساً شجاعاً ثقيل الوزن، وكان مشهوراً بحبه الشديد للنساء والمقامرة، وتنازل عن حكم بارونية صيدا للداوية سداداً لديونه المتراكمة عليه سنة 1261م/660هـ. ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر:
LesGestes des Chiprois, cf. R.H.C. Doc. Arm., T. II, p. 775.
انظر أيضاً: أسامة زكي زيد: المرجع السابق، ص 225-226.

(3) هو الأمير جمال الدين حجي بن نجم الدين محمد بن حجي، ولد سنة 1236م/633هـ، وتوفي سنة 1298م/697هـ. ولمزيد من التفاصيل عنه انظر: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 80-81.

(4) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 83-84. انظر أيضاً:
Jean Richard, Op. Cit., p. 396; Lammens, Op. Cit., p. 11.

الدور الذى كان يلعبه البحتريون على مسرح الأحداث السياسية إبان تلك الفترة .

وانطلاقاً من تلك السياسة التى رسمها البحتريون لأنفسهم فقد عملوا جهد استطاعتهم على الإبقاء على علاقات ودية مع الصليبيين والمماليك على حد سواء ولم يشرعوا فى القيام بأى عمل قبل أن يروا فيه أنه يتمشى ومصلحتهم الشخصية ؛ لذا لم يمنعهم قبولهم لمنحة جوليان سيد صيدا وما تعهدوا به له من أن يحافظوا على علاقاتهم الودية مع السلطات المملوكية واستمروا ينقلون إليهم أخبار الفرنج المجاورين لهم، ومن أمثلة ذلك الخطاب الذى أرسله جمال الدين حجىّ إلى السلطان بيبرس بأمر زواج ملك قبرص[1] من ابنة سيد بيروت[2] وامتنان السلطان بيبرس بتعاون البحتريين معه وشكرهم على ذلك، وأخبرهم أنه كان على علم مسبق بهذا الأمر.

استمرت العلاقات البحترية الصليبية قائمة لم تنفصم عراها رغم أن ميزان القوى فى تلك الفترة كان يميل بوضوح لصالح الجبهة الإسلامية ، فذكرت المصادر العربية أن الأمير زين الدين وجمال الدين

---

(1) هو هيو الثانى لوزيجنان 1261-1267م/ 660-666هـ. ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته وحياته انظر:

Makhairas, op. cit., p.43; Du Cange, op. cit., p.235; cf. also Grouset, Op. Cit., Vol. 111, p. 665.

(2) هى الأميرة إيزابيل ابنة يوحنا الثانى سيد بيروت، وقد ورثت الإقطاعية بعد موت أبيها سنة 1264م/ 662هـ لأنه لم يعقب ذكوراً، وقد عرفتها المصادر العربية باسم "الدجونة" ربما تحريفاً لبيت إيلين. ولمزيد من التفاصيل انظر: ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، تحقيق الدول والملوك، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانية ببيروت، 1942م، جـ 7، ص 35.

حجيّ وأخوه سعد الدين خضر[1] قد أرسلوا رسالة إلى بوهمند السادس 1252- 1268م/ 649- 666هـ أمير طرابلس يظهرون له فيها الود، وبادلهم نفس هذه المشاعر في رده عليهم[2] ولسوء طالع البحتريين وقع خطاب بوهمند السادس بطريقة أو بأخرى في يد السلطان بيبرس الذي تميز من الغيظ وأمر على الفور بالقبض على هؤلاء الأمراء الثلاثة فحبس زين الدين بن على في سجن مصر، وجمال الدين حجيّ في الكرك، وأخاه سعد الدين خضر بقلعة عجلون، ثم جمع الثلاثة بعد ذلك في سجن مصر 1271م/ 670هـ. ولم تُجد مع بيبرس شفاعة الشافعين فيهم وأقسم أنه لن يطلق سراحهم إلا بعدما يفتح طرابلس وصيدا وبيروت، ومع ذلك لم ينزع منهم إقطاعاتهم أو يجردهم من ملكهم[3].

ويستشف من إقدام بيبرس على سجن الأمراء البحتريين مع عدم انتزاع إقطاعهم وتجريدهم من أملاكهم أنه لم يكن على يقين تام من تورطهم في هذا العمل، ورغم أن المؤرخ صالح بن يحيى ينفي عن أسلافه تلك التهمة ويذكر أنها كانت مجرد مكيدة دبرها تقي الدين نجي ابن

---

(1) سعد الدين خضر بن محمد هو شقيق جمال الدين حجي، كان رجلاً جليل القدر مغرم بالخيل والصيد، ولد في رجب سنة 639هـ، وتوفي في ذي القعدة سنة 713هـ. ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 87-90.

(2) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 98. انظر أيضاً:
Clermont, Op. Cit., p. 21.

(3) الجدير بالذكر أن الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة هو الذي حاول إقناع السلطان بيبرس بالإفراج عن الأمراء البحتريين، إلا أنه فشل في ذلك. انظر: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 98،99؛ ابن سباط: المصدر السابق، ص 568. انظر أيضاً:
Jean Richard, Op. Cit., p. 397; Claud Cahen, Op. Cit., p. 244.

أبي الجيش الذي يضمر الحقد والحسد للبحتريين بسبب ما وصلوا إليه من منزلة ومكانة [1]. إلا أن الباحث يتشكك في ذلك، فلو سلمنا أن الرسالة التي أرسلها الأمراء البحتريون قد زورها تقي الدين نجا كما ذكر صالح بن يحيى فإن رد بوهمند السادس من غير شك لم يكن مزوراً، وأنه كان يعرف هؤلاء الأمراء ومكانتهم بدليل أنه أرسل الرد على خطابهم ولم يطلعنا على فحواه صالح بن يحيى لحاجة في نفسه، وإذا قيل إن هؤلاء الأمراء قد بلغوا من الشهرة والمكانة العالية ما جعل بوهمند السادس وغيره من الصليبيين على دراية بمكانتهم تشير إلى أن هناك قرائن سابقة على هذا الحدث ولاحقة له تعزز ما ذهب إليه الباحث . فعندما استولى التتار على دمشق 1260م/ 658 هـ أسرع الأمير جمال الدين حجي بن محمد إليهم لخطب ودهم وتبعه ابن أخيه الأمير زين الدين بن علي، ولما بلغهما نبأ خروج القوات المصرية تحت قيادة قطز تشاوروا في الأمر واتفقا على أن يتوجه زين الدين إلى المعسكر المصري ويقيم جمال الدين عند التتار بدمشق، حتى إذا انتصر أحد الفريقين سد المنتصر خلة رفيقه . وقد أبلى زين الدين على بلاءً حسناً في معركة عين جالوت مما جعل قطز يقبل الشفاعة فيه [2]. أما بالنسبة للأمير جمال الدين حجيّ بن محمد فلم يذكر صالح بن يحيى الذي أورد هذه الرواية موقف قطز منه، ولعل مقتل الأخير بعد معركة عين جالوت بوقت قصير

---

(1) هو أحد أفراد قبيلة أبي الجيش التي اشتهرت بعداوتها للبحتريين، عن ذلك انظر: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 102-103، انظر أيضاً:

Jean Richard, Op. Cit., p. 396.

(2) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 93-94، ابن سباط: المصدر السابق، ص567، انظر أيضاً:

Jean Richard, Op. Cit., Loc. Cit.; Lammens, Op. Cit., p. 12.

وانشغال خليفته بيبرس بتثبيت أقدامه فى حكم مصر فى أول الأمر هو الذى أدى إلى إهمال جانب الأمير جمال الدين، وهذا دليل دامغ على تورط البحتريين مع التتار ضد المسلمين . والذى يتورط مع التتار - ألد أعداء المسلمين - لا يتورع أن يقيم علاقات مع الصليبيين أيضاً، ويزيد ذلك ما ذكره ابن سباط " أن الملك الظاهر كان يحسب أن لهم [البحتريين] اتفاقاً وعهوداً مع الإفرنج، فكان ينظر إلى الأمراء المذكورين بالعين الرفيعة ويخاف منهم "[1]. وظل الأمراء الثلاثة فى سجن بيبرس حتى وفاته 1277م/ 676 هـ حيث أطلق ابنه السعيد بركة سراحهم فى نفس العام[2].

ورغم المعاناة التى كابدها الأمراء البحتريون خلال فترة الحبس من جراء اتصالهم بالفرنج ؛ إلا أنهم عاودهم الحنين مرة أخرى إلى اتباع سياستهم المعهودة فاتصلوا بالفرنج وتوطدت العلاقات بينهم من جديد ، وخير دليل على ذلك الاتفاق الذى تم بين همفرى أوف مونت فورت Humphrey of Montfort سيد بيروت[3] والأمير زين الدين بن على

---

(1) ابن سباط: المصدر السابق، ص 568.

(2) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 98. انظر أيضاً:

Cllermont, Op. Cit., p. 21.

ولمزيد من التفاصيل عن موت بيبرس وتولية ابنه السعيد بركة الحكم راجع: ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص 43؛ الروض الزاهر، ص 273-274؛ ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 223-224؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ1، ص 48؛ بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص 91؛ زبدة الفكرة، جـ9، ص141-142.

(3) همفرى أوف مونت فورت هو الابن الثانى لفيليب أوف مونتفورت سيد صور الذى تزوج من الأميرة إشيف Eschive سيدة بيروت والتى ورثت الحكم بعد

سنة 1280م/ 679هـ. فذكر صالح بن يحيى أن سيد بيروت قام بمنح الأمير زين الدين بن على ضيعة فى بلاد بيروت بشرط ألا يبيعها أو يهبها، وإذا ما فعل ذلك رجع عن هبته؛ وفى مقابل ذلك تعهد الأمير زين الدين بن على بعدم إيواء المجرمين اللاجئين إليه من بيروت وألا يمكنهم من البقاء فى إقطاعه أكثر من ثمانية أيام ويردهم صلحًا أو قسرًا، كما تعهد بمنع المتسللين إلى بلاد بيروت للوصول إليها والإفساد فيها[1].

وذكر صالح بن يحيى أن كاتب هذه الوثيقة هو "جورج بن يعقوب" كاتب القلعة "والكتاب فى رق وفى أدناه ختم فى شمع أحمر خيال بفرسه ورمحه وترسه وهو رنك صاحب بيروت ودائر الختم كتابة بالإفرنجية فى أصل الختم"[2]. ولعل المقصود بالقلعة هنا قلعة بيروت التى يدير منها سيد بيروت شئون إقطاعه. ويستشف من اسم كاتب الوثيقة أنه مسيحى من أصل عربى، ولعله كان يعمل فى خدمة الأمراء الصليبيين ببيروت الذين استعانوا به وبأمثاله فيما يختص بالتعاملات العربية.

وهناك تساؤل يطرح نفسه ألا وهو: هل البنود التى أوردها صالح بن يحيى تمثل ترجمة عربية لتلك الوثيقة أم هى نسخة طبق الأصل من

=موت أختها الكبرى إيزابيل، وقد ماتت عام 1284م/683هـ، ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته انظر:

Du Cange, op. Cit., p. 236.

(1) Clermont,Op.Cit,;p.5,11-12; cf. also. Jean Richard, Op. Cit., pp. 396-97; Prawer, Crusader Institutions, Oxford, 1980, p. 206.

ولمزيد من التفاصيل عن بنود هذه المعاهدة، راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 111.

(2) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 112.

الوثيقة اللاتينية كتبت باللغة العربية فى نفس الوقت؟ الواقع أن هذين الاحتمالين واردين لكننا نميل إلى الاحتمال الأخير على اعتبار أن كاتب هذه الوثيقة مسيحى من أصل عربى، وبما أنه كتب نص الوثيقة باللاتينية فمن اليسير عليه أن يكتب نسخة أخرى لنفس الوثيقة باللغة العربية، ومهما يكن من أمر فإن صالح بن يحيى أورد لنا كل هذه التفاصيل الهامة دون تعليق منه ودون أن يدرى أنه بذلك يثبت تورط البحتريين فى علاقاتهم مع الصليبيين وبذلك يضيف لنا دليلاً آخر على صدق ما ذهب إليه الباحث فيما يتعلق بهذا الصدد.

يبدو أن العلاقات الصليبية البحترية قد توطدت أكثر فأكثر، إذ ذكر صالح بن يحيى أن ملك قبرص أهدى الأمير سعد الدين خضر هدية عبارة عن مجموعة من الطيور الجوارح نظراً لشغف الأمير بتربية هذه الطيور واللعب بها. والعجيب أن المؤرخ نفسه يشير إلى أنه يرجح أن يكون سيد بيروت هو الذى أهدى هذه الطيور وليس ملك قبرص(1)، والباحث يتفق مع رأى صالح بن يحيى فى ذلك؛ نظرًا لمتاخمة أملاك البحتريين لبيروت من جهة، والعلاقات الودية التى ارتبطت بينهما من جهة أخرى. وهذا دليل آخر يضاف إلى غيره من الأدلة السابقة على طبيعة العلاقات الصليبية البحترية فى ذلك الوقت.

وفى أغسطس 1283م/ جماد أول 682 هـ انتهز البحتريون فرصة مرور القوات البرية ليو الثالث ملك قبرص- بالقرب من ممتلكاتهم - متوجهة إلى بيروت صوب صور وقاموا بالإغارة عليها وقتلوا منهم أعدادًا كبيرة وأسروا ثمانين رجلاً، فضلاً عن غنائم كثيرة

---

(1) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 88

أخرى[1]. وما قام به البحتريون من هجوم على القوات القبرصية لم يكن له أثر سلبى على صليبيى صيدا وبيروت ؛ نظراً لأن هذا الهجوم لم يكن موجهاً ضدهم وإنما كان موجهاً ضد القبارصة ؛ لذا فقد استمرت العلاقات بينهما على صفائها السابق.

لم تقتصر علاقة البحتريين على فرنج صيدا وبيروت المجاورين لهم فحسب، بل تخطت ذلك إلى فرنج عكا أيضاً . فيذكر ابن سباط أن الرسائل تبودلت بين البحتريين من جهة، وفرنج صيدا وعكا من جهة أخرى فى نفس هذا العام 1283م/ 682هـ[2]. وعلى الرغم من أن صالح بن يحيى يذكر أن هذه الخطابات قد زورها أيضاً تقى الدين نجا بن أبى الجيش نكاية فى البحتريين لما حظوه من مكانة عالية[3]، إلا أن الباحث يتشكك فى صدق تلك الرواية أيضاً، والدليل على ذلك أن العلاقات البحترية المملوكية فى عهد السلطان المنصور قلاوون

---

(1) من المعروف أن الملك هيو الثالث ملك قبرص توج ملكاً على مملكة بيت المقدس الاسمية 1269م/ 668هـ، بيد أنه فشل في القبض على زمام الأمور بها، فغادرها دون أن يعين نائباً عنه وعاد إلى قبرص 1276م/675هـ، مما أتاح لشارل الأنجوى أن يطالب بتاج المملكة بوصفه وريث الإمبراطور فريدريك الثاني في صقلية. وفي 1283م حاول هيو الثالث استعادة نفوذه السابق في مملكة بيت المقدس فغادر قبرص على رأس حملة عسكرية متوجهاً إلى عكا، بيد أنه فشل في ذلك ومات في نفس العام. وللمزيد انظر: ابن الفرات: المصدر السابق، جـ7، ص 277، المقريزي: المصدر السابق، جـ1ق3، ص 716، ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 47-48

(2) ابن سباط: المصدر السابق، ص 569، الشدياق: المرجع السابق، ص 229. انظر أيضاً: Clermont, op. Cit., p. 23.

(3) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 108.

1279- 1289م/ 678- 688 هـ قد شهدت توتراً كبيراً وخطيراً، فلم يكن موقف المنصور قلاوون حيال البحتريين كسلفه بيبرس، بل كان أشد منه وأعنف؛ إذ قام بتجريد هؤلاء الأمراء من ممتلكاتهم وجعلها للحلقة الطرابلسية [1] 1289م/ 688هـ [2]، ولا نستبعد قيامه بإلقاء القبض عليهم وسجنهم، وإن كان صالح بن يحيى ينفي سجن الأمراء البحتريين مرة أخرى على عهد المنصور قلاوون.

أخذت النكبات تترى على البحتريين، فاستغل فرنج بيروت ما لحق بأمراء البحتريين من ضرر على يدي المنصور قلاوون وقاموا عام 1291م/ 690هـ بالإغارة على بلادهم. وقد تمكن جي Guy سيد بيروت [3] من الإيقاع بهم وقتل عدداً كبيراً منهم شدراً [4]. ولعله قد قام

---

(1) جند الحلقة كان عددهم أربعة وعشرين ألف جندياً، كل ألف منهم مضاف إلى أحد الأمراء مقدمي الألوف، وكل مائة من الألف لهم باش ونقيب، ومنهم من هو بحري يركز بالقلعة، ومنهم من يركز في خدمة السلطان بمراكز معينة بمصر والقاهرة، ومنهم من يتوجه في المهمات الشريفة، انظر: ابن شاهين الظاهري: المصدر السابق، ص 116.

(2) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 108، انظر أيضاً:
Lammens, Op. Cit., p. 12.
ولمزيد من التفاصيل عن فتح قلاوون لطرابلس انظر: أبو الفداء: المصدر السابق، جـ4، ص 23، شافع بن علي: المصدر السابق، ص 134-135، المقريزي: المصدر السابق، جـ1، ق3، ص 746، الحنبلي: شفاء القلوب، ص456.

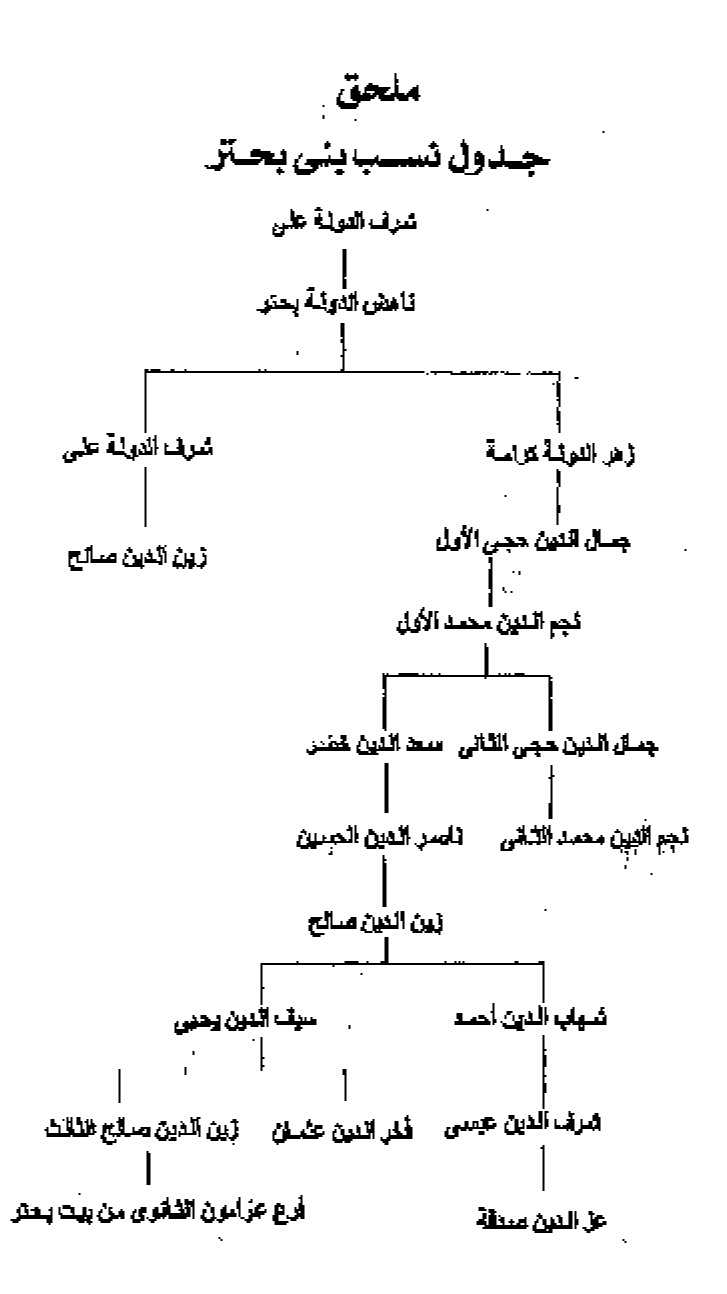
(3) جي هو ابن الملك هيو الثالث، وقد تزوج من إشيفا بعد موت زوجها الأول همفري أوف مونت فورت، انظر: Du Cange, Op. Cit., p. 236.

(4) الحريري: الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، دار الدعوة، الإسكندرية 1984م، ص 72.

بخليته تلك مكمل وثائق حتى لا يقدم البحتريون على صد يد العون للأشرف خليل 1289- 1293م/ 688- 692 هـ إذا ما أراد استفادة بيروت، لمعرفتهم التامة بخبايا المنطقة ودروبها واطلاعهم على عورات البلاد . وهكذا جنى البحتريون عاقبة سياستهم المزدوجة تجاه الصليبيين والمسلمين على حد سواء .

بيان بالمختصرات

- A.O.L. : Les Archives de l'Orient Latin .
- A.S.C. : Anonymus Syriac Chronicles.
- B.S.O.A.S. : Bulletin of the School of Oriental & African Studies.
- C.M.H. :The Cambridge Medieval History.
- C. S. : Crusade Settlement.
- E. H. R. : English Historical Review.
- J.A. : Journal Asiatique.
- M.G.H., SS., : Monumenta Germaniae Historica.
- P.P.T.S. : Palestine Pilgrims Text Society.
- R.A.O. : Recuiel d'Archéologie Orientale .
- R. C: Recueil De Cours.
- R.H.C. Doc. Arm., : Recueil des Histoirens des Croisades,Docuuments Armeniens.
- R.H.C. H.Occ., : Recueil des Histoirens des Croisades, Historians Occidentaux.
- R.H.G.F. : Recuiel des Historiens de Gaule et de France.



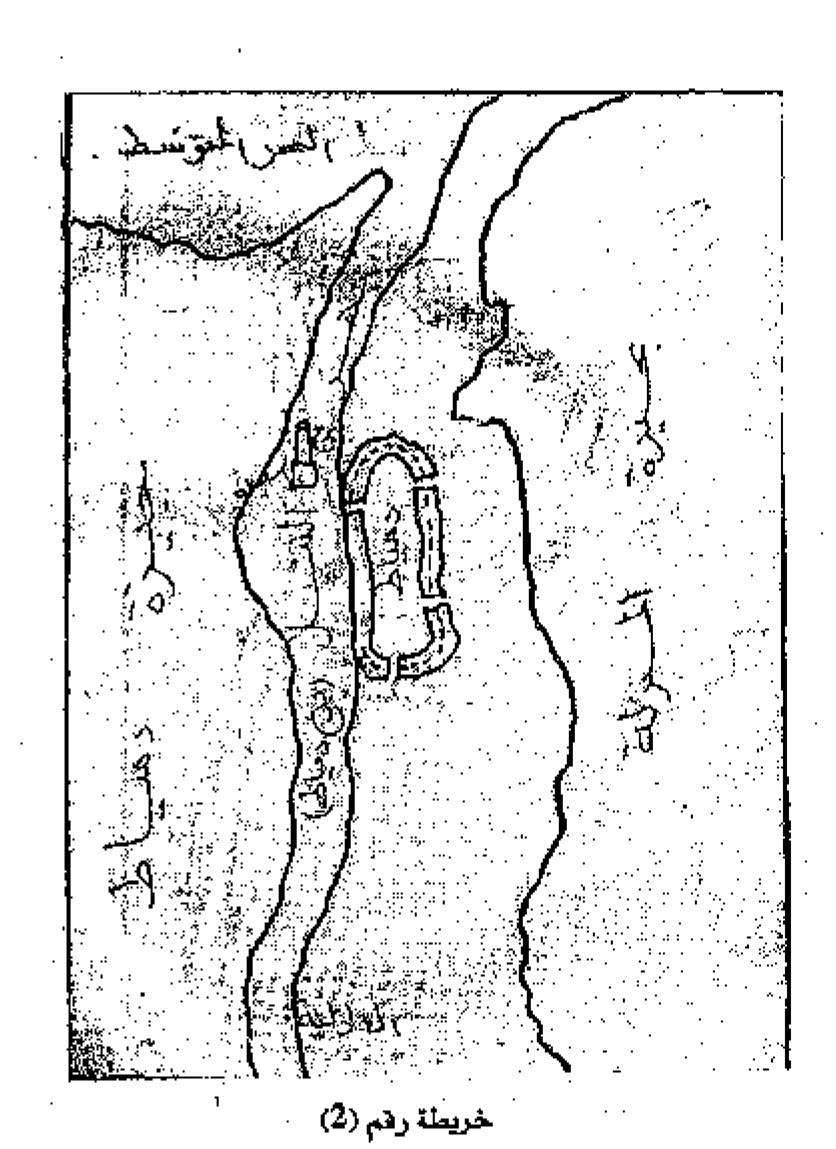
نقلاً عن : صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص 64.

قائمة الخرائط والصور



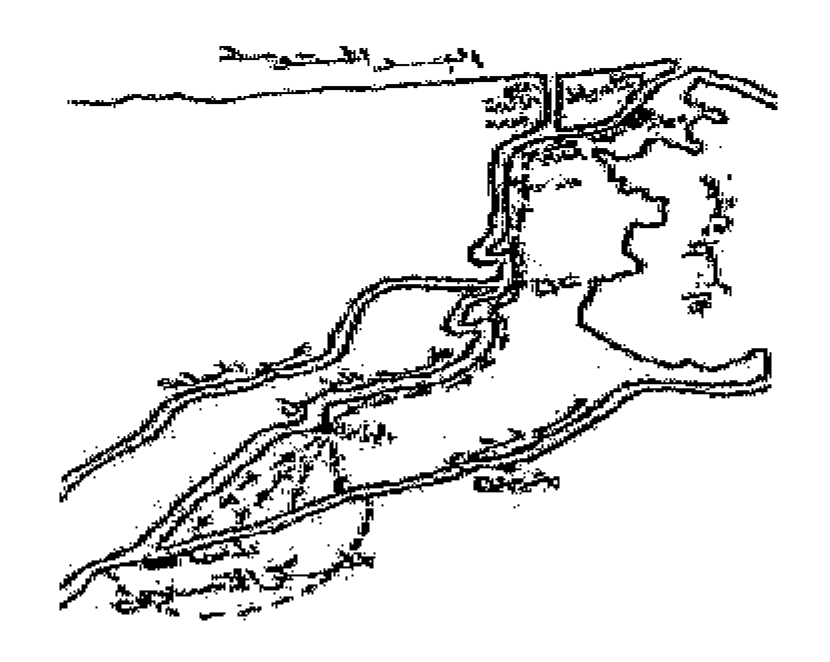
خريطة رقم (1)

الشرق الأدنى في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي



خريطة رقم (2)

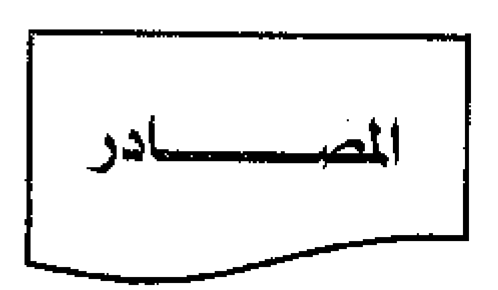
مدينة دمياط زمن الحملة الصليبية الخامسة



خريطة رقم (3)

خط سير القوات الصليبية من دمياط إلى المنصورة




المصادر

أولا: المصادر الأجنبية:

- Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, ed. R. H.C., H. Occ., T. IV, Paris, 1879, pp. 265 - 713.
- Amadi, F., Diomedes, S.: Chroniques d'Amadi et de Strambaldi, Ed. Mas Latrie R., Histoire Politique, Paris, Paris, 1891-1893.
- Ambroise, The Crusade of Richard Lion- Hert, Tr. M. Jerom, Columbia university press, 1941.
- A. S. C., The First and the Second Crusade from an Anonymus Syriac Chronicle, Tr. By Arthur S. Tritton and and Hamilton A.R. Gribb, Journal of the Royal Asiatique Asiatique Society, 1933, part 1.
- Bar Hebraeus , The Chronigraphy of Gregory Abu Faraj , Faraj , English translation , V. I , London 1932.
- Du Cange, Les familles d'Outre-mer, publiées par M.E.G. M.E.G. Rey, Paris, 1869.
- Fulcher of Charters, A History of the Expedition to Jerusalem, Tr. By Frances Rita Ryan, edited with an introduction by Harolds Fink, U.S.A., 1969.
- Gregiore Le Pretre, Chronique de Qregoire le Pretre, cf. cf. R.H.C., Doc Arm, T. I, p. 151- 201.
- Guibert de Nogent, Historia quaedicitur Gesta Deiper france, ed. R.H.C., H. Occ., Tome IV, Paris, 1879, pp. 113- 263.
- Jacques de Vitry, The History of Jerusalem A.D. 1180, trans. from the original Latin by Aubery Stewart, in P.P.T.S.,Vol.XI, London, 1896.

- Kinnamos, Deeds of John and Manuel Comnenus, trans. trans. by Charles M. Brands, New York, 1976.
- Les lignages d'outre-mer, cf. Assises de Jérusalem, T. II, Paris, 1843.
- Letter of Hermann of Salza , Annales Melrosenes, in (M.G.H., SS.,) vol. 27.
- Makhairas, Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus Cyprus entitled "Chronicle", edited with a translation and and notes by R. M. Dawkins, Vol. I, Oxford, 1932.
- Marsy, A., Fragment d'un cartulaire d'ordre de Saint Lazare en Terre-Sainte, in A.O.L., Tome II, Paris, 1884. 1884.
- Matthieu d'Edesse, Extraits de la chronique de Matthieu Matthieu d'Edesse, ed. R.H.C. Doc. Arm., Paris, 1869, T. T. I .
- Michel le Syrien, La Chronique de Michel le Syrien, tr. tr. By Chabot, Paris, 1905. vol. III.
- Niketas, Ocity of Byzantium, Tr. Harry J. Magoulias, Wayne state University Press, Detroit, 1984.
- Oliver of Padenborn, The Capture of Damietta , tr. John J. John J. Cavigan, Philadelphia, 1968.
- Ordric Vitalis and Robert of Torigni,
- The Gesta Normannorum Ducum of William of Jumieges,tr.Elisabeth M.C.Van Houts,Two Vols,Oxford,1995.
- Philip of Novare, The wars of Frederick II against the Ibelins in Syria and Cyprus, trans. by J. L. La Monte and and M.J. Hubert, New York, 1936.

- Popes of Rome from Saint Peter , the First Beshop, to Pius the Ninth , the Present Pope , tr. From French of , L. Marie de Cormenin, vol, I, Philadelphia, 1851.
- Raoul de Caen, Gesta Trancridi in Expeditione Hierosolymitana E.R.H.C., . H.Occ., T.III, Paris, 1866.
- Richard of Cornuall, Letter to Baldwin of Rierers and Robert Clerk Rome, 1, July 1241 in Matthew, Paris, Vol Vol I.
- Roger of Wondover, Flowers of History , 2 vols., tr. J.A. J.A. Gilles, London, 1849.
- Rohricht, Regesta Hierosolymitani, Innsbruck, 1893.
- Walter The Chancellor's,
- The Antiochene Wars,tr.Thomas S.Asbridge and Susan B.Edgington,Sydney,1999.
- William of Nangi, Gesta Sanctae Memoriae Ludovici Regis, in R.H.G.F., Vol XX.
- William of Tyre, A History of the Deeds Done Beyond the Sea, trans. and annotated by E.A. Babcock and A.C. A.C. Krey, 2 vols., New York,1943.vol. I, p . 450 .

ثانيا : المصـــادر العربية والمعربة :

- ابن الأثير : (ت 630هـ / 1232م) أبو الحسن بن أبى الكرم الملقب عز الدين :

1- الكامل فى التاريخ، 9ج، دار الفكر، بيروت 1398هـ / 1978م .

2- التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة 1963م .

- ابن حبيب : (ت 779هـ / 1377م) الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ج1، حوادث وتراجم (678- 708هـ / 1279- 1308م)، نشره وحققه ووضع حواشيه محمد محمد أمين، راجعه وقدم له سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1976م .

- ابن حزم : (ت 456هـ) أبو محمد بن علي بن سعيد بن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، ط4، دار المعارف، بدون تاريخ.

- ابن حوقل : (عاش في القرن الرابع هـ/ القرن العاشر م) أبو القاسم محمد النصيبي :"صورة الأرض"، مكتبة الحياة، بيروت 1979م.

- ابن خلدون : (ت 808 هـ / 1406م) عبد الرحمن محمد المغربي؛

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، م5، بيروت 1968م.

- ابن سباط : (غير معروف له تاريخ وفاة)، حمزة بن أحمد بن عمر :

- صدق الأخبار في نسبة آل تنوخ، نشر ضمن كتاب حيدر أحمد الشهابي (ص 564- 605).

- ابن شاهين الظاهري : (ت 872هـ / 1467م) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بنشره وتصحيحه بولس راويس، مطبعة الجمهورية بباريس، 1894م.

- ابن شداد : (ت 632هـ / 1239م) بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تيم: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية : تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، ط1، القاهرة 1964م.
- ابن شداد : (ت 684هـ / 1285م) عز الدين بن عبد الله محمد بن على بن إبراهيم: تاريخ الملك الظاهر، عنى بنشره أحمد حطيط، دار النشر فراتز شتاير، برفسبادن، 1403هـ / 1983م.
- ابن عبد الظاهر : (ت 692هـ / 1292م) محيى الدين: تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، حققه د. مراد كامل، راجعه محمد على النجار، الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر، ط1، القاهرة 1961م.
- ابن العديم : (ت660هـ / 1262م) كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله : زبدة الحلب من تاريخ حلب، نشر وتحقيق سامى الدهان: المعهد العلمى الفرنسى للدراسات العربية، دمشق، ط2، 1951م، ج2، 1954م، ج3، 1967م.
- ابن العماد : (ت. 1089هـ / 1679م) أبو الفلاح عبد الحي بن أبي محمد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 8ج، القاهرة، 1340 – 1351هـ .
- ابن الفرات : (ت 807هـ / 1404م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على: تاريخ الدول والملوك، م4 جـ1- 2، م5 جـ1، نشر حسن محمد الشماع، البصرة 1967- 1970م.
- ابن القلانسى : (ت555هـ / 1160م) أبو يعلى حمزة بن على بن محمد: تاريخ أبي يعلى حمزة القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق، بيروت 1908م.

- ابن المقفع : (عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / أواخر القرن العاشر الميلادي) أبو البشر بن المقفع الكاتب : تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة، تحقيق : عبد العزيز جمال الدين ،10 ج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، بدون تاريخ .
- ابن منظور: (ت 711هـ / 1311م) محمد بن مكرم بن علي :
- لسان العرب، ج5، دار المعارف، القاهرة، 1997م.
- ابن ميسر : (ت 677هـ / 1278م) محمد بن علي بن يوسف :أخبار مصر، 2جـ ن نشر هنري ماسيهن القاهرة، 1919.
- ابن واصل : (ت 697هـ / 1298م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ1، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة 1960م.
- ابن الوردي : (ت749هـ/ 1349م) أبو حفص زين الدين عمر مظفر :
- تتمة المختصر في أخبار البشر، ج2، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، الطبعة الأولى، بيروت 1970م.
- أبو شامة : (ت 655هـ / 1267م) شهاب الدين أبو محمد بن عبد الرحمن: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، 2ج في مجلد واحد، نشره محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة 1956-1962م.
- أبو المحاسن : (ت. 874هـ / 1231م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 9جـ، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1929 – 1942م.

• أسامة بن منقذ: (ت584هـ/ 1188م) مويد الدولة أبو المظفر أسامة بن رشد الشيزري: كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، برنستون، 1930م.

• البغدادي: (ت 739هـ / 1338م) صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي؛ مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1373هـ / 1954م.

• البنداري: (ت 622هـ / 1225م) الفتح بن علي؛ سنا البرق الشامي، اختصار كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني، تحقيق د. فتحية البجاوي، القاهرة 1979م.

• بيبرس الدوادار: (ت 725هـ / 1325م) الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري؛

1- التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشره وقدم له ووضع فهارسه د. عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1407هـ / 1987م.

2- زبدة الفكرة في تاريخ أهل الهجرة، جـ9، تحقيق زبيدة محمد عطا، القاهرة، بدون تاريخ.

• جاك دي فيتري :رسائل جاك دي فيتري دراسة وثائقية في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب 1200 – 1240، ترجمة وتعليق ودراسة: عبد اللطيف عبد الهادي السيد، بدون تاريخ.

- الحريري : (عاش في القرن السابع الهجري / القرن الثالث عشر الميلادي) أحمد بن علي: الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، دار الدعوة، الإسكندرية، 1984م.
- الحنبلي : (عاش في القرن السابع الهجري / القرن الثالث عشر الميلادي) أحمد بن إبراهيم: شفاء القلوب في تاريخ بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، بغداد 1979م.
- الدمشقي : (ت727هـ / 1327م) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة : الدر الثمين في سيرة نور الدين (مخطوط)، ورقة 57.
- الذهبي : (ت. 748هـ / 1347م) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: دول الإسلام، 3ج، حيدر آباد، الدكن، 1337هـ.
- روبرت كلاري: فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة حسن حبشي، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، 1964م.
- ريموند اجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، نقله للعربية وعلق عليه، حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، 1990.
- سبط بن الجوزي : (ت654هـ / 1257م) أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، 8ج، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، 1370هـ / 1951م.
- السويدي : سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، بيروت، ط1، 1986م.

- شافع بن علي ، (ت 733هـ / 1332م) شافع بن علي بن عباس الكاتب: حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، تحقيق ونشر عبد العزيز عبد الله الخويطر، جامعة الملك عبد العزيز، المكتبة المركزية، جدة، بدون تاريخ.
- صالح بن يحيى : (عاش في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي) الأمير صالح بن يحيى بن الحسين أمير الغرب: كتاب تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، نشر وتعليق لويس شيخو، بيروت، في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، 1898م.
- الطبري : تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، دار المعارف، جـ2،1.
- العماد الكاتب : (ت597هـ/ 1201م) عماد الدين محمد بن محمد بن أبي بكر: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965م.
- فلهاردوين: فتح القسطنطينية ، ترجمة حسن حبشي، جدة، 1982م
- القزويني : (ت 682هـ/ 1283م) زكريا بن محمد بن محمود : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ
- القلقشندي : (ت 821هـ/ 1418م) أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد عبد الله) صبح الأعشى في صناعة الانشا ، 14ج، القاهرة 1913- 1920.
- مؤلف مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمه وقدم له ، حسن حبشي، دار الفكر العربي، 1958.

- مؤلف مجهول: تتمة كتاب وليم الصوري المنسوب خطأ لروتلان، ترجمة وتعليق أسامة زكي، مركز الدلتا للطباعة 1989م.

- المقريزي : (ت. 845هـ / 1442م) تقي الدين ابو العباس أحمد :

- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1 ، نشره وعلق عليه : محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1934.

- النويري : (ت732هـ/ 1322م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد: نهاية الأرب فى فنون الأدب، 27ج فى 55 مجلد، تحقيق دكتور سعيد عاشور، مراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة، دكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1405هـ - 1985م.

- ياقوت الحموي : (ت 626هـ / 1228م) شهاب الدين بن أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي : معجم البلدان، 5ج، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1404هـ/ 1984م.

ثالثا : المراجع العربية والمعربة :

- إبراهيم خميس: الصراع على عرش مملكة بين المقدس ومقتل كونراد دي مونتفرات (1188- 1192م/ 584- 588هـ)، "دراسات فى تاريخ مصر البيزنطية"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996م، ص63- 81.

- أسامة زيد :

1- ملكات بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى)، مجلة كلية الآداب، جامعة طنطا، العدد الثامن، يناير 1995م.

2- الصليبيون وإسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية (القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى) الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، 1980م.

3- الخوارزمية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي في عصر بني أيوب 1225 – 1246م / 622 – 644هـ، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 30، 1983.

4- صيدا ودورها فى الصراع الصليبى، الإسلامى، الإسكندرية، 1981م.

- إسحاق عبيد : روما وبيزنطة، دار المعارف بمصر، 1970م.
- البدراوى زهران : الصراع اللغوى فى عصر الحروب الصليبية، سلسلة كتابك، دار المعارف، القاهرة، رقم الإيداع 1983.
- حازم حسن جمعة : مفهوم اللاجئين فى المعاهدات الدولية والإقليمية "الحماية الدولية للاجئين"، مطبعة مركز حقوق الإنسان، القاهرة، 1997م، ص15- 32.
- حسن حبشى: نور الدين و الصليبيون، دار الفكر العربى، الإسكندرية 1948م.
- حسن عبد الوهاب:

1- تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1990م.

2- تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة حوالي 1190 – 1291م / 586 – 690هـ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989.

- حمدى الغنيمى: الملجأ فى القانون الدولى، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد، كلية الحقوق، جامعة الإسكندرية، 1976م.

- رأفت عبد الحميد : قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1998م.

- رانسيمان : تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة : نور الدين خليل، 3 ج، مكتبة الشروق، القاهرة، 1998.

- ريمون ستانيلوي : مفاتيح أورشليم القدس حملتان صليبيتان على مصر 1200 – 1250، ترجمة عايدة الباجوري، مراجعة وتقديم : إسحق عبيد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004، ص101- 102.

- سعيد عاشور : الحركة الصليبية، 2ج، القاهرة 1936م.

- سعيد عبد الله البشاوى : نابلس - الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية فى عصر الحروب الصليبية 492- 690هـ / 1099- 1291م، عمان، 1991م.

- سهيل ذكار: حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس، دار حسان للطباعة والنشر، 1984م.

- الشدياق طنوس بن يوسف: أخبار الأعيان فى جبل لبنان، بيروت 1859م.

- عبد الحفيظ محمد على: مشكلات الوراثة فى مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية 1131- 1187م/ دار النهضة العربية للطبع والنشر، القاهرة 1984م.

- عبد اللطيف عبد الهادي :الحروب الصليبية من خلال كتابات جاك دي فيتري خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر 1201 – 1240م، المكتب الجامعي الحديث ، 2006، ص 172.
- علية عبد السميع الجنزوري : إمارة الرها الصليبية، القاهرة 1975م.
- عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، 2ج، مؤسسة الرسالة، ط5، بيروت 1980م.
- كلود كاهن : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سيناللنشر، ط1، القاهرة، 1995.
- فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، 2ج، دار الثقافة، بيروت 1958م.
- لويس شيخو : بيروت تاريخها وآثارها، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1925م.
- ماير : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق : عماد الدين غانم، تقديم، نجاح صلاح الدين القابسي، منشورات الفاتح للجامعات، ليبيا، 1990.
- محمد شوقي عبد العال: حقوق اللاجىء طبقاً لمواثيق الأمم المتحدة، "الحماية الدولية للاجئين"، مطبعة مركز حقوق الإنسان، القاهرة، 1997م، ص33- 90.
- محمد الشيخ :

1- الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الإسكندرية، 1972م.

2- عصر الحروب الصليبية في الشرق، الإسكندرية، 1997، ص 445 -- 69.

- محمد الغنيمي: الغنيمي الوسيط في قانون السلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1982م.
- محمد فتحي الشاعر: أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية 1099- 1187م/ 492- 583هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1997م.
- محمد فرحات :

1- معاقل أعالي الفرات بين المسلمين والصليبيين 1097 – 1151م / 491 – 546هـ ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، الإسكندرية، 1988، ص 155 – 63.

2- العلاقات بين البابوية والكنيسة الإنجليزية في ضوء خطابات البابا إنوسنت الثالث 1198 -- 1216م، الإنسانيات، العدد 18، كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، فرع دمنهور، 2004، ص 111 – 153.

3- بيروت ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد، الإسكندرية، 1994م.

4- تاريخ الحروب الصليبية ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، 2014م .

- محمد كرد علي: خطط الشام، ج1، ط3، دمشق 1983م.

- محمود عمران :الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دي برين على مصــــر 1218 – 1221م / 615 – 618 هـــ، دار المعـــارف، الإسكندرية، 1985.

- نظير حسان سعداوى : جيش مصر فى أيام صلاح الدين، الطبعة الثانية، 1959م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

- يوشع براور : عالم الصليبيين، ترجمة وتعليق وتقديم د. قاسم عبده قاسم، د. محمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1999م.

رابعا : المراجع الأجنبية :

- Ammoun Blanche, Le Liban, Beirouth, Librairie du Liban 1968.
- Antonio Garcia, La canonística ibérica (1150–1250) en la investigación reciente, (Bulletin of Medieval Canon Law), II, 1981,pp. 41 – 75.
- Antony Leopold, How to Recover the Holy Land, Ashgate, England, 2000.
- Archer, T. H., The Crusades, The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem, London 1914.
- Budislav Vukas,International Instruments Dealing with The Status of Stateless, Persons and Refugees, (Revue Belge de Droit International), Vol. 8, No. 1, 1972, pp. 146- 148.
- Cahen, C.,
- La Chronique de Kirtay et les Francs de Syrie, in J.A., Paris 1931.

- La Syrie du Nord à l'époque des Croisades et la Principauté Franque d'Antioche, Paris 1940.
- Chalandon, F., Histoire de la Première Croisade, Paris, 1925.
- Churchill, Mount Lebanon, 2 vols., London 1853.
- Claud Cahen, La Syrie du nord à l'époque des Croisades et la principauté franque d'Antioche, Institut Français de Damas, Bibliothèque Orientale, I, Paris, 1940.
- Duggan, A., The Story of The Crusades, 1097 - 1291, London, 1063.
- P.W. Edburye, The Conqust of Jersalem and The Third Crusade, Ashgate, U.S.A. 1998.
- Grousset, René, Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, 3 vols, Paris, 1948.
- Holt, M., The Age of the Crusades, Longman, London, 1990.
- Hussey, The Later mocedonians, The Comneni and Angeli 1025 - 1204, ed. (C.M.H.), Vol. IV, Part, 1, Cambridge, 1976, pp. 193 - 259.
- Jacob E, InnocentIII, in C.M.H. ed. Hussey, London, 1975.
- Jane Sayers,
- Innocent III, leader of Europe 1198 - 1216, U. K., 1994.
- The Age of the Crusades, Longman, London, 1990.

- Jean, Richard, The Latin Kingdom of Jerusalem, trans. from French by Janet Shirley, 2 vols, Amsterdam, 1979.
- King, E., The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931.
- Lammens, H., La Syrie, précis historique, 2 vols, Beyrouth 1921.
- La Monte, J. L.,
- Feudal Monarchy in the Latin Kingdom, New York, 1970.
- "The Lords of Le Puiset on the Crusades", Speculum, XVII (1942), pp. 100 - 18.
- The Lords of Sidon, in Byzantion, Vol. XVII.
- "Lords of Caesarea in the Period of the Crusades", in Speculum, Vol. XXII, Cambridge, 1947.
- Lilie,R.J., Byzantium and The Crusader States 1096-1204,tr.T.C. Morries and Jean E.Ridings,Oxford 1993.
- Louise and Jonathan Riley Smith, The Crusades Idea and Reality 1095 – 1274, London, 1981.
- Marshall, W. Baldwin, The Latin States Under Baldwin III and Amalric I, 1143 - 1174, in Sitton, Vol I.
- Martin, Les premiers princes croisés et les syriens jacobites de Jérusalem, in J.A., 1888, ii.
- Miller, Essay on the Latin Orient, Cambridge, 1921.

- Nickerson, M.E., The Seigneury of Beirut in the Twelfth Century and the Brisebarre Family of Beirut, Blanche-garde in Byzantion, 1949.
- Oman, C.W., A History of the Art of War in the Middle Ages, vol. I, London, 1924.
- Peter Linehan, The Spanish Church and the Papacy in the 13th Century, Cambridge University Press, 1971.
- J. Phillips, Defenders of the Holy land, Relations Between The Latin East and The west, 1119- 1187, Clarendon press, Oxford, 1996.
- Prawer, Crusader Institutions, Oxford 1980.
- Rey, E., Les Colonies franques de Syrie aux XIe et XIIIe siècles, Paris 1883.
- Robert Jones, A Brief History 1095 – 1291, 2004.
- Robert L. Nichalson, The Growth of the Latin States 1118-1144, in Setton, Vol.I.
- Runciman, S.,
- The History of the Crusades, 3 vols, London, 1971.
- S. Emmanuel, Refugiés syro- palestinines au temps des Croisades in (Revue des études Islamiques, xxxv) Paris, 1967.
- Sadruddin Aga Khan,Legal Problems Relating to Refugees and Displaced persons, (Recueils Des Cours, Vol. 149), 1976.
- Scala Florance, Pope Innocent III, Ed, Jonthan Riley Smith, in "the Oxford Illustrated History of the Crusades" Oxford University Press, 1995.

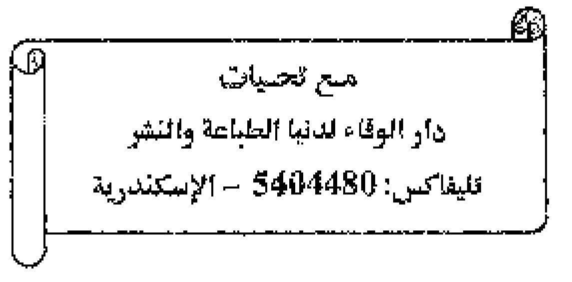
- Setton, K.M.,A History of the Crusades, vol. I, U.S.A., 1958.
- Smail, R.C., Crusading warfare 1091-1193, London 1956.
- Steven Tibble, Monarchy and Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem.
- Stevenson, The Crusadersin the East, Cambridge, 1907.
- Tibble, Monarchy and Lordships in the latin Kingdom of Jerusalem, 1099- 1291, Clarendon press, Oxford, 1989.
- G. Van Heuven, The Problem of Refugees, Recuéils Des cours, vol, 1, 1953.

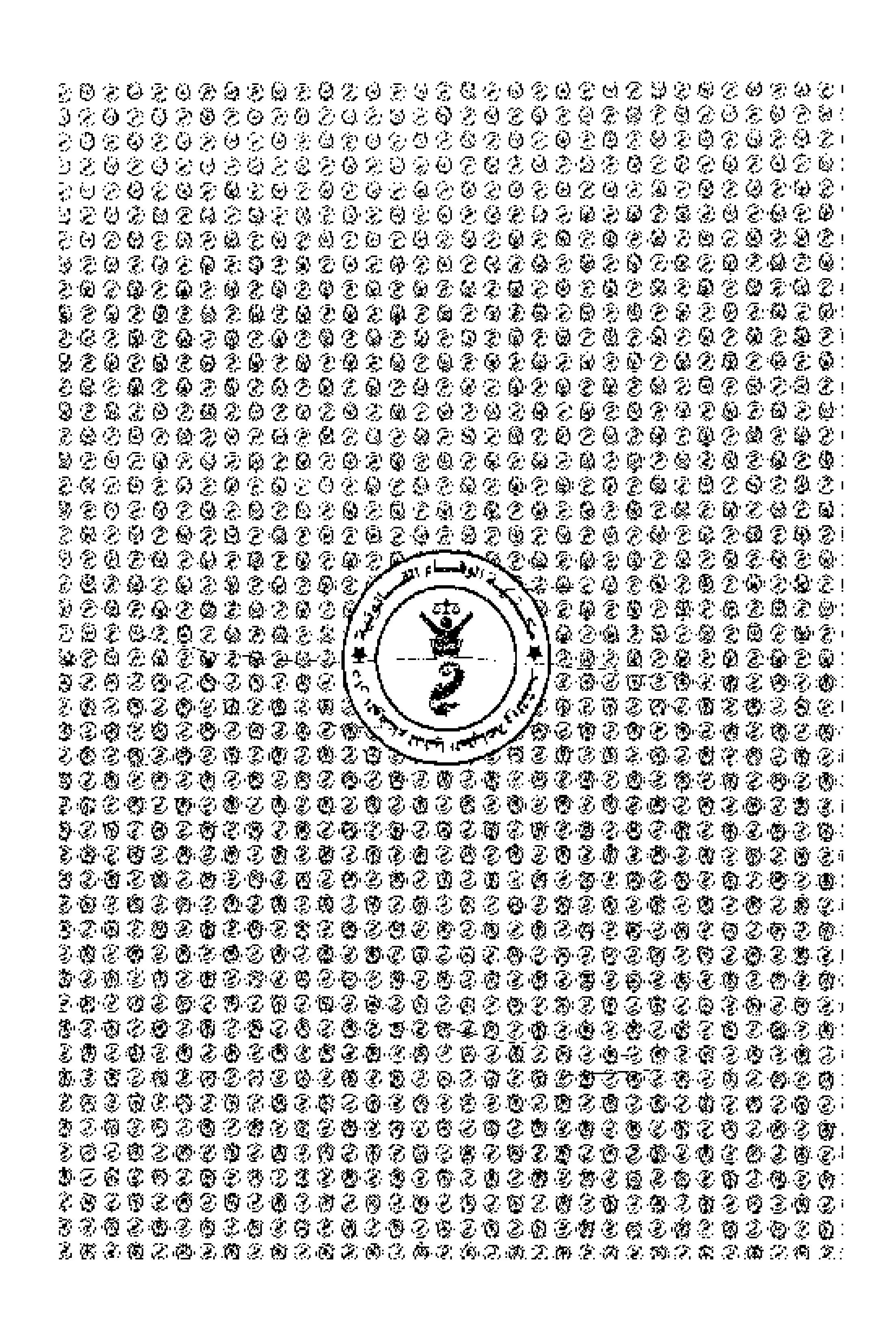
المحتويات

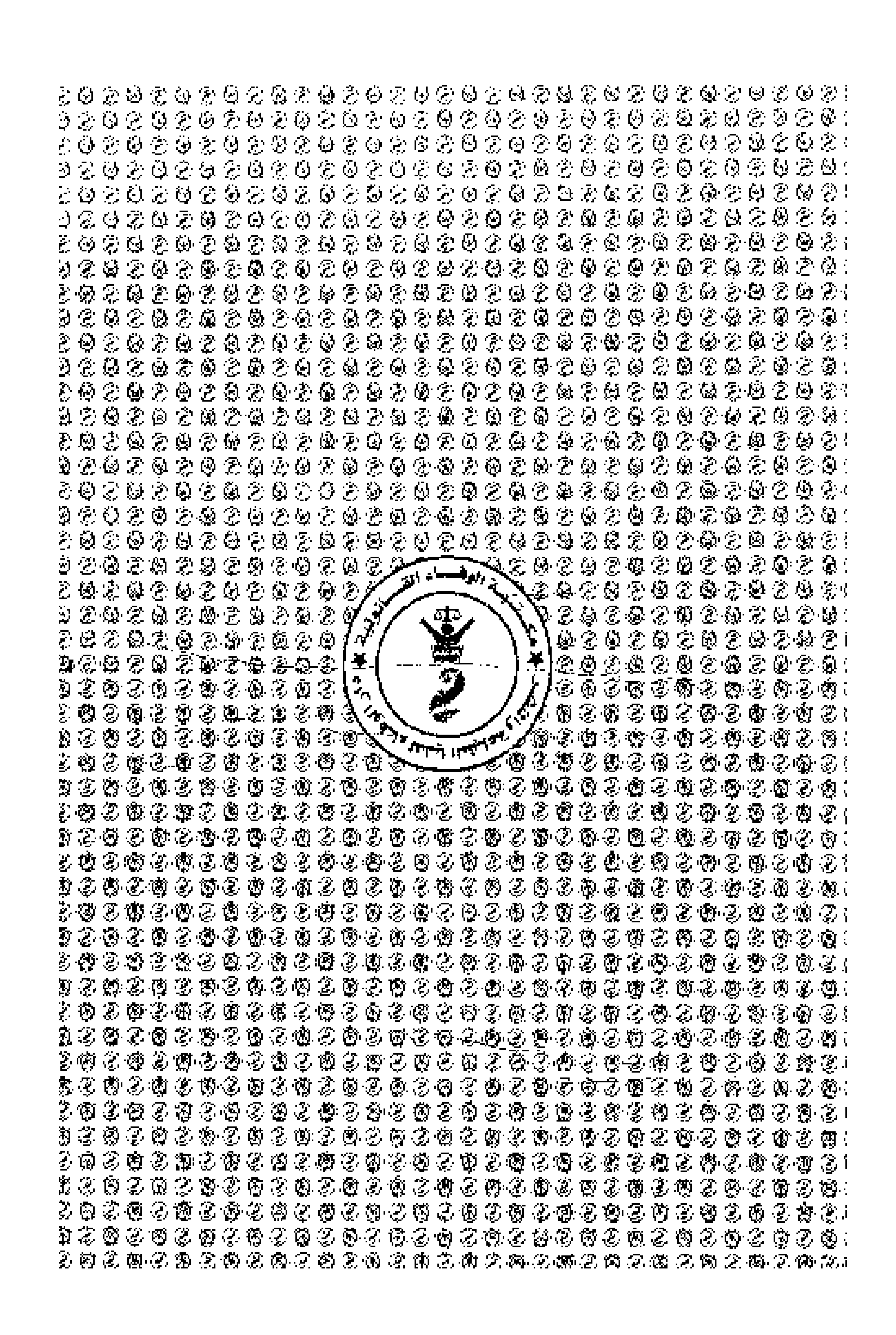
الموضوع	رقم الصفحة

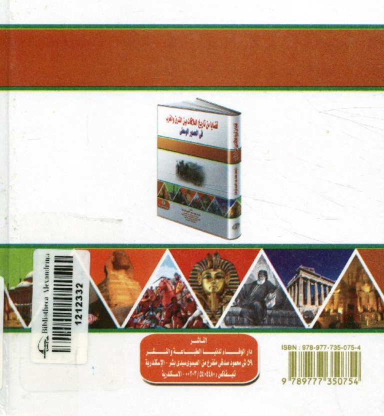
الموضوع	رقم الصفحة

رقم الإيداع : 2013/21781
الترقيم الدولي : 4-075-735-977-978








Bibliotheca Alexandrina
1212332
الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
٥٩ ش محمود صدقى متفرع من العيسوى سيدى بشر - الإسكندرية
تليفاكس : ٥٤٠٤٤٨٠ / ٠٠٢٠٣ - الاسكندرية
ISBN : 978-977-735-075-4
9 789777 350754